مسافر على الرصيف

محمود السعدني

مسافر على الرصيف

تأليف
محمود السعدني

هنـــداوي

مسافر على الرصيف

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٧ ٣٢٣١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

مقدمة	٧
أنور المعداوي ومحنة العصر	١١
الناقد ... القط!	١٩
الرجل الشجرة ... زكريا!	٢٥
الساخر العظيم	٣٣
شاعر لكل العصور	٤٣
الفلَّاح	٤٩
مُحارب بلا سلاح!	٥٥
رحلة بلا متاع!	٦٧
المأساة الأسوانية	٧٩
عبادة بن الناطق	٨٥
شاعر من بغداد	٩٣
وهكذا كان نعمان!	٩٩
زواج الدكتور!	١٠٥
مشروعات الأستاذ حريقة	١١١
أدباء ضاعوا في الزحام	١١٧
عباقرة الوهم!	١٢٧
بداية ونهاية	١٣٥

مقدمة

أخوكم الحقير لله محمود بن عثمان بن محمد بن علي بن السعدني، الذي ينحدر من أصول يمنية ومن قبيلة على حدود صنعاء، والذي رحل جده الأول مع الفتح الإسلامي، ثمَّ راقت له الحياة في مصر فأقام في الشرقية، ثمَّ خلال سنوات القحط والجوع والاضطهاد هاجر السعادنة من الشرقية إلى كل مكان، ولذلك ولهذا — ولماذا أيضًا — ستجد السعدني في المنوفية وفي الغربية وفي الإسكندرية وفي الجيزة. وستجد قبيلة السعدني المصرية مذكورة في كتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية منذ قرنين من الزمان!

ولكني لا أظن أنَّ أحدًا من قبيلة السعدني المصرية أو أصولها اليمنية قد داخ السبع دوخات كما داخ العبد لله، ولا أعتقد أنَّ سعدنيًّا آخر قد حصل له ما حصل للعبد لله. فأنا وحدي الذي داخ في البلاد وجالس العباد، وصادفه حوادث وكوارث يشيب لهولها الغراب! وأنا وحدي — من دون السعادنة — الذي قطع رحلة حياته، بلاد تحط وبلاد تشيل! وأنا وحدي قطعت بلاد العرب قرية قرية؛ من طنجة وإلى مأرب، وعلى بلاد الهند أنا مريت، وفي بلاد السند أنا أقمت وتمشيت، وفي اليابان أنا عشت تحت الشمس المشرقة، وإلى جوار أفران المصانع المحرقة. وفي بلاد الأمريكان أنا لفيت من بافالو إلى سكرامنتو، وأحببت الأمريكان وتمنيت أن أعيش معهم أمارس هذه الحياة، فهم عرب أغنياء، أو هم عرب تصببوا عرقًا ودمًا حتَّى صاروا أغنياء. وتمنيت أن نلف لفهم، وأن نمشي على دربهم، وأن نُحقِّق في خمسة قرون ما حققوه في قرن واحد من الزمان! وفي القارة المحظوظة أوروبا أنا مسحتها من مجريط بالعربي التي هي مدريد باللاتيني، إلى برلين بالألماني. ومن دبلن في إيرلندا إلى لاهاي في هولندا. وحكمة الله أنَّ أهل إيرلندا هم عرب أيضًا من بيروت ممكن، من الجزائر يجوز، من مصر لا مانع، ولكنَّهم وجدوا أنفسهم فجأة في أوروبا، ولكن ماذا يُفيد الجليد في الدم الحار الذي يغلي في العروق؟! وفي أفريقيا أنا نمت في الغابات وسرحت في البراري،

وعشت في الجبال، ودخلت بيوت الأفارقة، وصليت في جوامع مسلمين، وخالطت جماعة من أكَلة لحوم البشر، ولكن ما أطيب الجميع، وما أرق قلب الكل وما أقربهم إلينا، وما أشدهم عداوة على أعدائنا، وما أحرانا أن نلتفت إليهم، وأن نمد أيدينا لهم، وأن نمضي معهم، فلهم نفس الغاية ويسلكون نفس الطريق! ولكني أموت وفي نفسي شيء من حتى، لو ذهبت إلى قبري قبل أن تكتحل عيناي برؤية بلاد الحب والموسيقى والثورة في أمريكا اللاتينية! وأموت ناقص عمر لو انتهى الأجل قبل زيارة نيوزيلندا وأستراليا. فهذا الكوكب الذي نحيا عليه ما أصغره وما أجمله! وحرام أن نمر عليه دون أن نراه، وحرام أيضًا أن نمضي عنه دون أن نستكمل فرجتنا عليه!

ولكن على طول ما لفيت ونطيت في بلاد الله، أصارحكم بأنَّ أعظم رحلاتي في الحياة كانت بلا سفر، رحلة ساكنة ومستقرة وهادئة، أو خاملة في نظر البعض، رحلة قطعتها عبر سنوات طوال على مقعد في مقهى بلدي في الجيزة، هي قهوة عبد الله. وعبد الله هذا رجل بلا شأن ولا ذكر؛ ولكنَّه مُثاب رغم أنفه، فقد دخل التاريخ من أوسع الأبواب. وفي هذا المقهى الذي كانت أنواره باهتة، ومقاعده مهشمة، ورصيفه أعرض من حظه، وشهرته أوسع من مساحة الميدان الذي كان يطل عليه. في هذا المقهى التقيت بعشرات الأدباء والشعراء والفنانين، بعضهم تتلمذت على يديه، وبعضهم زاملته، وبعضهم تأَسْتَذت عليه — إن صحَّ هذا التعبير! نماذج من البشر قلَّ أن يجود الزمان بمثلهم. ونادرًا ما يجتمعون في زمان واحد. ولكن — وهنا المعجزة — جاد الحظ بهم، وفي وقت واحد! واجتمعوا طويلًا، ثمَّ انفضوا جميعًا، بعضهم اختطفه الموت، والبعض هرسه الزمن الغادر، وبعضهم طرده الجحود والنكران، ولكنَّهم جميعًا من زبدة مصر، وجزء من سحرها، وقبس من روحها، وحفنة من ترابها، وهم في النهاية مصر نفسها، وبدونهم ربما لا تكون مصر! وأسماء لمعت وأسماء انطفأت، وحظوظ طقطقت وحظوظ اندثرت، وبهم نشبت معارك ولا معركة البَسُوس، وبسببهم تحقَّق الخلود لأيام ولا يوم داحس والغبراء، وبفضلهم خرج من هذا المقهى الصغير الحقير شعاع من النور، هو نفسه جزء من النور العام الذي يشع في مصر كلها! وحكمة الله أنَّ رواد المقهى من الأدباء سلكوا طُرقًا مختلفة ولكن إلى غاية واحدة. وأغرب شيء أنَّهم جميعًا هاموا حُبًّا بمصر؛ ولكن أحدًا منهم لم يفُز بها! مجانين جميعًا ومصر ليلاهم، وعناترة كلهم ومصر عبلاهم! أسماء لها في مصر تاريخ، ولها في التاريخ مكان سيظل محجوزًا لهم، ونماذج لن تتكرَّر. وشخصيات كان يكفي أن تأتي واحدة منها في كل عصر لتُزيِّنه وتُبهجه وتنشر النور والضياء والبهاء. أنور المعداوي، وزكريا

الحجاوي، ومحمود حسن إسماعيل، وعبد القادر القط، وعبد الرحمن الخميسي، وزهدي الرسام، ونزار قباني، والشيخ عبد الحميد قطامش، ونعمان عاشور، ومحمود يوسف، ومحمود شعبان، والدكتور عباس الشيخ، والشيخ كامل أبو العينين، وعبد العليم عيسى، وأنور فتح الله، وعبد الرحمن العيسوي، والدكتور محمد كامل حسين، وشفيق الكمالي، والشيخ محمد الفيومي، وعدنان الراوي، وأديب نحوي، وهاشم السمان. وكان هذا جيلًا، ومن بعده جاء جيل آخر، وجاءوا تلاميذ في البداية، ثمَّ دخلوا في القافلة وأصبحوا أساتذة بعد ذلك. يوسف إدريس، وصلاح عبد الصبور، والشاعر أحمد حجازي، وصلاح جاهين، والفنان حسن فؤاد، وأبو المعاطي أبو النجا، وأحمد عباس صالح، وعلي الغندور، ورجاء النقَّاش، ويوسف الحطَّاب، وفوزي درويش.

وكانت سياحتي في قهوة عبد الله هي أهم سياحة في العمر، وكانت رحلتي خلالها هي أطول رحلاتي، فقد امتدَّت عشر سنوات كاملة تنقلت فيها خلال هذه الجزر الخصبة والصحراوات المجدبة، ولكنَّها بخيرها وشرها كانت حياة حافلة، وجامعات كبرى للفلسفة والتاريخ والمنطق والفن والأدب والشعر والموسيقى، وفن النكتة، وعلم الحديث والكلام!

وعلى هذه الصفحات سيقوم أخوكم الحقير لله محمود بن عثمان بن محمد بن علي بن السعدني بجرد الذاكرة لاستجلاب آخر نقطة فيها عن فرسان ذلك الزمان، فقد كانوا ملح الأرض وزبد الحياة، وكانوا جزءًا من روح مصر وقطعة من عقلها، وأشاعوا المرح والحب، وعلَّموا الأجيال فنون الصياعة الرفيعة والأدب العظيم، وشقوا طريقهم في الحياة وكل منهم يحمل في يده شمعة، بعضها له ضوء باهر، وبعضها انكسر ضوءه فأصبح يشع دخانًا أكثر مِمَّا يشع نورًا! وبعضها انطفأت شُعلته بفعل العواصف والرياح! ولكن الذي لا شكَّ فيه ولا ريب فيه أنَّ كُلًّا منهم اعتصر نفسه حتى النخاع، وأدى دوره بالقدر الذي استطاعه. وكانت النيات حسنة، وإن كانت بعض الأعمال ليست على ما يُرام! وإنَّ البعض لقي جزاء سنمار، والبعض الآخر تأبَّطَ شرًّا، والبعض الآخر ضاع في زحام السوق الذي استولى عليه الأرزقية والأغوات. ولكن بعضهم استطاع — رغم المحن والإحن — أن ينتزع مكانه تحت الشمس، وأن يُضيء بالرغم من كل شيء، وأن يدخل التاريخ بالرغم من الأسوار العالية والأقفال المحكمة، ولكن يبقى أنور المعداوي هو شهيد المقهى والمرحلة، وهو ضحية الشموخ والكبرياء، وهو النموذج الذي لم تتلوَّث يده، والبطل الذي عفا عند المقدرة، وعفَّ عند المغنم! وفي المقابل يأتي نموذج الدكتور عباس الشيخ الذي احترق عند البداية، واشتعل رأسه شيبًا وهو لم يزَل شابًّا، واشتعل عقله جنونًا وهو غاية في الرزانة

والكمال! واكتفى من الحياة بالفرجة والصمت، ثمَّ مضى فجأة في هدوء وكأنَّه لم يمر قط على هذه الحياة!

وأرجو من الله — ولا يكتر على الله — ألَّا يميل بي الهوى أو يميل بي القلم، وأن يوفقني إلى ما يُرضي الحقيقة ويرضاه. وإذا سقطت أسماء أو ضاعت في زحام الذاكرة أحداث؛ فأرجو أن يغفر لي الموتى وأن يُسامحني الأحياء، فليس مثل السن له أحكام. والشيخوخة لها رغاوي تصبها على العقل العجوز، وتدفع بالذكريات إلى الانزلاق عليها لتسقط في هاوية النسيان!

ولكن ما يُطمئنني أنَّ تجاربي السابقة تؤكِّد أنَّه لا يبقى عالقًا بالذاكرة إلَّا ما يستحق الذكر، ولا يمكث في العقل الباطن إلَّا ما ينفع الناس.

العبد لله

أنور المعداوي ومحنة العصر

يبدو أنَّ المعارك العنيفة التي خاضها جمال عبد الناصر في بداية حكمه ضد الأعداء في الداخل وفي الخارج، لم تدَع مجالًا للقائد لرعاية الكتَّاب والأدباء!

بالطبع كان هناك أدباء وكتَّاب يحتلون موقع الصدارة، ولكن هؤلاء كانوا في موقع الصدارة دائمًا. فهم الأدباء والكتَّاب الرسميون في كل عهد، وهم كانوا يتمتعون بنفس الحظوة أيام الملك فاروق، وظلُّوا يتمتعون بها أيام جمال عبد الناصر. ولكن غير هؤلاء الأدباء الرسميين لم يستطع أحد آخر أن ينفذ من الحصار المضروب إلَّا في النصف الثاني من الستينيات. ولكن قبل هذا التغيير النوعي كان معظم الأدباء غير الرسميين قد حلُّوا ضيوفًا على السجون الحربية والمدنية. وبعضهم ذاق التشرد والفصل من الوظيفة، وكان أنور المعداوي واحدًا من هذا الصنف الأخير!

ولكن مأساة أنور المعداوي ستظل فريدة في تاريخ المآسي؛ لأنَّ أنور المعداوي لم يكن ضد الثورة، ولم يكن ضد جمال عبد الناصر، ولكنَّه كان ضد نوع من الأدباء احتلوا القمة في الساحة الأدبية، وهم في الأصل كانوا ضباطًا في القوات المسلحة، ثمَّ اعتزلوا السلك العسكري واحترفوا العمل الأدبي، وأصبحوا هم مندوبي القيادة ... في الشعر والأدب والفن! وكان «س» هو عميد هؤلاء الأدباء، فهو لواء بالجيش، وقائد بسلاح الفرسان، وهو كان يُمارس كتابة القصة قبل الثورة، وهو كان يُمارسها من باب الهواية ولشَغل أوقات الفراغ!

ولكن بعد الثورة اندفع فجأة إلى الصدارة، وصار واحدًا من الكُتَّاب الرسميين، وأصبح رئيسًا لنادي القصة، وسكرتيرًا عامًّا للمجلس الأعلى للآداب والفنون، وسكرتيرًا لنادي الأدباء!

ولقد تحمَّل أنور المعداوي واتسع صدره لكل هذا الذي حدث. وكان من الممكن أن يتحمَّل إلى النهاية، لولا أنَّ «س» أصبح فجأة — وبقدرة قادر — رئيسًا لتحرير مجلة

«الرسالة»! ولأنور المعداوي علاقات وثيقة وتاريخية وعاطفية بمجلة «الرسالة» القديمة. فقد كان واحدًا من أبرز كُتَّابها، وكان هو أول من سلَّط الضوء فيها على أشعار نزار قبَّاني، وكان أول من بشَّر على صفحاتها بأدب نجيب محفوظ!

وكانت مجلة «الرسالة» القديمة، التي كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيَّات، هي أعظم وأرقى المجلات الأدبية في الوطن العربي. وكان لا يُنشر فيها غير إنتاج كبار الكُتَّاب والأدباء والشعراء، وأصبحت بمرور الزمن مدرسة تربى فيها جيل كامل من الأدباء من طنجة إلى حلب. ثمَّ اضطرت المجلة إلى الاحتجاب فترة من الزمن.

وعندما عادت «الرسالة» إلى الصدور في بداية الخمسينيات، كان شكلها وإنتاجها يُعبِّر عن التغيير الذي طرأ على الحركة الأدبية في مصر. كانت من حيث الشكل تُنافس مجلة «الكواكب»، ومن حيث المضمون كانت نسخة مُكرَّرة من مجلة «آخر ساعة»، مع فارق بسيط هو أنَّ مجلة «آخر ساعة» يُحرِّرها صحفيون محترفون، بينما مجلة «الرسالة» يتولاها هواة لا خبرة لهم ولا حيلة. كان «س» — الضابط السابق — يرأس تحريرها، و«ص» — الضابط المتقاعد — يُشرف على إدارة التحرير، بينما يتولَّى تحريرها نفر من أشباه الكُتَّاب، الذين حاولت الأجهزة فرضهم على الحركة الأدبية! وكانت هذه أكبر ضربة وُجِّهت إلى أنور المعداوي. هبَّ كالإعصار يُهاجم مجلة «الرسالة»، وبالطبع هاجم «س» وبطانته؛ هاجمه كأديب، ولكن «س» اعتبر الحملة موجهة ضده كمندوب للقيادة. ولمَّا كانت المعركة غير مُتكافئة بين أنور المعداوي وسلاح المدرعات، فقد آثرتُ أن أتدخَّل في الموضوع لإصلاح ما يُمكن إصلاحه. وبالفعل رتَّبت موعدًا بين «س» وأنور المعداوي، وكان «جروبي» عدلي باشا مكان اللقاء، وأبدى «س» رغبته في أن يتولَّى أنور المعداوي إدارة تحرير «الرسالة» بدلًا من «ص». وقَبِلَ أنور المعداوي؛ ولكن بشروط، ولم يُفصح عن هذه الشروط، ولكنَّه وعد بالكشف عنها عند لقائه بالسيد «س».

كان اللقاء في الخامسة بعد الظهر في «جروبي» عدلي باشا كما قلت، وذهبت أنا في الخامسة إلَّا ربعًا وجلست أنتظر. وفي الخامسة تمامًا وصلت سيارة حربية ترفع علم القيادة، ونزل منها الأديب «س» في ملابس جنرال. ورُحنا نتجاذب الحديث لمدة ساعة، ولم يظهر أي أثر لأنور المعداوي. وفي السادسة والربع أهلَّ علينا بقامته السامقة وكبريائه المعهودة، واعتذر عن التأخير لارتباطه بموعد سابق مع «فلَّاح من بلدنا». ورمقني «س» بنظرة حادة، وكأنَّه يقول: «عذر أقبح من ذنب». وبلع «س» الإهانة وواصل الحديث بهدوء مع أنور المعداوي. وعرض عليه إدارة تحرير مجلة «الرسالة». ووافق أنور بشروط. ولكن

الشروط كانت أكثر مِمَّا يَحتمل «س». كان أول شرط هو فصل جميع المحررين الذين يعملون بها. وكان آخر شرط هو عدم نشر الكلام الفارغ الذي ينشره «س». وانتهت الجلسة إلى لا شيء.

وافترقنا، «س» إلى مجلة «الرسالة»، وأنور المعداوي وأنا إلى قهوة عبد الله. وفي الطريق سألني أنور المعداوي عن رأيي في الحديث الذي دار، وقلت له بصوت خفيض: لا بأس بالحديث، ولكني أعتقد أنَّه سيكون بداية المتاعب. وقال أنور — وهو يهز رأسه الكبير: مرحبًا بالمتاعب! ولكن الذي حدث بعد ذلك لم يكن من نوع المتاعب؛ بل كان من نوع المصائب. أطيح بأنور المعداوي، ففُصِل من وظيفته بطريقة خبيثة، وانقطع صرف مرتبه، وضيَّقوا الخناق عليه؛ فلم يعد يستطيع أن ينشر حرفًا من إنتاجه، ومع ذلك لم يهدأ أنور المعداوي، ولم يستسلم، ولم يُهادن. استعان على مواجهة مطالب الحياة بمعونة مالية من صديقه الأديب الطيب محمود شعبان — وهي قصة سنتعرَّض لها بالتفصيل فيما بعد — وقد لجأ إلى القضاء عارضًا القضية بكل أبعادها أمام المحاكم. ولكنَّه بالرغم من المحنة والصدمة، لم يتخلَّف يومًا واحدًا عن مكانه في قهوة عبد الله. ولم يقطع صلته بالندوة بالرغم من وجود عدد من مندوبي السلطة والمخبرين كل ليلة. ولم يتوقَّف عن إبداء رأيه في الحال السيئ الذي انتهى إليه الأدب في مصر، وطال الزمن بالقضية أمام المحاكم، ثمَّ صدر الحكم بإنصاف أنور المعداوي وإعادته إلى وظيفته. ولكن الجهاز البيروقراطي المُدرَّب نفَّذ حُكم القاضي، وضاعف من غيظ أنور المعداوي، فقد كان أنور يعمل مستشارًا بالمكتب الثقافي بوزارة التربية والتعليم، ولكنَّهم أعادوه بوظيفة مدرس بمدرسة ابتدائية مغمورة في حي من أحياء القاهرة المُعِزِّية. وكانت الضربة شديدة هذه المرة. ولم يحتمل أنور القوي؛ فقد أدركه ضعف الإنسان الفرد أمام جبروت الحكومة. وأنَّه لا مناص أمام الإنسان الفرد من الركوب في عربة النظام، أو مرور العربة على جثته. فاستقال أنور من الوظيفة، وبدأ صراعه مع المرض الرهيب الذي قضى عليه!

ولم تكن هذه قصة حياة أنور المعداوي، ولكنَّها قصة نهايته، أردت أن أبدأ بها ليعلم القُراء كيف مات ناقدٌ لم تُنجب مصر من طرازه إلَّا عددًا أقل من أصابع اليد الواحدة! وكيف انتهت حياة مُفكر عظيم لو أُتيحت له الظروف المناسبة لترك في مصر أثرًا ربما فاق الأثر الذي تركه العقاد! ولكنَّها الظروف السياسية التعيسة حين تفرض على السلطة أن تؤثر الولاء الأعمى على النصيحة الخالصة، وأن تقبل بالذيول وترفض الأنداد. وأن تطرد أهل الخبرة لتحل محلهم أهل الثقة! وأن تحجب عن القُرَّاء قلم أنور المعداوي، بينما تُطلق العنان لأقلام استُخدِمت أغلب الوقت في كتابة تقارير كاذبة!

إنَّها ليست محنة أنور المعداوي، ولكنَّها محنة العصر، وهي مأساة تتكرَّر كثيرًا؛ ولكن أحدًا لا يستفيد منها، ولا أحد يتعظ بها، لأنَّه هكذا الحياة، اعملوا فكلٌّ مُيسرٌ لِمَا خُلِق له!

وأغرب شيء أنَّني عندما رأيت أنور المعداوي لأول مرة في حياتي على قهوة محمد عبد الله، حسبته ضابطًا بالقوات المسلحة، فقد كان طويل القامة متين البنيان، رافع الرأس على الدوام. ولم يكن وحده حين رأيته أول مرة، ولكن كان بصحبته صديقان قُدر لهما أن يشتهرا فيما بعد. أحدهما كان يساريًّا اشتغل بالسياسة في البداية ثمَّ طلَّق يساريته نهائيًّا بعد أن ذاق مرارة السجن، واحترف الصحافة في النهاية ومات مقهورًا، فقد كانت نهايته عكس بدايته، وكان سلوكه عكس معتقداته، وذهب دون أن يترك أثرًا في حجم موهبته!

والآخر كان اشتراكيًّا إسلاميًّا، واشتهر بعد ذلك كأحد زعماء جماعة الإخوان المسلمين، ثُمَّ قُدِّر له أن يدفع حياته ثمنًا لكتاب أصدره في الستينيات هو «معالم الطريق»، وبالرغم من غيابه عن دنيانا كل هذه السنين، إلَّا أنَّه لا يزال يُعتبر الأب الروحي لكل الجماعات الدينية المختلفة التي ظهرت في مصر، وربما في العالم الإسلامي! كان الأول هو «ر» وكان الرجل الآخر هو سيد قطب. وكان الثلاثة يجلسون في قهوة عبد الله، وكان الحديث بينهم يدور حول مجلة جديدة في طريقها إلى الصدور، هي مجلة «الفجر الجديد». الغريب أنَّ الثلاثة تجرَّعوا الموت قهرًا، وإن اختلفت الوسائل. لقد اكتشف «ر» أنَّ الكفاح طريق ليس له نهاية فآثر أن يبتعد، وارتاد طريقًا آخر هو طريق أكل العيش. ولكنَّه اكتشف بعد فترة أنَّه كسب عَيشه وخسر موهبته! وكانت النتيجة الإحساس بالقهر والمرارة ثمَّ الموت بعد ذلك. وكان موته الأدبي قد سبق موته الرسمي بفترة طويلة.

وكان سيد قطب نموذجًا يختلف كل الاختلاف عن «ر»، اكتشف منذ البداية أنَّ الطريق الذي يسلكه يؤدي إلى السجن وإلى القتل، فأسرع الخُطى على الطريق الذي اختاره، وعندما صعد على حبل المشنقة أدرك أنَّ طريقه المادي قد انتهى ليبدأ طريقه اللانهائي، وهو الذي أدى به إلى الخلود وإلى الأبدية! وكان أنور المعداوي نموذجًا ثالثًا. لم يكن سلبيًّا مُتعايشًا مع الظروف مثل «ر»، ولم يكن فدائيًّا كسيد قطب رفض الخضوع مع العيش الناعم، ورفض الثورة حتى الموت. وعندما اكتشف أنَّ قوى البطش أعتى وأعنف، انفجر في داخل نفسه شيء ما، ولم يلبث أن قاطع الحياة كلها ومات.

ولعل هؤلاء الثلاثة هم مصر كلها في تلك الفترة. ولن تجد بين طائفة المثقفين نماذج خارج هذا المثلث: «ر»، المعداوي، سيد قطب!

وقد يقول قائل: هناك نماذج أخرى انسجمت أهدافها مع أرزاقها، فعملوا وأنتجوا ولمعوا في كل عهد، وتضخموا وتضخمت أرصدتهم في كل وقت!

وأُجيب هؤلاء بأنَّني أتكلم عن طبقة المثقفين، ولأنَّ الثقافة ليست معلومات، ولا هي حرفة، ولا هي فهلوة أو عملية تفتيح عين. ولكن الثقافة هي وجهة نظر، وهي موقف، وهي طريق يختاره المثقف ويكون مُستعدًّا لأن يدفع حياته ثمنًا له! ولقد كان هؤلاء الثلاثة من خيرة المثقفين في مصر. كان «ر» من أهالي البر الشرقي في الصعيد، وهي أفقر منطقة في مصر؛ وربما في العالم. وعندما تخرَّج في كلية الآداب كان قد وضع كتابه عن «الأدب الشعبي» — هو العمدة حتَّى الآن في هذا المجال، وهو المرجع الوحيد عند علماء الغرب عن الفن الشعبي المصري الحديث. ومن خلال هذا الكتاب كان «ر» قد حدَّد موقفه تمامًا من الأشياء والناس وصراع الحياة، ولقد ساقه هذا الموقف إلى السجن، فقضى خلف أسواره عدة سنوات كانت كفيلة بتغييره من الضد إلى الضد. وعندما اجتاز بوابة السجن كان شخصًا آخر هو الذي خرج. واضطر من شدة الخوف أن يُؤلِّف كُتبًا ضد رفاق الطريق السابقين، وأن يُقاطع شلة شبابه المبكر. حتَّى قهوة عبد الله لم يعُد يتردَّد عليها. وفي النهاية قطع صلته بأقرب الناس إليه، ولم يشاهده أحد خارج دائرة عمله مدة عشرين عامًا متصلة!

سيد قطب كان شيئًا آخر يختلف.

كان اشتراكيًّا إسلاميًّا، ومع ذلك لم يتردَّد لحظة في أن يُشارك «ر» في إصدار مجلة ضد حكومة ذلك الزمان! وكان يختلف عن كل الذين يُجالسهم في قهوة عبد الله، ويختلف معهم، ولكنَّه أبدًا لم يقطع حبل الود بينه وبينهم. كان يُحب الجميع ويحترم الجميع أيضًا، وبالرغم من مشاغله الكثيرة كان حريصًا على التردد على قهوة عبد الله بين الحين والآخر. لم ينقطع عنها إلَّا بسبب سجنه ... وعندما غادر سجنه كانت القهوة قد زالت من مكانها! بل لقد حرص خلال فترة سجنه الطويلة على أن يُسرِّب خطابًا من خلف الأسوار إلى صديقه أنور المعداوي، بعكس «ر» الذي استوقفتُه ذات مرة في الشارع وأبلغته بأنَّ المرض قد اشتد على أنور المعداوي، وأنَّه في طريقه إلى الموت. عندئذٍ نظر إليَّ «ر» بلا مبالاة وقال في هدوء: «ما احنا كلنا عيَّانين يا عم سعدني»، ولم يزِد حرفًا بعد ذلك!

وإذا كان سيد قطب قد مات شهيدًا، و«ر» قد مات ضائعًا، فإنَّ أنور المعداوي كان يقف في المنتصف تمامًا بين «ر» وسيد قطب. فهو لم يكن من طبقة الشهداء، كما أنَّه لم يكن من النوع الذي يأكل عيشه بالجُبن، لذلك مات مقهورًا، وانفجرت شرايين دماغه من شدة الغيظ. ولكنَّه — حتَّى برغم المحنة — لعب دورًا رئيسيًّا في حياة الجيل الذي

سبقنا والجيل الذي ننتمي إليه. ذات مساء كانت القهوة عامرة بنخبة من الأدباء والشعراء والفنانين. وكان زكريا الحجاوي يتحدَّث عن مجلته الجديدة «الميزان» التي في طريقها إلى الصدور! وراح زكريا الحجاوي يتحدَّث بحماس عن الواقعية الجديدة التي سترفع شعارها مجلة «الميزان». وفي النهاية طلب من جميع الحاضرين أن يُساهموا في المجلة بأقلامهم وإنتاجهم. ثمَّ خص أنور المعداوي برجاء؛ أن يكتب افتتاحية «الميزان»؛ ولكن أنور المعداوي أبدى فتورًا شديدًا واعتذر بحسم، ووعد زكريا بالتفكير في الأمر بعد صدور المجلة. وبعد أيام تقدَّمتُ بأصول قصة قصيرة لتُنشر في «الميزان». وانتظرت على نار موعد صدور المجلة. فلمَّا صدرت أصابني إحباط شديد؛ فقد خلت صفحاتها من قصتي، وكانت بعنوان «الواعظ»، وهي عن واعظ كفيف مهمته إلقاء خطبة الجمعة في مسجد ليمان طره الرهيب، ولم يكن يؤم مسجد الليمان إلَّا المحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة. وبالرغم من ذلك لم يخرج الواعظ الضرير عن خطبة واحدة كان يُكرِّرها كل أسبوع، وكانت عن مناسك الحج إلى بيت الله الحرام، وشروط الزكاة! وزاد من همي أنَّني قرأت بحثًا في «الميزان»، منشورًا على ثماني صفحات للأستاذ بكر الشرقاوي. وبالرغم من كل الجهد الذي بذلته لم أفهم حرفًا واحدًا من البحث المنشور! وشعرت بأنَّني لست أديبًا ولن أكون! لأنَّ كلامي مفهوم يفهمه أي طفل وأي إنسان — ولو كان حظه يسيرًا من التعليم! وقلت لنفسي: هذا هو الأدب الصحيح، لا يفهمه إلَّا الأديب الذي كتبه، وربما حلقة ضيقة من الكُتَّاب والأدباء. كان البحث حافلًا بتعبيرات من نوع: «الاستبطان الاستغلاقي، والشواشي العليا للبرجوازية الكومبرادورية التي تُحقِّق مصالح طفيلية من أجل ضرب النمو الاستاتيكي والديناميكي على السواء»! وفي المساء كنت أجلس حزينًا مهمومًا على قهوة محمد عبد الله، وحين جاء أنور المعداوي أدرك أنَّني مهموم، وإن كان لم يُدرك السبب، وعندما سألني عمَّا إذا كنت قد قرأت الميزان أجبته بنعم، ونطقتها بأسى شديد. وراح أنور المعداوي يُبدي رأيه في مجلة الميزان. وانزاح همي كله عندما اكتشفت أنَّ أنور المعداوي — وهو أديب لا شك في ذلك — لم يفهم هو الآخر حرفًا واحدًا من بحث بكر الشرقاوي. كما أنَّ المجلة بلا هوية وبلا اتجاه … كما أنَّ كُتَّابها أقل من المستوى، وبعضهم لم ينضج على الإطلاق! وشكوت لأنور المعداوي ما حدث لقصتي واستبعادها من النشر! وطلبها أنور المعداوي، وبعد أن قرأها وضعها في مظروف وكتب بضعة سطور لصاحب مجلة أدبية شهيرة تصدر حتَّى الآن في بيروت! وقلت له: بيروت؟! مستحيل، إنَّهم لم يسمعوا باسمي قط، فكيف سينشرونها؟ وابتسم المعداوي وقال في هدوء: بل سينشرونها … أولًا: لأنَّها قصة جيدة، وثانيًا: لأنَّني

قدَّمتك إليهم! ولا أستطيع الآن أن أصف مدى سعادتي حين اشتريت نسخة من مجلة الآداب لأكتشف أنَّ قصتي — التي رفضت «الميزان» نشرها — منشورة في «الآداب»، وكانت أكثر المجلات الأدبية احترامًا في الوطن العربي. وهذا الموقف الذي اتخذه أنور المعداوي مني، تكرَّر كثيرًا في حياته القصيرة. أدباء مغمورون لم يسمع بهم أحد، وكُتَّاب يزحفون في سراديب عالم الأدب، أخذ أنور المعداوي بيدهم إلى عالم الأضواء، ولم يكن له شروط إلَّا أن يكون الكاتب واعدًا ومبشرًا وموهوبًا بحق. وأمَّا الآخرون فلم يكن يسخر منهم؛ ولكنَّه كان يتجنبهم فقط، وأحيانًا كان يُسدي لهم النصيحة في لين شديد، وفي حب أشد! مرة واحدة فقط، ضبطت أنور المعداوي في موقف حادٍّ نوعًا ما تجاه أحد الأدباء. كان الأديب إياه ثقيلًا ويفرض إنتاجه على الآخرين دون مراعاة لظروف وأحوال الجالسين! ذات مرة جاء وجلس معنا في القهوة، ثمَّ راح يُحدِّثنا عن قصيدته الجديدة العصماء، وكيف ستُحدث هزة في عالم الشعر والأدب، ثم استأذن الحاضرين في أن يُسمعهم القصيدة، وردَّ أنور المعداوي بهدوء: «بلاش دلوقت، خصوصًا إن عندي صداع ودماغي مش رايقة»! ولكن اعتذار أنور المعداوي الرقيق لم يُقنع الأستاذ الشاعر، وفجأة سحب قصيدته من جيبه، وراح يخطب على طريقة خطباء الأسواق، وعندئذٍ هبَّ أنور المعداوي واقفًا كمن لدغته عقرب، وقال وهو يسرع الخطى: «عن إذنكم أنا ورايا ميعاد»!

وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيت فيها أنور حادًّا على نحوٍ ما!

الناقد ... القط!

كان الدكتور عبد القادر القط أحد مؤسسي ندوة «قهوة عبد الله» ... وكان لقبه العلمي — بالإضافة إلى منصبه كأستاذ بجامعة القاهرة — يُضفي عليه سحرًا خاصًّا. وكان — بالإضافة إلى وسامته، وعنايته بهندامه — أطيب أعضاء الندوة قلبًا، وأقلهم طموحًا، وأكثرهم تواضعًا ورغبة في مساعدة الآخرين. وكان يقضي بعض الوقت في مناقشة الأدباء الموجودين، ثمَّ يستغرقه لعب الطاولة بعد ذلك، كما أنَّه — على عكس أنور المعداوي وزكريا الحجاوي — كان من هواة لعبة كرة القدم، وكان حريصًا على مشاهدة مبارياتها! ولو أنَّ عبد القادر القط كان حريصًا على دخول سوق الأدب لكان له شأن آخر، فقد كان في وقت من الأوقات أحد ثلاثة نقاد مسموعي الكلمة في مصر بعد الدكتور مندور والدكتور لويس عوض، ولكن بعض النقاد الموسميين مثل الناقد «...» الذي استطاع أن يحتل مساحة في تاريخ النقد العربي أكبر من حجمه، وهو لم يصل إلى هذه المكانة بموهبته الأدبية، ولكن بقوة حنجرته؛ ففي العصر الاشتراكي، كان هو «بابا» الاشتراكية، وهو مفتي الواقعية الاشتراكية، واحتلَّ مناصب قيادية عُليا في الدولة، فلما سقطت دولة الاشتراكية، آثر الرحيل إلى الخارج، ونحَّى النقد جانبًا، وأصبح الآن واحدًا من «المبسوطين» في مصر!

ولكن عبد القادر القط، الصادق مع نفسه ومع الناس، آثر أن يختفي في زمن الجعجعة؛ بينما تصدر المرحلة عشرات من النصابين! وظلَّ وفيًّا لندوة «قهوة عبد الله» ولمنصبه كأستاذ في الجامعة، وظلَّ خفيض الصوت، يتكلَّم نادرًا، وحتَّى في هذه المرات النادرة، كان يتكلَّم على استحياء! ولم تكن له نزوات خاصة أو شطحات من أي لون.

كان بيته في الدقي ومجلسه في قهوة عبد الله هما كل دنياه. وكان بسيطًا وزاهدًا على نحوٍ ما. وحتَّى في أيام «نعمة» الإذاعة والتليفزيون ومسرح الدكتور حاتم بقِيَ في الظل مع كُتبه ومحاضراته. وحتَّى عندما فتحت دار النشر أبوابها لاستقبال إنتاج جمال الدين

الرمادي، لم يُسارع الدكتور القط كغيره إلى هذه الأماكن، مع أنَّه لو فعل لقدَّم للناس إنتاجًا عظيمًا وباهرًا ومُشرِّفًا له ولمصر! وكان يُكن احترامًا عظيمًا لأنور المعداوي، ولكن نظرته إليه كانت تحمل شيئًا من الرثاء، باعتبار أنَّ المعداوي كان رجلًا شديد المثالية في عصر لا مثالية فيه! عصر أصبح فيه أحمد عبد العاطي صحفيًّا يُشار إليه بالبنان، وإسماعيل عبد الجبار مُؤلِّفًا يتردَّد اسمه عبر الإذاعات! ولم تكن نظرته لِما يجري حوله تحمل شعور المرارة الذي كان يحمله أنور المعداوي، كما أنَّه لم يُناصب المجتمع العداءَ كما فعل غيره؛ ولكنَّه أخذ الأمور بهدوء، وعلى أنَّ ما كان سيكون! وعلى الرغم من ذلك كان يحتفل بأيَّة موهبة جديدة، وبأيَّة حركة تُبشِّر بخير، وهو الذي قدَّم كتابي الأول «السماء السوداء»، وحرَّض طلبته في كلية الآداب على قراءته باعتباره نموذجًا من الإنتاج الأدبي الجديد. وهو الذي احتفل بإنتاج صلاح عبد الصبور المُبكِّر، وبقصص يوسف إدريس التي نُشرت في السنوات المُبكِّرة في الخمسينيات. وكان يُحب زكريا الحجاوي حُبًّا شديدًا، ويعتبره عبقريًّا حقًّا، ولكن سوء حظ مصر أنَّ هذا العبقري أهدر إنتاجه في «الكلام»، فجاءت أعماله الخالدة مجرد طلقات طائشة في الهواء! وكان يحمل للشيخ عبد الحميد قطامش هوى خاصًّا في نفسه، ويعتبره نموذجًا للعبقريات التي أهدرتها ظروف المجتمع السيئة ... فلو أنَّ عبد الحميد قطامش وُجد في بيئة أخرى؛ كفرنسا، لكسبت الإنسانية أديبًا عبقريًّا ليس له نظير. وكان يستمتع بمسرح نعمان عاشور ويعتبره أبًا للمسرح العربي الحديث، وكان الدكتور القط يتمنَّى لو أُتيحت له فرصة للتأليف، فهو أحيانًا كان يقرض الشعر، ولكنَّه كان يختص نفسه وأصدقاءه المُقربين بهذا الشعر! وقد حاول أن يكتب قصصًا ثمَّ أقلع عن ذلك فجأة لسببٍ لا أدريه! وعندما انهدمت قهوة عبد الله في بداية الستينيات، تشاءم الدكتور القط وانتابه هم شديد! وعندما نقل ندوته مع أنور المعداوي كان يزفر أحيانًا بلا مناسبة، ويُردِّد في حزن بالغ: «مش دي قهوة عبد الله!» وعندما هاجر أنور المعداوي إلى قريته في ريف البحيرة، أدرك أنَّ الحياة قد أصابها حادث مؤسف، وراح يتردَّد على المقهى مع محمود شعبان فترة ثمَّ غاب هو الآخر، ثمَّ اختفى تمامًا بعد موت أنور المعداوي، وكأنَّه مُتعمِّد هذا الاختفاء، تضامنًا مع المعداوي الذي اختفى بالموت، فاختفى هو الآخر بالحياة! ولكنَّه عاد يلمع من جديد في جامعة بيروت العربية، وترك هناك تلاميذ أوفياء، وحلقات أدبية شربت حتَّى ارتوت من أدبه ومن علمه. ثمَّ لمع في عهد السادات كعميد لكلية آداب عين شمس. ثمَّ عاد من جديد إلى الظل في عصر كان أهم نُقَّاده هو حسن عبده، وأعظم مواهبه الجديدة عبد السلام الأطفيحي!

والدكتور القط هو أكثر الناس شبهًا بالكاتب الكبير يحيى حقي، كأنَّما هو حريص على الابتعاد عن دائرة الضوء. وهو مع مندور ولويس عوض يشبه عبد الرحمن شكري مع المازني والعقَّاد. عاش في هدوء وذهب في هدوء، مع أنَّه كان أغزرهم علمًا وأنعمهم موهبة. وميزة عبد القادر القط أنَّه لم يلتحق بركاب أحد، ولم يمشِ في تيار، ولم يصفق لإنتاج دون إنتاج، كان مع الإنتاج الجيد من كل الألوان. وكان مع الأدباء الموهوبين من كل اتجاه. لم ينصِّب نفسه «بابا» للأدب، ولم يُوزِّع صكوك الغفران على الأدباء، وكان يحتفل بكل موهبة، ولو كانت ضئيلة. وكان يرى أنَّ الموهبة هي مصدر كل السلطات ... ذات مرة كنت أجلس معه في المقهى، وكان المعداوي يقرأ لي قصة قصيرة، وعندما انتهى منها قال لي وهو يضحك ضحكته الشهيرة: «عيبك الوحيد يا محمود إنك مش مدرك قيمة ما تكتبه»! وردَّ عليه القط في هدوء: «بالعكس، لعلها ميزة محمود، لو أدرك قيمة ما يكتبه لفسد»!

وعندما قرأت عليه فصول أول مسرحية كتبتها «فيضان النبع» صمت قليلًا ثمَّ قال: «حوارك ممتاز؛ ولكن لا بد لك من دراسة قواعد المسرح»! وبعد أيام جاءني بكتاب للأستاذ دريني خشبة ونصحني بدراسته. وللأسف لم أستطع أن أستفيد من هذا الكتاب في معالجة «فيضان النبع»؛ ولكن تأثيره كان عظيمًا عندما شرعت في تأليف مسرحية «عزبة بنايوتي»! وحضر الدكتور القط المسرحية — التي أخرجها الخميسي — عدة مرات، وكتب عنها نقدًا، وفسَّرها بشكل لم يخطر على بالي قط، فقد قال: إنَّ العزبة هي مصر، وبنايوتي هو الأجنبي المُحتل. وكان التفسير هو التفسير الوحيد للمسرحية، والصحيح أيضًا، وعندما صارحته بأنَّ هذا الأمر لم يخطر لي على بالٍ قط، قال بهدوء وبالحرف الواحد: «أنت مالكش دعوة أنت تكتب وبس»! وكان هو الذي نصحني مرات بألَّا أدع العمل الصحفي يطغى على إنتاجي الأدبي. وعندما قرأ روايتي «عندما يعود القمر» نصحني بأن أكتب رواية أخرى، وبالفعل شرعت في كتابة رواية أخرى، ولكن لم أستمر، فقد استغرقني العمل الصحفي، ثمَّ العمل السياسي بعد ذلك، وكان هذا هو أكبر أخطائي في الحياة!

وهو بالرغم من صحته وزهده وعزلته، كان شديد المتابعة لِما يجري في الحياة. كان يسمع الإذاعة ويحضر عروض المسرح ويتردَّد على السينما، ويزور الاحتفالات الشعبية، ويقرأ الصحف اليومية، ويُتابع الإنتاج الأدبي الجديد! وعندما أذاع عبد الرحمن الخميسي «حسن ونعيمة» في حلقات، كان شغوفًا بها وحريصًا على متابعتها بانتظام، وكان يعدها عملًا أدبيًّا رائعًا، بينما كان يعدها بعض النُّقَّاد الموسميين عملًا من أعمال الاسترزاق! وكان حريصًا في شهر رمضان على الاستماع إلى مسلسلة «من قصص القرآن» ويعدها

عملًا أدبيًّا دينيًّا عظيمًا، بينما كان بعض النُّقَّاد «الأرزقية»، يتعمَّدون الحط من شأنها، ويعدونها لونًا من ألوان الشعوذة والاحتيال! وعندما كان عضوًا في لجان القراءة بالمسرح، لم يرفض عملًا مسرحيًّا لأديب على الإطلاق. وكان يرى أنَّ كل جهد ينبغي أن يُقدَّر، ولكنَّه غالبًا ما كان يُشير بإجراء تعديلات على العمل المسرحي إذا كان يحتاج إلى هذه التعديلات. ولم تستطع الرقابة أن تستخدمه يومًا في قطع الطريق على مسرحية مشاغبة؛ مع أنَّها استطاعت استعمال غيره من أصحاب الأصوات التي احترفت العواء!

وكانت علاقته حسنة للغاية بالطلبة في الكلية، وعضوًا في أكثر من أُسرة طلابية. وكان يعقد الندوات لبعضهم في منزله. ويرى أنَّ العمل في الجامعة يجري على نسق العمل في المدارس الثانوية، وهو الخطأ الأكبر الذي وقعت فيه الجامعات المصرية حتَّى الآن!

وبالرغم من عدم انتمائه إلى مذهب معين، أو حزب من الأحزاب، إلَّا أنَّه كان مُحترمًا من الجميع، مُهابًا بين الكل، سُمعته في الوسط الأدبي كله «أبيض من اللبن الحليب». فهو لم يسترزق أبدًا، ولم يُنصِّب نفسه داعية لمذهب ما أو شخص ما، ولم يكن في ركاب أحد، ولم يُحاول أن يجمع ثروة. ولم يمد يده طالبًا منصبًا، وظلَّ حريصًا على بقائه في الجامعة كمجرد أستاذ. وهو في المقابل احتفظ برأيه لنفسه ولم يدخل معارك عنيفة، ولم يُعرِّض نفسه للانتقام الشديد، ولم يتعقَّب «الأرزقية»، ولم يقف في طريقهم. ولذلك أسقطوه من حسابهم، وهم يخوضون معركة الحياة والموت من أجل الاسترزاق!

وظلَّ على الدوام راهبًا في دير مصر، وقد كان دائمًا مع وطنه؛ لأنَّه كان مع العدل ومع الكرامة ومع الاستقامة ومع الشرف، ولأنَّه لم يتنازل ولم يُزايد، ولم يستخدم حنجرته مطية لبلوغ الأهداف، ولذلك كان مع مصر، ولكن كان على غير المعنى الذي يُردِّده «الأرزقية»، عندما يشرعون في إغلاق باب الاجتهاد أمام المصريين! فقد كان يدعو كل الناس إلى الاجتهاد من أجل مصلحة مصر ومستقبل مصر، ولو كانت الأحوال حسنة والظروف مواتية لكان عبد القادر القط هو قاضي قضاة مصر في محكمة الأدب، وهو أصلح من يشغل منصب سكرتير عام المجلس الأعلى للفنون والآداب. ولكن بعض الظروف التي مرَّت على مصر كانت تجعل من الحياة الأدبية قطة تأكل بنيها، وخيرَهم على الأخص!

وقد نجحَتْ هذه الظروف في أن تأكل الدكتور عبد القادر القط، فانزوى أخيرًا، لا أدري أين؛ ولكن بقاءه على قيد الحياة يجعله شاهدًا على عصره، وأتمنَّى لو يتفرغ الآن لكتابة ذكرياته عن تلك الفترة المضطربة والقلقة من تاريخ مصر!

كما أنَّه قطعة حية من ندوة «قهوة عبد الله»، فهو أحد المؤسسين، وهو أيضًا أحد الأئمة الذين أشرفوا على الحياة الأدبية في مصر، وغمروها بالنور في الأربعينيات والخمسينيات وجزء من الستينيات في هذا القرن.

وإذا كان أنور المعداوي في الحياة الأدبية هو ضمير مصر، وزكريا الحجاوي كان تراب مصر، فالدكتور عبد القادر القط كان قبسًا من روح مصر الناعمة والشفافة والحانية والمُضيئة.

وإذا كان الدكتور القط قد سقط من قائمة المشاهير، فهي عادة مصرية، إذ سقط من نفس الكشف عبقريات عظيمة ومواهب فذة؛ أبرزها إبراهيم المازني، وزكي مُبارك، والشاعر إسماعيل صبري، والشاعر أحمد فتحي؛ بينما لمع في عصرهم من كانوا مثل الطين إذا سقطت عليه الشمس.

أمَّا جيلي، فقد عاش مع القط وتتلمذ عليه، وتعلم على يديه، وتشرف به! وستبقى صورة الدكتور القط تلمع دائمًا في عيون مصر!

الرجل الشجرة ... زكريا!

لا يبعث الأسى في نفسي مثل صفير باخرة تُغادر الميناء في الليل، ولا تمتلئ نفسي بالشجن كامتلائها لصوت قطار ينهب القرى والمدن والليل قبل لحظات من طلوع الفجر وفي الوقت الذي أتأهَّب فيه للنوم! ومنظر البحر يُذكِّرني ببلاد بعيدة وأيام سعيدة قضيتها هناك! وأشجار الجميز بالذات تُذكِّرني بأيام طفولتي البريئة الهنيئة، وسنوات من العمر قضيتها تحت أغصانها على شاطئ الرَّيَّاح! والنوافذ المغلقة تُذكِّرني بالسجن وبالأيام الميتة خلف جدرانه! والرصيف يُذكِّرني بأيام الصياعة التي بدَّدناها في مناقشات بيزنطية وديالوجات سخيفة، ولكنَّها بالرغم من ذلك كانت أيامًا مجيدة؛ لأنَّنا تصورنا خلالها أنَّنا ملكنا كنوز المعرفة، وأنَّنا توصَّلنا إلى معرفة سر الكون؛ فلما اكتشفنا الحقيقة بعد ذلك أدركنا في الوقت نفسه أنَّ العمر قد ولَّى، وأنَّ الوقت قد فات! والحقيقة التي اكتشفناها بعد فوات الأوان هي أنَّنا لا نعرف شيئًا، وأنَّ ما نعرفه هو أقل مِمَّا يجب وأتفه مِمَّا ينبغي، وأنَّ الكتب كثيرة والعمر قصير! وأنَّ المعرفة طريق ليس له نهاية. بينما الإنسان يولد ليموت، وأنَّه يقرأ لينسى، ويتعلَّم ليكتشف في النهاية أنَّه أصبح أجهل مِمَّا كان! وبعض أصدقائي الذين ماتوا نسيتهم تمامًا، والبعض الآخر أذكره أحيانًا، وقلة قليلة منهم لم يغيبوا لحظة واحدة عن ذاكرتي، ولا يمر يوم واحد من عمري دون أن أذكرهم عدة مرات؛ مِن هؤلاء كامل الشناوي الذي تعرَّفت عليه في بداية الخمسينيات، والذي تعرَّفت عنده على عدد من مشاهير الجيل وكانوا يخطون أولى خطواتهم في الحياة! منهم أيضًا عبد الحليم حافظ الذي تعرَّفت عليه في قهوة بلدي في عابدين، وأحسست بشيءٍ ما يشدني إليه، ربما لأنَّه كان مثل حالي مرهقًا ومكسور الخاطر ووحيدًا في الحياة! ومنهم سعيد أبو بكر المُضحك العظيم الذي عاش حياة قصيرة وعاصفة، وساءت أحواله في نهاية العمر، ومات ممرورًا من الناس ومن الحياة! ومنهم زكريا الحجاوي الذي كان جزءًا من الحياة ذاتها، كأنَّه نتوءٌ خرج منها،

أو طريق متعرج في شعابها، أو ظاهرة من ظواهرها؛ كالمطر والرعد والزلزال! ولعل موت زكريا الحجاوي هو الحادث الوحيد الذي هزَّ أعماقي، مثل جذع شجرة طيب كشجرة جميز حلو المذاق، كثمار المانجو. وكان أمير الصياع بلا جدال، كان يعشق مصر، ولعل ذلك هو السبب الذي جعله يطوف في أرجائها على قدميه. وكانت مصر عنده هي القرية. والشعب عنده هم الفلاحون، والحياة البسيطة الرتيبة هي الحياة المُثلى. وكان يُردِّد دائمًا، خصوصًا في أوقات المحن والأزمات: لا أريد من الحياة أكثر من قيراط واحد من الأرض، وشجرة وحصيرة أفرشها تحت أغصانها وأتمدَّد عليها، وبجانبي قُلة فخار لتبريد الماء! هذه كانت كل أحلامه، ومدى مطامعه في الحياة. ولم تكن هذه الأحلام تُكلِّف أكثر من خمسمائة دينار كويتي لتُصبح من حقائق الحياة! ومع ذلك مات الفنان الكاتب الأديب زكريا الحجاوي دون أن يُحقِّق حلمه. وغادر الحياة دون أن تتهيأ له فرصة ليرتاح لحظة! وظلَّ يسعى من أجل أكل العيش، حتَّى بعد أن اعتلَّ قلبه واختلَّ نبضه! الغريب أنَّ هناك أُدباء وكُتَّابًا أقل فنًّا من زكريا الحجاوي، وأقل موهبة، وأقل عطاءً يملكون قصورًا على شاطئ القناة، وبعضهم يملك قصورًا على شاطئ النيل، والبعض يملك ضياعًا في ريف مصر! ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي صدمني بشدة في موت زكريا الحجاوي. فهو قطع رحلة حياته بين الميلاد والموت بالخطوة السريعة! كأنَّه عسكري جيش أتى أفعالًا من شأنها الإهمال وعدم الانضباط ومخالفة الأوامر العسكرية! وهو عاش كأنَّه مشدود إلى جذع شجرة والسياطُ تلهب ظهره، عقوبة مسجون خالف اللوائح، وخرج عن تعليمات البيك المأمور! ومع ذلك ما أصفى ضحكته حين كان يضحك، وما أعمق فرحته حين كان يفرح، وما أهدأ نفسه حتَّى في لحظات الخيبة والإحساس بالضَّياع! ولا زلت — برغم السنين الطويلة — أذكر أول لحظة رأيت فيها زكريا الحجاوي. شدَّني صديق من يدي إلى بيته في حارة مظلمة من حواري الجيزة. كان عندي من العمر عشرون عامًا ومعي من الفن قصة قصيرة. واكتشفت أنَّ بيت زكريا كان عاريًا تمامًا من الأثاث، كأنَّه زنزانة يقضي فيها فترة عقوبة. ولكنَّه استقبلني ببشاشة وقرأ قصتي باهتمام. وطلب مني أن أقرأ كثيرًا وأن أقرأ خصوصًا في التراث، وذكر أمامي عدة كتب كنت لحظتها أسمع اسمها لأول مرة، ودلَّني على الجبرتي وابن إياس، وقال وهو يدخن بشراهة سجاير رخيصة: اقرأ ألف ليلة وليلة؛ إنَّها أم الفن القصصي ليس بالنسبة للعرب فقط؛ ولكن بالنسبة للعالم. وقضيت عدة ساعات مع زكريا الحجاوي في منزله، وشعرت بحجم المحنة التي يعيشها! فقد كان البيت شديد الضيق والعائلة كثيرة الأفراد. وحكى لي في بساطة قصة حياته وكأنَّنا

أصدقاء منذ ألف عام. لقد تزوَّج من فتاة أحلامه وعاش معها أحلى أيام العمر، ثمَّ اضطر إلى الانفصال عنها لأنَّ أخاه الأكبر تُوفي فجأة تاركًا زوجة ونصف دستة من الأبناء. واضطر زكريا الحجاوي للزواج من زوجة أخيه لكي يعول أبناءها، هكذا بشهامة وببساطة وبدون تعقيدات!

وعندما غادرت منزل زكريا الحجاوي كانت الشمس قد آذنت بالمغيب، وكان الجو حارًّا لم يزَل، ولم أكن وحدي حين غادرت منزل زكريا، بل كان زكريا معي، وعرجنا في طريقنا على دكان سجاير أخذ زكريا منه حاجته من الصنف الرخيص الذي كان يُدخنه. وهمس في أذن صاحب الدكان بكلمات، وسرعان ما فتح الرجل الطيب الدرج وتناول منه عشرة قروش فضة ودسَّها في يده. ومضى زكريا الحجاوي يقطع الطريق من الدكان إلى ميدان الجيزة في خطوات ثابتة وقوية ومتعالية. واندهشت لشعبيته الواسعة في الجيزة، فقد اضطر إلى التوقف عدة مرات ليُصافح بعض المارة، واعتذر لكثيرين من الجالسين على الأرصفة عن شرب الشاي معهم؛ لأنَّ عليه أن يذهب إلى موعد هام! وبعد رحلة استغرقت وقتًا طويلًا وصل زكريا الحجاوي إلى قهوة محمد عبد الله، وكانت هذه أول مرة أجلس فيها على قهوة عبد الله.

وكانت أول مرة أيضًا أرى فيها أنور المعداوي ورشدي صالح وسيد قطب ونزار قباني. وخُيِّل إليَّ أول الأمر أنَّ نزار قباني ممثل سينما جاء يسرِّي عن نفسه بالجلوس بعض الوقت مع الأدباء والشعراء، وجلست بجوار زكريا الحجاوي بعد أن قدَّمني إلى الجالسين قائلًا: الأستاذ محمود السعدني الكاتب الفنان ...! وشعرت بخجل شديد وغيظ أشد، فقد ظننت أنَّه يسخر مني! فلم أكن أستاذًا، ولم أشعر يومًا ما بأنَّني كاتب أو فنان. وكنت أخجل من عرض إنتاجي على أحد؛ والسبب أنَّني عرضت إنتاجي ذات مرة على بعض أصدقائي ولكنَّهم سخروا مني، وحتَّى الذين احترموا إنتاجي همسوا فيما بينهم بأنَّني سرقت القصص التي قرأتها عليهم من بعض الكتب! ولكنَّني بلعت ما تصوَّرت أنَّه إهانة من زكريا الحجاوي وجلست بين المجموعة صامتًا. فجأة سألني أنور المعداوي: وليك إنتاج يا أستاذ؟ وردَّ زكريا الحجاوي على الفور: معاه قصة جاهزة، أنا باعتبرها بداية جيدة. وتناول أنور المعداوي القصة التي كنت أحشو بها جيبي وطالعها في صمت، في الوقت الذي كانت عيني تتابعه في قلق، فجأة توقَّف عن القراءة وشارك في الحديث، وأحسست أنَّني انتهيت، وتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني. فها هو أنور المعداوي قرأ القصة ولم تعجبه. بدليل أنَّه توقَّف عن القراءة واشترك في الحديث! وهممت أن أُغادر

القهوة وأن أذهب إلى أي مكان بحيث لا يقع بصر أحدهم عليَّ بعد ذلك؛ ولكن شجاعتي خانتني وأحسست ببرودة تسري في أوصالي، وبأنَّ ساقيَّ ترتعشان، ثمَّ شعرت فجأة بأنَّ ريقي جف، وأنَّني في حاجة إلى كوب شاي ساخن، ولم يكن في الجالسين أحد أعتبره صديقًا لأطلب كوبًا من الشاي على حسابه، كما أنَّه لم يكن معي نقود لأطلب كوبًا من الشاي لنفسي، ولا أدري إلى أين ذهبت بفكري عن قهوة عبد الله، ولكني انتبهت فجأة على أنور المعداوي وهو يجري ببصره على سطور القصة، وخفق قلبي من جديد؛ فهؤلاء الناس نوع آخر من البشر، ليس من عينة أصدقائي الذين يُشاركونني لعب الكرة! وظلَّ أنور المعداوي يقرأ حتَّى انتهى منها تمامًا. ثمَّ نظر إليَّ طويلًا وكأنَّه يتفحَّصني وقال مُعلِّقًا على القصة: أنا ألاحظ أنك بتكرر ألفاظ معينة كثيرة. وردَّ زكريا الحجاوي قائلًا: وأنا لاحظت نفس الملاحظة، وأعتقد أنَّ السبب في كده أنَّ حصيلته اللغوية مش تمام، عشان كده نصحته يقرأ كثير، وخصوصًا في كتب التراث. وردَّ أنور المعداوي: مش مشكلة، المهم إن الكاتب يعبر بالألفاظ اللي عنده، اللغة وسيلة مش غاية يا زكريا! ودخل الاثنان نقاشًا حول الموضوع، واشترك الحاضرون في المناقشة، وبينما كان النقاش محتدمًا كنت أنا في وادٍ آخر، فهذا النقاش كله كان حول قصة من تأليفي. أنا أصبحت إذن مادة لمناقشات صالونات الأدب في القاهرة وشعرت بأنَّني أنتفخ، وبأنَّني أزداد وزنًا، وخُيِّل إليَّ أنَّني سأطير في الهواء، وجلست وسط الحاضرين كأنَّني الجاحظ في مجلس من مجالس الأدب بالبصرة! ولكني سرعان ما تضاءلت، وانكمشت في مكاني كأنَّني بالونة ثقبها أحد العابثين بإبرة خياطة. فقد وصل إلى مجلس الحُكماء رجل مُعمَّم أنيق بدرجة لافتة للنظر يرتدي زي كبار المشايخ في الأزهر. وعليه سمات الجد والعظمة. صافح الحاضرين، وانحنى باحترام وهو يُسلِّم على أنور المعداوي، وأبدى نفس الاحترام لسيد قطب، وصافح رُشدي صالح في أدب، وسبَّ زكريا الحجاوي وهو يمد له أطراف أصابعه. وضحك زكريا وهو يُصافح «مولانا الشيخ» ونظر الرجل المُعمَّم نحوي بازدراء شديد أهاج جميع مواجعي، ومدَّ لي طراطيف أصابعه، وانتهز فرصة وقوفي لمصافحته فجلس على مقعدي! ووقفت حائرًا كفلاح نزل مطار لندن لأول مرة؟ وانتبه أنور المعداوي للمأزق الذي أنا فيه فقال للشيخ المُعمَّم: أنت يا عبد الحميد خدت كرسي الأستاذ! وردَّ عبد الحميد ساخرًا: الله، هوه دا أستاذ؟ طيب لا مؤاخذة يا أستاذ! وهممت بأن أضرب المُعمَّم قلمًا على قفاه وأُطلق ساقيَّ للريح، ولكني تجمدت ولم أدرِ كيف أتصرَّف! المهم أنَّه بانتهاء السهرة في منتصف الليل كنت قد خرجت بصديقين من قهوة عبد الله: زكريا الحجاوي الطيب، أمَّا الصديق الآخر فهو نفس الرجل

المُعمَّم الذي عاملني بجفاء وسخر مني بفظاظة، والمهم أنَّنا صرنا صديقين إلى آخر العمر، مولانا الشيخ عبد الحميد قطامش، المحامي الشرعي، وأحد ظرفاء مصر الكبار، المغرور المَظهر، المسحوق في الواقع، أكثر المشاهير في عصرنا طيبةً وقلقًا وهمًّا وعقدًا، وأعظم دليل على أنَّ المصري يستطيع أن يصنع — برغم كل الظروف — أعظم المعجزات، ويا لها من ليلة التقيت فيها بعدد من مشاهير عصرنا، وكنت لم أزَل شابًّا في العشرين قليل العلم، ولكن كثير التجربة، شديد اليقظة، عظيم الطموح؛ ولكن طموح الفقراء — كما يقول عبد الحميد قطامش — كالفقاعات، عندما يصطدم بالواقع الأليم سُرعان ما ينفجر ولا يخلِّف وراءه إلا قروحًا وجروحًا.

وإذا كان أنور المعداوي هو أعظم أبناء قهوة محمد عبد الله، فزكريا الحجاوي هو أخلص أبنائها وأعظمهم فنًّا وأشدهم تأثيرًا في الجيل الذي جاء من بعده. وعندما جذبت الصحافة زكريا ظلَّ مواظبًا على زيارة القهوة ولو لرَشْفِ فنجان القهوة على عجل، وأحيانًا كان يتلكَّأ قليلًا ليُنهي نقاشًا حادًّا بينه وبين الأصدقاء. ولكن لحُسن الحظ لم يُعمر زكريا طويلًا في بلاط صاحبة الجلالة، سرعان ما عاد إلى القهوة من جديد، وقد امتلأت نفسه مرارة من غدر الزمان وخيانة الأصدقاء! ولكن زكريا الحجاوي الذي كان يتفجَّر حيوية ويفيض نشاطًا لم يستسلم. بدأ رحلة حياة جديدة وألقى بنفسه في نهر الفن الشعبي وسبح فيه بمهارة، وربما فاضت نفسه بِشرًا عندما اكتشف أنَّه وجد نفسه، وأنَّه عثر على الطريق الصحيح! وراح زكريا الحجاوي يجوب ريف مصر، يقضي لياليه في أفقر الكفور وأصغر النجوع، خادعًا نفسه بالوقوع في قصص غرامية مع مطربات شعبيات لم يكن لهن صلة بجنس النساء إلَّا عن طريق الملابس والأسماء. وكان هذا هو رأي الأصدقاء؛ ولكن رأي زكريا كان يختلف. وعندما كانت الفرصة تسنح له بالحديث عن هؤلاء النسوة، كان يتحدَّث عنهن باحترام، وبنعومة وكأنَّه يتحدَّث عن غادة الكاميليا أو ماجدولين أو جولييت، أو بُثينة التي خلبت لُب الشاعر جميل! وما دامت المسائل كلها نسبية، فإنَّ زكريا كان صادقًا في إحساسه تجاه هؤلاء الماجدولينات، فهو في النهاية أصدق كاتب ريفي أنجبته مصر، وهو كان يعشق الأرض المصرية، وكان بينه وبين الطُّرق الزراعية علاقة غرام، وكان يهيم بأشجار النخيل، ويقف مبهورًا أمام الخُضرة الممتدة بلا نهاية في الحقول. وكان يحمل عشقًا خاصًّا لأشجار الجميز، وينشرح قلبه كلما نفذت إلى خياشيمه رائحة روث البهائم. وكثيرًا ما كان يصرخ من شدة الوجد كلما رأى فلاحة سَمهريةَ العود تتلوَّى كالأفعى وهي تخطر في الملابس

السُّود! وحقَّق زكريا الحجاوي إنجازات ما كان يُمكن تحقيقها لو أنَّه استمر في عمله الصحفي. التقط ألحانًا ريفية كانت مجهولة، وصنع نجومًا في المجتمع المصري كانوا مجرد صعاليك يتسولون بالغناء. واستطاع زكريا الحجاوي أن يفرض على مصر عددًا من هؤلاء، أدهشوا مصر بفنونهم الأصيلة، وبعضهم أدهش العالم كله بعد ذلك؛ كالريس مِتقال. ولمع داخل حدود الوطن العربي محمد طه، وخضرة محمد خضر، وفاطمة سرحان، ومحمد أبو دراع، وجمالات شيحا، وأصبح زكريا الحجاوي هو شيخ الطريق والطريقة، وكان سرادقه في سيدنا الحسين خلال شهر رمضان هو التعبير الأكثر صدقًا عن التغيير الذي حدث في مصر خلال فترة الستينيات! وانتعش زكريا الحجاوي، ولكن ليس بالقدر الذي كان يجب أن يتوفَّر لفنان على هذا المستوى العظيم. أحيانًا كان يشعر بالضياع فيعود عندئذ إلى شلة الأصدقاء، وكالصوفي التائه كان يتمنى لو جاء المُخلِّص ليُعتقه من الحياة ويُخلِّصه من العذاب! ولكن هذه الحالة كانت مجرد لحظات عابرة في حياة زكريا سُرعان ما كان يتخلَّص منها ويعود إلى الدوامة من جديد، ويختفي في الريف، ولكنَّه حتَّى خلال غيبته الصغرى في ريف مصر، كان يحتفل بكل موهبة يصادفها في طريقه، ويدفع بكل ناشئ خطوات على الطريق، ويحمي كل عود أخضر من النوايا الشريرة والظروف الحمقاء!

ولو أُتيحت الفرصة لزكريا الحجاوي لترك لنا ميراثًا أدبيًّا عظيمًا، ولكن هذه الفرصة لسوء الحظ، لم تُتَح له قط. كانت أعباء عائلته الكبيرة وموارده القليلة تقف حائلًا بينه وبين التفرغ للإبداع. وعندما أيقن أنَّ الفرصة قد فاتت، اكتفى بالحديث عن الكُتب التي سيؤلفها في المستقبل. ولكن حديثه اقتصر في النهاية على كتاب واحد أطلق عليه اسم «كوتشينة». وأعتقد أنَّه كان يتمنى لو تُتاح له الفرصة والوقت والإمكانيات لتأليف هذا الكتاب! وكتاب «كوتشينة» الذي كان يحلم به زكريا الحجاوي هو فصول عن شخصيات صادفها في حياته، وقد حصر الشخصيات التي كان ينوي الكتابة عنها وحدَّد أسماء الفصول أيضًا. فالذئب، عن شاعر مُعاصر شهير وعظيم، ولكن بقدر عظمة شعره كان انحطاط الشاعر نفسه، وبقدر لمعان أدبه كان سواد قلبه وخُبث نواياه. وقد عانى زكريا الحجاوي من لؤم هذا الشاعر، كما عانى آخرون من جيل زكريا لدرجة أنَّ ألم كاتب ساخر ربما في قرننا هذا ضاع في الحياة بسبب مكائد هذا الشاعر وغدره. والعقرب، عن شاعر وكاتب شهير، شغل الناس والحياة خلال عمره، وبالرغم من طيبته كان مصدر ضرر للكثيرين. وكان لسانه كذنب العقرب يلطش الناس لَطْشَ عشواء، وكان يذبح أي صديق عزيز له إذا حبكت النكتة، وكثيرًا ما كان يندم على ما فعله، ولكن بعد فوات الأوان، فهو كالعقرب لا

يعض ولكن لسانه يلدغ؛ لأنَّه هكذا وظيفته التي خُلِق لها في الحياة! والشرطي، عن أديب كان يعمل فعلًا بالشرطة، ثمَّ احترف الأدب واشتغل بالوظائف المدنية، ورفعته الظروف إلى منصب كبير كان زكريا يعمل مرءوسًا في إدارته، ولكن زكريا الفنان الذي كان يخاف الشرطة وأقسام البوليس، ظلَّ يخاف من هذا المدير كأنَّه طفل عابث يشعر بالخوف تجاه أبيه. أو كأنَّه مُواطن غير صالح يشعر بعدم الطمأنينة إذا صادف شرطيًّا في الطريق! وفي الكتاب فصول أخرى عن الطيب، والمجنون، والضائع، والموهوم، والهايف، والمزعوم! ولعلنا خسرنا عملًا إبداعيًّا عظيمًا؛ لأنَّ زكريا لم ينتهِ من تأليف هذا الكتاب، وكان كلما حثَّه أحد على الشروع في تأليف الكتاب، زعم أنَّه بدأ في التأليف بالفعل، وكان يتعلَّل بأعذار كثيرة، ولكن أهمها هو وقوف القلم في يده عند شروعه في كتابة الفصل الأخير عن الجوكر، والجوكر هو كارت الكوتشينة الذي تضعه في أي موضع فينسجم، وتستخدمه على أي نحو فتحصد من ورائه المطلوب. وكان زكريا يقصد أديبًا وشاعرًا، نصف فنان، ونصف نصاب، نصف عبقري، ونصف مجنون، وقد مارس كل شيء: القصة، والرواية، والشعر، وكتابة المقالات، والتمثيل، والإخراج، وتستطيع أن تذكره إذا كان الحديث في أي فرع من هذه الفروع، ولكنَّك أيضًا تستطيع أن تُسقطه فلا يحدُث خلل على الإطلاق!

وكان كتاب زكريا الحجاوي الثاني المُفضَّل، والذي لم يكتب حرفًا واحدًا فيه هو «البكور»، وهو عن حياته الأولى في المطرية، وتأثير بحيرة المنزلة على نفسه، وحياته مع الصيادين، وأيامه البعيدة المجيدة التي عاشها هناك. وكان يحكي عن شخصيات عظيمة صادفها في صباه. كان يذكر منهم واحدًا اسمه «عبد العزيز السودة»، وشيخًا من المُعمَّمين هو الشيخ «السنطوري»، وهو رجل نال قسطًا من التعليم في الأزهر، ولكنَّه اشتغل بفن التواشيح، وبالرغم من أنَّه لم يشتهر إلَّا أنَّه كان عالمًا بالمقامات والألحان! ولعل الوفاء كان أهم صفات زكريا الحجاوي بعد الفن. فهو لم يتخلَّ عن أصدقائه القُدامى، ولم ينسَ مراتع صباه، ولم يعشق مكانًا في العالم قدر عشقه للمطرية مسقط رأسه، وللجيزة حيث عاش بقية الحياة، ولو صادف زكريا الحجاوي ظروفًا حسنة، ولو وجد من يستخرج من داخله أصدق خصاله وأنبل مشاعره، فلربما كسبنا زعيمًا شعبيًّا مثل عبد الله النديم، ولكن لأنَّ الظروف كانت معاكسة، ونبض الحياة في مصر كان مختلًّا، فقد جاء زكريا الحجاوي نسخة من النديم ولكن بالمقلوب. وإذا كان الشعب عند النديم وسيلة والهدف هو الثورة، فإنَّ زكريا كانت لديه نفس الوسيلة، ولكن بلا هدف على الإطلاق! بالرغم من أنَّ مصر لم تُنجب في زمانه أديبًا يستطيع أن يُخاطب الفلاحين مثله، ولا خطيبًا يستطيع

أن يُؤثِّر في العامة من طرازه! إلَّا أنَّ الأثر الوحيد الذي تركه زكريا في جماهيره من البسطاء لم يكن أكثر من أثر العِشرة الطيبة والذكر الحسن ... وكما بدأ زكريا غريبًا في المطرية عاد غريبًا في القاهرة في نهاية المطاف! وعندما جاء أنور السادات رئيسًا لجمهورية مصر، ظنَّ زكريا الحجاوي أنَّ الحياة قد طابت له أخيرًا. فهو صديق قديم للرئيس الراحل السادات، وله عليه أيادٍ بيضاء؛ فقد اشترك في إخفائه عن أعين الشرطة في الأربعينيات، وهو أحد المصادر التي استمد منها الرئيس الراحل ثقافته. وتعبيرات السادات الشهيرة: العيب، وأخلاق القرية، والأصول والقيم، وديوان المظالم، والتصحيح. كلها من وضع زكريا الحجاوي! ولكن زكريا الحجاوي فوجئ بمنع إذاعة أعماله الفنية من الإذاعة بقسوة، ثمَّ فوجئ بفصله من وظيفته بخشونة! ولأنَّ المصائب لا تجيء فُرادى، فقد انهار المنزل الذي يسكن فيه، ولم يستطع — رغم كل الجهود التي بذلها — العثور على مسكن آخر. وربما أدرك زكريا الحجاوي عندئذ أنَّ زمانه قد ولَّى وأنَّ نهايته قد حانت، واضطر مرغمًا إلى مغادرة مصر ليجد في الدوحة على شاطئ الخليج ملجأً أمينًا. وربما ضاعف من سروره وجود الطيب صالح هناك وفي منصب يُشرف فيه على العمل الذي يؤديه الحجاوي. ولكن قلب زكريا الحجاوي لم يحتمل الابتعاد عن مصر، ورئتيه لم تتعودا هواءً غير هواء النيل، فانفجر قلبه فجأة تحت ضغط نفسي هائل. وعاش مريضًا عدة أشهر على شاطئ الخليج، ولكنَّه لم يتوقَّف عن كتابة الرسائل لأصدقائه. وفي آخر رسالة كتبها للعبد لله يقول: لم تتغيَّر مصر يا محمود، ولكن الذي تغير هم ناسها، أو بمعنى أصح، الذين تغيروا هم بعض الناس الذين يطفون على السطح، والذين يتمتَّعون بألف وجه، وهم يُقدِّمون وجهًا لعبد الناصر، ووجهًا آخر للسادات، ولو ضربة حظ أصابتك يومًا وأصبحت مهمًّا في مصر فإنَّ هؤلاء الناس أنفسهم سيرتدون وجهًا ثالثًا لك، وسيكتشفون عندئذ كم ساهم «بُرعي السعدني»، جدك في حضارة مصر الحديثة، ولأنَّني صديقك سيكتشفون أيضًا كم ساهمَت «بَهَانة الحجاوي» — يرحمها الله — مع برعي السعدني جدك في صد الغزو الصليبي عن مصر!

وبعدها بأيام أغمض عينيه وأسلم الروح ... بعيدًا جدًّا عن أرض مصر!

وهكذا مات، أخلص أبناء قهوة محمد عبد الله، وأعظمهم فنًّا، وأكثرهم تأثيرًا في الأجيال التي جاءت من بعده، فنان الشعب ... زكريا الحجاوي.

الساخر العظيم

عبد الحميد قطامش واحد من أعلام قهوة محمد عبد الله ... وهو بالقطع وحيد زمانه وفريد أوانه، ولم أُصادف في حياتي شخصية أخرى من نفس الطراز. وهو واحد من فحول الأدباء، وإن كان لم يكتب أدبًا، ولكن موهبته الحقيقية كانت في الكلام.

كان مُحدِّثًا ربما لم يُخلق مثله، وهو يمزج الفصحى بالعامية في مهارة الصائغ العظيم، فيأتي حديثه كأنَّه مسبوكة عظيمة تضم أغلى الجواهر وأندر الأحجار! وكان حساسًا وذوَّاقة وصاحب نكتة ومعقدًا إلى حد كبير! كان يبدأ الناس دائمًا بالعدوان، وبعد سهرة واحدة يُصبحون من أعز الأصدقاء! وكان يكره النساء ويُحبهن في آن واحد، وهو لأنَّه كان شيخًا مُعمَّمًا في صباه، وأيضًا لأنَّه كان من طبقة الفقراء، فقد كان مرفوضًا لدى النساء. ولعل ذلك هو سر حقده عليهن وسر شغفه بهن أيضًا! وقد عاش الشيخ قطامش حياته منفصلًا عن زوجته، وتفرغ لتربية أبنائه، والسهر طول الليل مع أحد الأصدقاء. والطواف فترة الصباح على المحاكم، فقد كان واحدًا من أقدر المحامين على الإطلاق. وكان يكسب كثيرًا ويُنفق قليلًا، ولم يُشاهَد قط خارج مكتبه أو بعيدًا عن نطاق قهوة عبد الله، إلَّا نادرًا. وكانت له صلات عريضة، وأصدقاؤه يُعَدون بالألوف، ومن كل الطبقات! وكان هذا يُتيح له سهرة في كل ليلة؛ من الزمالك إلى سوق السلاح! ولكنَّه أبدًا لم يتنكَّر لانتمائه الطبقي، ولم يقطع صلته بأصوله الأولى، وظلَّ شبحٌ رهيب يُطارده طول العمر، وهو خوفه من العودة إلى أيام الفقر الأولى وزمن التعاسة المتناهية!

وكانت تلك الأيام المُبكِّرة من حياته لا تُفارق ذاكرته، وكان يعود إليها في كل سهرة، وكان باستطاعته دومًا أن يلوي عنق الحديث إلى نشأته الأولى في ريف الجيزة، حيث كان أهل قريته يُصيبون وجبات الطعام بالصدفة، ويعيشون بلا مناسبة، ويموتون بلا سبب! وكان من الطبيعي أن يكون فلاحًا يعيش مغروزًا في الطين والبؤس واليأس أيضًا! ولكنه

قاتل قتال المستميت لكي يرسله أخوه إلى الأزهر. وكان أخوه بينه وبين الأزهر عداء، فهو نفسه كان طالبًا في معهد القاهرة الديني وقضى سنوات في دراسة النحو والفقه والشريعة. ولكنَّه سئم حياة التلمذة، فهجر معهده وعاد إلى القرية ليعمل فلاحًا في الأرض، ولكنَّه ظلَّ يتميز عن زملائه في القرية بلقب «شيخ» واحتفظ لنفسه بالعمامة حتَّى آخر يوم من حياته! ولذلك رفض الاستجابة إلى رغبة عبد الحميد قطامش، ولكنَّه رضخ في النهاية استجابةً لشفاعة بعض الأقرباء وإلحاح عبد الحميد. وفجأة وجد عبد الحميد نفسه طالبًا في الأزهر، وفي القاهرة، لا قريب له هنا ولا حبيب، وليس معه شيء إلَّا نصف جنيه، وعليه أن يُدبِّر أموره بنصف الجنيه هذا خلال السنة الدراسية! ولو كتب عبد الحميد تلك الفترة كما كان يحكيها لترك لنا عملًا أروع من طفولة جوركي، وأكثر ألمًا من أيام طه حسين! وأكتفي هُنا بلمحة رواها لي عبد الحميد حين كان طالبًا. وفي نهاية العام الدراسي كان عليه أن يعود إلى قريته، ولم يكن معه نقود، فقرَّر أن يذهب إلى بلدته سيرًا على الأقدام. ولأنَّه كان يرتدي زي مشايخ الأزهر وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة فقد كان موضع سخرية الأطفال الذين يمر بهم في شوارع القاهرة، ولأنَّه كان مُفلسًا فقد شعر بالضياع، ولأنَّه كان ضائعًا بالفعل فقد بكى عندما وصل إلى إمبابة في طريقه إلى المنصورية قريته. وسار قطامش في التراب والغبار، وأحيانًا في الوحل، خمسة عشر كيلومترًا تحت شمس محرقة ورطوبة لزجة حتَّى وصل أخيرًا إلى الدار. ويقول: عندما جلست على المصطبة وخلعت حذائي، اكتشفت أنَّ الجورب الذي كنت أرتديه لم يكن مكانه في قدمي! وليس هناك صورة أكثر صدقًا وسخرية من تعليق عبد الحميد! وحكى لي ذات مرة عن قصة غريبة حدثت له عندما كان في كلية الشريعة، فقد ذهب ببطاقة توصية حصل عليها واحد من أهل الخير موجهة إلى أحد باشوات زمان، هو محفوظ باشا رشوان. ويبدو أنَّ بطاقة التوصية كانت من رجل مُدعٍ لا علاقة له بالباشا، ولذلك رفض محفوظ رشوان مقابلة عبد الحميد، إلَّا أنَّه عاد فقبل مقابلته تحت إلحاح وإصرار واستماتة عبد الحميد! وعندما وصل عبد الحميد نفسه أمام الباشا راح يحكي ظروفه، والغريب أنَّه، وهو الشديد اللماضة، فقد تلعثم وأُصيب بالكتمة أمام الباشا العجوز. المهم أنَّ عبد الحميد نطق ببعض الكلمات: «وأنا طالب علم وأبحث عن أي عمل يُعينني على طلب العلم»! ولم ينسَ طبعًا ترديد بعض العبارات المحفوظة مثل: جعلك الله يا سعادة الباشا ذخرًا للفقراء والمتعلمين! وألقى عليه الباشا نظرة حائرة ثمَّ طلب منه أن يعود في الغد. ولم ينَم عبد الحميد تلك الليلة. فقد تصوَّر نفسه كاتبًا منفوشًا كالديك الرومي في إحدى المحاكم الشرعية، أو مستوظفًا في إحدى دوائر الحكومة،

أو مُصحِّحًا للغة في إحدى دور الصحف. إنَّ نفوذ الباشا باتع، وهو حتمًا سيجد له وظيفة تكون حلًّا لجميع مشاكله في الحياة، وفي الموعد المحدد ذهب عبد الحميد مُسرعًا إلى مكتب الباشا محفوظ رشوان، واستقبله السكرتير بلا اهتمام. وناوله مظروفًا صغيرًا وقال له: الباشا ترك لك هذا المظروف. وتناول عبد الحميد المظروف. وأدَعُ الوصف لعبد الحميد قطامش: «حملت المظروف على أكف الراحة كأنَّني أحمل أمنية طال اشتياقي إليها، ورحت أهبط الدرج وقلبي يسبقني وتكاد دقاته المرتفعة تُغطي على وقع أقدامي، وعندما أصبحت في الشارع لجأت إلى أقرب عامود نور لكي أتمكَّن من قراءة بطاقة التوصية التي تركها لي الباشا، وربما هي موجهة إلى أحد الوزراء أو أحد العظماء، ولا بد أنَّها بالقطع ستكون بوابة الخير إلى عالم الاستقرار والحياة المنشودة. وفتحت المظروف برِقة ولم أجد بطاقة توصية، ولكن وجدت ورقة مالية من فئة الخمسة والعشرين قرشًا، وانتفض جسمي كله، وأرعشت المفاجأةُ جلدي ووقفت ساهمًا، أُفكِّر في ما يجب عليَّ أن أفعله، ووجدت نفسي في حيرة شديدة، هل أعود إلى مكتب الباشا وأرد له المظروف وأُلقنه درسًا في احترام أولاد الناس، خصوصًا عندما يكونون طلاب علم في الأزهر؟ أم ...؟ أم أمضي في طريقي وأحتفظ بربع الجنيه؟ وهو كافٍ لكي أركب الترام بدل السعي على الأقدام، والحصول على عشوة فاخرة عند الكبابجي وعلبة دخان من صنف ممتاز، أو شرب الشاي على مقهى العُمَّال مع الحجاوي بالسيدة زينب! وترددت لحظات بين كرامتي ومصلحتي، بين شموخي وجوعي، بين أنفتي وحاجتي. ولم يطل ترددي، عدت أدراجي بقوة إلى القهوة والكباب وركوب الترام وتدخين السجاير. وأدركت لحظتها أنَّ الفقراء ليس لهم كيان وليس لهم كرامة. وأنَّ التشبث بهذه الخرافات بالنسبة لمن كان مثلي، أشبه بمحاولة الطيران بأجنحة من طراز عباس بن فرناس!»

إنَّها صورة من حياة عبد الحميد قطامش أيام التلمذة رواها لي بنفسه. وقد أخذتها من بين صور كثيرة للدلالة على ما صادفه عبد الحميد من عَنَت، وما عاناه من مكاره، وما ابتُليَ به من أهوال. ولذلك كان حصوله على شهادة العالمية من جامعة الأزهر، أشبه بوصول أول رائد فضاء إلى القمر. ودفعه هذا الإنجاز الذي لم يكُن يتوقعه إلى طبع بطاقات تحمل اسمه على النحو التالي: «عبد الحميد قطامش، عالمية الأزهر. وعبد الحميد الديب ليست له مؤهلات»! وقد ردَّ عبد الحميد الديب على قطامش فيما بعد، فطبع بطاقة هو الآخر كتب عليها: «عبد الحميد قطامش المحامي الشرعي ... وولده رمزي»! والغريب أنَّ عبد الحميد قطامش رغم انطلاقه إلى أبعد الحدود، ورغم ولعه الشديد بالمرح، إلَّا أنَّه كان

غاية في الانضباط خلال ساعات العمل، وكمحامٍ شرعي كان واحدًا من الأعلام، وكان يدخر تسعة أعشار دخله، ليس بُخلًا من عبد الحميد، ولكن الفلوس تحوَّلت في نظره إلى درع الأمان، والسد العالي ضد الفقر والجوع وأيام الضياع. وبالرغم من عصريته، وكمحامٍ، كان لا يؤمن بالبنوك. وكانت نقوده كلها تحت البلاطة، وحافظته كانت دائمًا متخمة بالنقود! وغالبًا ما كنت أراه يتحسَّس حافظة نقوده وهو جالس معنا في المقهى، وكان يبدو سعيدًا للغاية كلما مرَّ بيده على الحافظة المنتفخة، فقد كانت هذه الحافظة هي علامة السيادة والقوة في دنيا الناس. وكان يتمتَّع بقدرة فائقة على إضحاك الحجر. ونكتته كانت لاذعة، وتعليقاته كانت جارحة، ولسانه كان أشبه بسيف مسلول، وبالرغم من ذلك كان يبدو ضعيفًا إلى حد الانسحاق أمام رجال السلطة؛ من الوزير إلى الخفير. ولذلك آثر طول العمر أن يبتعد عن أي عمل جاد ضد السلطة. وكان يُطلق لسانه أحيانًا ببعض النكات ضد الحكومة، فإذا تأزَّمت الأمور لزم داره وقبع في سكون. ولذلك نجا عبد الحميد من المقصلة التي قطعت رءوس كل أبناء جيله، فلم يُسجن يومًا ولم يُقطع رزقه يومًا، ولم يعانِ على أي نحو، وفي كل العهود!

وما أشد عُقد عبد الحميد قطامش، وما أعقد تناقضاته. فبالرغم من نشأته الفقيرة إلَّا أنَّه كان يكره الفقر والفقراء أيضًا! وبالرغم من نشأته الريفية إلَّا أنَّه كان يكره الفلاحين، ولم يقُم بزيارة واحدة لقريته خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته. وكان يُحب السهر في بيوت الأثرياء، ويعشق الحياة المترفة والأنيقة، ويسعى للتعرُّف على طبقة الضباط والقضاة ورجال الإدارة؛ ولكنَّه كان يكره المشاهير من الأدباء والفنانين ويحتقرهم، وكان يُردِّد دائمًا: «المشاهير هم مجرد فقاقيع على وجه المجتمع»! وبالرغم من بخله الشديد على الأصدقاء إلَّا أنَّه كان على استعداد لإنفاق آخر قرش من ثروته إذا وجد لمسة حنان عند امرأة جميلة! ولكن هذه كلها تبقى صفات شخصية لعبد الحميد، أمَّا الجانب العام فيه — وهو الذي يشغلنا في الأصل — فلا شك أنَّ عبد الحميد قطامش كان واحدًا من أعظم الظرفاء الذين أنجبتهم مصر في هذا القرن. وكانت له جولات وصولات مع عشرات من رجال الأدب والفن والظُّرف في مصر، وسهراته مع زكريا الحجاوي وعبد الحميد الديب وعباس الأسواني تصلح مادة لتدريس الفكاهة في جامعات الظرف. ونكاته لم تكن قفشات لفظية فقط؛ ولكنَّها كانت أشبه بمسرحية صغيرة، الحوار فيها مُركَّز، والحركة مرسومة، وأحيانًا يستخدم الديكور ويحرص على وجود مشاهدين! ذات مساء في أواخر الأربعينيات خرج معنا — زكريا الحجاوي وأنا — من منزله في السيدة زينب ليُرافقنا بعض الطريق

ونحن في طريق عودتنا إلى الجيزة؛ ولكن لأنَّ الحديث ذو شجون فقد نسي عبد الحميد نفسه، ليكتشف فجأة أنَّه ذهب معنا إلى الجيزة. ولم يكن يرتدي إلَّا جلبابًا وفي قدميه نوع رخيص من الشباشب. وفكرنا في أن نعود معه إلى السيدة، ولكن الرأي استقر على أن نوفر له ربع جنيه مصري يكفي لتوصيله بالتاكسي إلى منزله في السيدة، وبعد أن استقل التاكسي وودعنا بإشارة من يده، أمر السائق بالتوقف فجأة، ونزل مسرعًا ليهمس في أذن زكريا: «خد رقم التاكسي يا زكريا.» ولَّما سألناه عن السبب أجاب بجدية متناهية: «أحسن السائق يقتلني ويسرق الفلوس»!

هذه كانت عينة من نكاته، قصة قصيرة موحية ولها أبعاد، وتقطر سخرية من الموقف كله، ولا ترحم أحدًا، وكان أحيانًا يقسو بشدة على نفسه، ربما ليتسنى له الحصول على إذن بالقسوة على الجميع.

وعاش الشيخ قطامش ومات، لا يُصدِّق شيئًا، ولا يؤمن بشيء، فالحياة أكذوبة، والناس مجرد أكاذيب، والنجاح صدفة، والفشل قدر، والأعمار بيد الله صحيح؛ ولكن في أمر الحياة والإنسان سر ما لا يفهمه قطامش.

وكان شديد الإيمان بالله، ولكنَّه كان مؤمنًا متعاظمًا في الوقت نفسه، ويعتقد أنَّه قريب جدًّا من الله، إلى الحد الذي ليس محتاجًا بعده لتقديم الدليل على صدق إيمانه.

وكان أحيانًا، عندما يخلو لنفسه، أو إلى صديق حبيب ... كان يبكي بكاءً شديدًا، وكنت أشعر في تلك اللحظات بعمق جراح الشيخ عبد الحميد، وغزارة نزفه.

وكان في ساعات صفوه يردد حكمة أثيرة لديه: «لن يغفر الله لأمثالنا.» وعندما أسأله عن السبب يقول: «لأنَّنا خالفنا ما جاء في اللوح المحفوظ!» وأسأله: ماذا في اللوح المحفوظ بالنسبة لنا؟ فيجيب: «نأكل مرة واحدة في اليوم، ولكنَّنا خالفنا الأمر، وأصبحنا نأكل ثلاث مرات. ونبقى أميين، ولكنَّنا تعلَّمنا. ونظل فقراء، ولكنَّنا أصبحنا أثرياء»! وأقول له ساخرًا: أثرياء؟! فيجيب: نعم، إنَّك تملك سيارة فولكس فاجن، وترتدي بدلة، وتدخن، وتسافر للخارج في مهمات صحفية، وهذا بالنسبة لِمَا هو مكتوب لك ثراء فاحش. وأسأله: وعلى ذلك سنخلد في النار؟ ... فيُجيب ساخرًا: لا أظن، لأنَّ المحسنين سيدخلون الجنة، والمخطئين سيدخلون النار، ولكن أمثالنا — أنا وأنت وزكريا الحجاوي — لا مكان لهم في الدنيا ولا في الآخرة بإذن الله.

وكان يؤمن إيمانًا عميقًا بأنَّ ضربة حظ أصابت أصدقاءه، فأصبح زكريا الحجاوي فنانًا شعبيًّا، وأصبح نعمان عاشور كاتبًا مسرحيًّا، ومحمود الشريف مُلحِّنًا مشهورًا، وأنَّ

هذا الذي حدث، كان من باب سخرية الأقدار! ولذلك لم يقرأ قطامش حرفًا واحدًا من إنتاج أصدقائه. لم يُشاهد مسرحية لنعمان، ولم يقرأ حرفًا لزكريا، وبالرغم من احترامه الشديد لأنور المعداوي، إلَّا أنَّه لم يُكلِّف نفسه عناء قراءة مقال واحد له.

ويبدو أنَّ طريقة التعليم في الأزهر — على زمانه — طغت على أي رغبة عنده للقراءة، فقد كان عليه أن يحفظ عن ظهر قلب كتبًا تزن عدة أطنان، وكان عبد الحميد يُعلِّق على ما حدث قائلًا: «لقد قضيت زهرة العمر في حفظها ثم اكتشفت في النهاية أنَّني لم أستفِد شيئًا.» وساعده على عدم القراءة إصراره على الهروب من الوحدة وتجنبها، وإلقاء نفسه في بحر الناس، فلم أُشاهده وحيدًا قط، ولم يكن يلزم داره إلَّا إذا كان عاجزًا عن الحركة، وعندئذ كان يقوم باستدعاء الأصدقاء، ليقضوا الليل حول فراشه.

ولكن أخطر نقطة في حياة عبد الحميد هي علاقته بالجنس الآخر، فقد عاش أعزب بالرغم من أنَّه كان متزوجًا، ولكن زواجه تحطَّم في أولى مراحله، وبقيت الزوجة في الريف على ذمته، وعاش هو وحيدًا مع أولاده في القاهرة. وكان يكره المرأة كراهية شديدة، والأكيد أنَّ هذا الموقف كان راجعًا إلى فترة شبابه، حيث كان شيخًا مُعمَّمًا، ولم يكن طلاب الأزهر في قائمة فتيان الأحلام لبنات ذلك العصر، ولذلك لم يجرؤ مرة واحدة في حياته على مغازلة امرأة، ولم يكن لديه الشجاعة للإفصاح عن شعوره للطرف الآخر، وكان يحلم دائمًا بامرأة تُغازله، وتُطارده، وتقع في هواه. وكان إحساسه بالحب إحساسًا سينمائيًّا، فهو يبحث دائمًا عن حب من هذا النوع الذي يظهر في أفلام السينما، وينتهي غالبًا بمأساة!

وكان يكتب خطابات غرامية أحيانًا ويُرسلها لنفسه، وكان حريصًا على قراءة هذه الخطابات لي، وعندما كان يبدو عليَّ أحيانًا أنَّني غير مُصدق، وعندما يغلب عليَّ الضحك، يقوم الشيخ قطامش وينهال عليَّ شتمًا. وكنت أُحاول تهدئته، وأقول له مُداعبًا: إنَّ الخطاب يا عبد الحميد مكتوب بأسلوب لا يُمكن أن يكون لامرأة، فهو مستوفٍ لكل الشروط التي وصفها الفراهيدي وابن مَنظور، وصاحبة الخطاب لا بد وأن تكون خريجة كلية اللغة العربية بالأزهر (لم يكن في الأزهر طالبات في ذلك الحين).

وكان يضحك بعمق عندما أسأله: هل وقع سِيبَوَيه في غرامك؟ ولكنَّه بالرغم من هذا الموقف الحاد من الجنس الآخر، كان يبدو سعيدًا للغاية إذا ضمَّه مجلس به سيدات. وكان على استعداد للزحف على ركبتيه ليُلبِّي إشارة من امرأة تُعامله بشيء من الحنان، أو تُبدي نحوه شيئًا من الود! وبالرغم من حرصه الشديد، كان على استعداد لأن يُنفق آخر قرش في جيبه لتلبية أي طلب يأتي من جانب امرأة.

وهذه النفس المعقدة الحساسة إلى درجة شديدة، كانت هي حجر الزاوية في ظاهرة قطامش، فقد كان لا يفتح فمه بكلمة إذا ضمَّ مجلسه فردًا واحدًا لا يعرفه معرفة وثيقة، وكان لا يسُبُّ إلَّا من يُحبهم من أصدقائه. وكان يخشى الحكومة، ولكنَّه لا يستطيع الكف عن نقدها. وكان مثاليًّا، ولكن تصرفاته الشخصية أكثر من واقعية. وكان يتجنَّب رؤية الدماء والأشلاء، في الوقت الذي كان فيه شديد القسوة لا يرحم.

صندوق المتناقضات الذي في داخله، هو الذي أنتج في النهاية هذا الرجل الساحر الساخر، الذي لم يكن له مثيل في زمانه على الإطلاق.

وكان دائم المزاح مع أصدقائه، ويلجأ أحيانًا إلى مزاح من نوع ثقيل، يؤلم ويجرح، إذا عاتبه صديق أجاب بأنَّه لا يقصد شيئًا إلَّا المزاح، وأنَّ النكتة «حبكت»، وأنَّ الفرق بين الصديق والعدو هو أنَّ الصديق يبلع لصديقه أخطاءه المقصودة، فما بالك بالخطأ غير المقصود. ولكن الويل لمن تُسوِّل له نفسه المزاح مع عبد الحميد بنفس الطريقة، لقد قاطع صديق عمره زكريا الحجاوي ثلاث سنوات متصلة بسبب مزاح بدأه عبد الحميد فرد عليه زكريا بنفس الأسلوب، فكانت القطيعة!

وأصل الحكاية أنَّ زكريا الحجاوي كان جالسًا في مقهى عبد الله مع مجموعة من أصدقائه وتلاميذه، ولم يكن من بينهم أحد من أصدقاء عبد الحميد، وفجأة دخل عبد الحميد المقهى، وألقى نظرة على الجالسين، فهبَّ زكريا في احترام مُبالغ فيه — وهي عادته عندما يكون في جلسة مع بعض معارفه الجدد — ورحَّب زكريا بعبد الحميد بكلمات تحمل كل الاحترام والتقديس. ووقف قطامش بعيدًا عن زكريا وهو في غاية الجد وقال: «لسه قاعد بتنصب يا زكريا، يا حقير بني أمية، يا ابن الـ ...» ثم بصق على زكريا وانصرف!

موقف — لا شك — عانى منه زكريا بعض الوقت، وبالتأكيد لم يجد تبريرًا لهذا الموقف، وخصوصًا أنَّ الذين كانوا يجلسون معه كانوا يعرفون زكريا قليلًا، ولا يعرفون قطامش على الإطلاق.

ومرت شهور طويلة بعد ذلك، ثمَّ سنحت فرصة لزكريا الحجاوي لينتقم، فقد صعد زكريا إلى «الباص» عند محطة الباشا في منيل الروضة، وكان «الباص» مزدحمًا والجو خانقًا، وشديد الحرارة. ولمح زكريا وسط الركاب الشيخ قطامش يقف مع مجموعة من المحامين الشرعيين، واقترب زكريا من أحدهم وسأله: «هوه الأستاذ اللي واقف هناك ده يبقى عبد الحميد قطامش المحامي الشرعي؟» فأجاب الشيخ بالإيجاب، وصرخ زكريا صرخة شديدة: «يا لص، يا كذاب، يا منافق يا قطامش، تذهب إليك زوجتي بتوكيل خاص، لترفع

لها قضية طلاق مني فتغازلها غزلًا معيبًا يا منافق يا شيطان.» وبُهت المشايخ جميعًا، فقد كانت هذه التهمة هي أم الكبائر في مهنة تقوم أساسًا على احترام أعراض وأسرار الناس، ولم يكن للقصة أصل من الحقيقة طبعًا، ولكن زكريا اندفع في تمثيل الدور، وعبثًا يُحاول المشايخ تهدئته دون جدوى، وثار الركاب الآخرون على الشيخ قطامش وكادت تحدث كارثة، وانتهز زكريا فرصة الهرج الشديد الذي حدث فقفز من «الباص» واختفى.

وعبثًا حاولت الصلح بينهما دون نتيجة. كان قطامش شديد الغيظ مِمَّا حدث، وكان يُقسم كلما فاتحته في الموضوع أنَّه لن يُخاطب زكريا حتَّى الموت، ولكني انتهزت فرصة مواتية، وتعمدت استفزاز قطامش عندما قلت له: يُخيَّل إليَّ أنَّ هناك سببًا لا ندريه في موقفك المتشدد والغريب من زكريا. وقال قطامش عندك حق، فأنا وجدتها فرصة لأقاطع زكريا الحجاوي إلى الأبد، ولَمَّا سألته عن السبب الحقيقي، تنهد في أسى وقال: إنَّ زكريا يحقد عليَّ حقدًا شديدًا. وارتسم شبح ابتسامة على شفتيَّ، ولكنَّه واصل حديثه في جد شديد: لا تظن أنِّي أمزح أو أعبث يا محمود، الحقيقة أنَّ زكريا يحقد عليَّ حقدًا شديدًا، والسبب أنَّه عديم الأصل وفقير، وهو لم يتعلَّم شيئًا ولم يستفِد شيئًا، كما أنَّه ضائع وصائع ... ثمَّ هدأ انفعاله قليلًا، وصمت لحظة، ثم قال في هدوء: وأنا كمان كده يا أخويا، وهو عاوز يبقى كده لوحده! عشان كده بيحقد عليَّ. وضحك قطامش ضحكة عميقة وصافية نابعة من القلب، ونهض معي إلى بيت زكريا الحجاوي، وكانت سهرة لا تُنسى.

ولقد ظللت خلال رحلة ضياعي بعيدًا عن مصر، أشعر بحنين شديد إلى أربعة من الأصدقاء: زكريا الحجاوي، وعبد الرحمن الخميسي، ومحمد عودة، وعبد الحميد قطامش. وقد رأيت «الخميسي» كثيرًا في المنفى، وسعدت برؤية محمد عودة مرات، وسافرت إلى الدوحة خصيصًا لرؤية عمنا زكريا الحجاوي، ومن غرائب الصُّدف أنَّه مات بعد زيارتي له بالدوحة بأشهر قليلة، غير أنَّ الفرصة لم تُتَح لي أبدًا لرؤية عبد الحميد قطامش، فهو لم يخرج من مصر قط وأنا لم أذهب إلى مصر طوال مائة شهر وشهر. ولذلك كنت أحيانًا أتذكر قطامش في غربتي، وأشعر بخوف شديد أن يموت قطامش دون أن أراه.

ومنذ أشهر قليلة التقيت بالمستشار الثقافي الكويتي بالقاهرة، واكتشفت أنَّه كان يبحث عني بشدة، فقد كان يحمل خطابًا من قطامش إلى العبد لله، وقرأت سطوره وبكيت: «يا محمود عُد بسرعة، فأنا في حاجة إليك، لقد مات كل الأصدقاء ولم يبقَ إلَّا أنا وأنت. لقد رحل أنور المعداوي، ورحل محمود حسن إسماعيل، ورحل زكريا الحجاوي، ورحل عبد العظيم بدوي، وهاجر محمد علي موافي والخميسي، واختفى نعمان عاشور، لا أدري

أين؟ ... عُد حتَّى أراك، فأنا أشعر في داخلي أنَّ العمر قد ولَّى، فأخشى أن أموت دون أن أراك!»

وأمسكت بالقلم وكتبت كلمات قليلة لعبد الحميد: «اثبت أيها الرجل، فسيكون في استطاعتي أن أراك قريبًا عندما يأتي الفرج من عند الله، وأنت تعرف الظروف التي تمنعني من العودة، ولكني واثق أنَّها ستزول قريبًا بإذن الله الواحد القهار. اثبت يا عبد الحميد ولا تكن نذلًا كعهدي بك فترحل قبل أن أراك!»

وبعد شهور قليلة من تحريري هذا الخطاب، عثرت على ورقة من صفحة قديمة من جريدة الجمهورية المصرية تحوَّلت في النهاية إلى قرطاس يحوي بعض الفاكهة. ولا أدري ما الذي جعلني أتفحَّصها وأقرأ سطورها، وخفق قلبي بشدة على نعي الشيخ عبد الحميد قطامش منشورًا على استحياء.

يا لها من لحظة خاطفة تجسدت وتبلورت فيها ذكريات عشرات الأعوام. والغريب أنني انفجرت باكيًا بشدة عند سماعي نبأ وفاة زكريا الحجاوي، ولكن مع قطامش كان الأمر يختلف، لم أبكِ ولم تختلج عضلة واحدة في جسمي، كأنَّما أصابني شلل مُفاجئ، وبقيت هكذا في حالة انعدام وزن عدة أيام.

لقد انطوت بوفاة الرجل، صفحة كاملة خطيرة ومُثيرة وحافلة، فما كان أعرض حياته وأعمق صلاته! وكم شهدت ليالي القاهرة سهراته التي كانت تُجلجل فيها ضحكاته، وتطيش خلالها تعليقاته ولذعاته وقفشاته، ونكاته التي تجرح وتُسيل الدم. ولا أعتقد أنَّ رُكنًا في مدينة القاهرة لم يشهد سهرة لقطامش، ولا أعتقد أنَّ أحدًا من الذين عاشوا في القاهرة خلال نصف القرن الأخير هذا لم يتعرَّف على قطامش أو لم يسمع به.

وبالرغم من ذلك مات في هدوء وانسحب من الحياة في صمت، ونعيه نُشر في جريدة الجمهورية في عدة سطور لا تلحظها العين.

مسكين عبد الحميد قطامش ... عاش كالمهراجا ومات كالصعلوك، لأنَّ الزمن الذي مات فيه، هو أردأ زمن مرَّ على مصر، زمن لمع فيه الطين، واختفت فيه النجوم. لم يكن هذا زمان قطامش، ولكنَّه كان زمن توفيق عبد الحي، ورشاد عثمان. ولعل الموت كان أعظم هدية لقطامش الذي لم يستطع احتمال الحياة في مصر، ولم يستطع أن يغادرها، وقنع أخيرًا بعدة أشبار في تراب مصر.

شاعر لكل العصور

كان شاعرًا عظيمًا ... هو بالقطع أهم شعراء مصر بعد أحمد شوقي، وهو بالتأكيد الذي مهَّد الطريق لظهور الأجيال الجديدة من الشعراء ... لقد كان الجسر الذي عبر بالشعر من مرحلة الألفاظ إلى مرحلة الأحاسيس، ولكنَّه — رغم موته، واختفاء الخلافات والنزاعات معه وحوله — لم يحصل على حقه بعد، ولم يحتل مكانته التي يستحقها عن جدارة ... لقد ضيعناه حيًّا وأهملناه ميتًا ... وهي جريمة أدبية كبرى.

خاصمت شاعر «قهوة عبد الله»، قبل أن أراه ... السبب أنَّني كنت صديق زكريا الحجاوي، وكان رأي الحجاوي في الشاعر ليس على ما يُرام. ولم يكن رأي زكريا في شعر الشاعر، ولكن في الرجل نفسه كإنسان.

كان يصفه بالشرير، وكان يُلقِّبه أحيانًا بالعفريت، وسمعت نفس الرأي من آخرين غير زكريا، فأعلنت الحرب على الرجل قبل أن أراه! وحدث ذات يوم أن نشر الأستاذ عزيز أحمد فهمي، وهو واحد من أعظم الكتاب الساخرين الذين ظهروا في هذا القرن العشرين، ولكنَّه ضاع في أزقة التاريخ بسبب ظروف سياسية صغيرة، وظروف شخصية قاسية ليس هنا مجال ذكرها. على أيَّة حال، أقول: نشر عزيز سلسلة مقالات في جريدة المصري بعنوان: «يوميات الرجل الذئب»، وكانت صورًا قلمية شديدة القسوة عن رجل يرتدي ثيابًا آدمية ويحمل بين جوانحه نفسية ذئب مفترس هوايته الوحيدة افتراس بني الإنسان، وعندما سألت عزيز فهمي عمَّن يقصده بهذه المقالات المثيرة قال إنَّه يقصد شاعر «قهوة عبد الله»، وراح يقص على مسامعي عشرات القصص عن الشاعر وعن المآسي التي تسبب فيها لعزيز ولغيره من الكتاب، ولذلك تعاملت مع الرجل بحذر عندما جمعتنا الظروف معًا في قهوة عبد الله، وتطاولت أحيانًا محاولًا استفزازه، ولكنَّه واجه محاولاتي بهدوء، وببرود أحيانًا! وعندما قرأت له أول ديوان شعري ... لم أنَم ليلتها على الإطلاق. قرأت شعرًا حقيقيًّا

منحوتًا من نفس صاحبه ومكتوبًا بمداد من دم الشاعر، لم يكن من نوع الشعر إياه الذي تقرأه فتنساه! كان أشبه شيء بشعر المتنبي؛ لا يُمكن أن يصدر إلَّا عن رجل له أحاسيس ومشاعر خاصة، ودنيا له وحده ومختلفة عن دنيا الناس، كانت تعابيره غريبة ورؤيته فريدة وعبارته الشعرية وحيدة غير مسبوقة ولا مطروقة. واحترت في أمر الرجل وارتبَكَت علاقتي به؛ فأنا أحبه كشاعر وأكرهه كإنسان، وإن كانت علاقتي به كإنسان لا تدعو إلى هذه الكراهية على الإطلاق.

ولكن ذات مساء قُدِّر لي أن أشهد حادثة كانت هي السبب في اقترابي من الرجل وتوثيق علاقتي به، فأصبحت أكثر تفهمًا له وأكثر حبًّا وإشفاقًا عليه.

كنا جلوسًا على المقهى وقت الغروب، حين اقترب منَّا رجل يرتدي جلبابًا وطاقية، وله شارب كثيف أخفى نصف وجهه، سلَّم على الشاعر وجلس على حرف المقعد وسلَّمه لفافة صغيرة مغلفة بورق سوليفان، ودسَّ الشاعر يده في جيبه وأخرج جنيهين أعطاهما للرجل الذي تناولهما في هدوء ثمَّ انصرف. وفتح الشاعر اللفافة وتناول جزءًا مِمَّا فيها دسَّه في فمه، ثم راح يلوكه على مهل وقد سرح في الفضاء.

ولعلَّ هذا الاتجاه الخاطئ في حياة الشاعر كان السبب في كل ما تعرَّض له من مشاكل أدبية وإنسانية.

وقد علمت أنَّ الشاعر مُدمن على هذا الصنف، وأنَّه وسيلته للانفصال عمَّا حوله من مشاكل ومتاعب وزحام. كان يجلس بالساعات على المقهى لا يتكلَّم، مُكتفيًا بالتحديق في لاشيء مُستغرقًا في التأمل. وكان في بعض الأحيان يُصدر أصواتًا خافتة، وأتصوَّر أنَّه يُخاطبني، ثمَّ أكتشف أنَّه يُخاطب نفسه! وكان يُطلق على زكريا الحجاوي لقب «جوَّاب الآفاق»، وعلى أنور المعداوي وصف «العمدة»، وعلى عبد الحميد قطامش وصف «المختال»! وكان رزقه محدودًا، ولكنَّه كان في الوقت نفسه قليل السعي لزيادة هذا الرزق على عكس الآخرين. ولذلك كان وقته محصورًا بين بيته وقهوة عبد الله ومكتبه في الوزارة، ونادرًا ما شُوهد في مكان عام أو حفل رسمي أو بعيدًا عن هذه الأماكن الثلاثة! حتَّى عندما قامت ثورة ١٩٥٢م لم يُبالغ في تأييدها، صحيح أنَّه أعلن تأييده لها، ولكن على مهل وبصوت خافت. فقد كان عازفًا عن الشهرة واحتلال مكان في الصدارة. كان همه كله أن يعيش في هدوء، مكتفيًا بالبحلقة في الفراغ، والتأمل في الفضاء والتحدث إلى نفسه بين الحين والآخر!

وعندما توطَّدت الصداقة بيني وبينه سألته عن سر كراهية أبناء جيله له فأجاب ببساطة وشبح ابتسامة تلوح على شفتيه: لأنَّني جحش! ولَمَّا سألته تفسيرًا أوسع قال: كان

لي رأي في إنتاج كل منهم وصارحتهم برأيي، ولو أنَّني كتمته لصرت فرخة بكشك عند الجميع! كان مثلًا يرى أنَّ عزيز أحمد فهمي هو أوسكار وايلد العرب. ولكنَّه بدلًا من اهتمامه بفنه، اهتم بخدمة بعض الجهات، فاستأجروه للسخرية من الزعيم الوطني مصطفى النَّحاس، وكتب ضده ما لو كُتِبَ في موضعه لحقق له الخلود. وكانت النتيجة ضياعه بسبب مؤامرة حُبكت ضده، وساعد هو نفسه على تحقيقها. وكان رأيه في زكريا الحجاوي أنَّه واحد من أعمدة القصة المصرية القصيرة. وأنَّه كتب القصة القصيرة قبل يوسف إدريس، وأنَّه هو ومحمود البدوي، ويحيى حقي، وطاهر لاشين الآباء الروحيون لهذا الفن العظيم، ولكن زكريا — لقلة صبره وشدة ضعفه لنزواته — ترك فنه الحقيقي واشتغل بالصحافة، مع أنَّها أبعد ما تكون عن طبيعة زكريا وموهبته. ثمَّ ترك الصحافة واهتم بالفن الشعبي. ولو بذل نصف هذا الاهتمام بفنه الحقيقي لصار له شأن آخر!

ولكن هذا السبب لم يكن وحده هو سر كراهية أبناء جيله له، لقد ذكر لي الشاعر نصف الحقيقة وأهمل النصف الآخر. فلم يكن الشاعر يُصارح أصدقاءه برأيه، ولكنَّه كان يقول هذا الرأي نفسه لو سأله أحد آخر. مثلًا سأله صاحب جريدة الشاعر عن رأيه في عزيز أحمد فهمي، وكان عزيز قد تقدَّم طالبًا عملًا في الجريدة، فقال الشاعر رأيه الصريح لصاحب الجريدة فامتنع الرجل عن تشغيل عزيز! وسُئل الشاعر مرة عن زكريا الحجاوي، وكان مُرشحًا لعضوية لجنة من اللجان، فأجاب بأنَّ زكريا لا علاقة له بعمل هذه اللجنة، وأنَّه مجرد كاتب قصة كبير! فاستبعدوا زكريا من عضوية اللجنة. وعندما صارحته بما أعلم قال: طيب ودي فيها إيه؟ لقد قلت رأيي الحقيقي وصارحتهم بما أعتقده، وكان ذلك لمصلحة العُمَّال ولمصلحة أصحابي أيضًا!

لم يكن «الشاعر» من أبناء هذه الدنيا، ولم يكن مُسلحًا بأسلحتها اللازمة لكي يشق الإنسان طريقه في الحياة. كان شاعرًا عظيمًا، وكان يعتقد أنَّ شعره وحده هو الكفيل بوضعه في المنزلة التي يرجوها، لكن الحياة ليست شعرًا فقط. قد يكون الشعر هو مسوغات تعيين الشاعر في مكانه الطبيعي بعد الموت. ولكنَّه أثناء حياته، الشاعر والأديب والكاتب والفنان، يحتاج إلى أسلحة أخرى غير فنه لكي يُحرز مكانًا لائقًا في الحياة. ولذلك نجد الشاعر بالرغم من عبقريته الفنية فإنَّه لم يستطع أن يُحقِّق حلمه الأبدي بأن يكون له بيت مستقل إلَّا بعد جهد شديد، كان هو السبب المباشر في هلاكه قبل الأوان، لقد بدأ في بناء البيت ولم يستطع إتمامه، وراح يجري على دوائر الحكومة يطلب كميات من الحديد والأسمنت والطوب تُعطى لمن هم أقل منه شأنًا وأقل ذكرًا، ولكنَّه لم يستطع الحصول على ما يُريد.

لم تكن شهرته قد وصلت إلى طبقة السادة المستوظفين، ولذلك كانوا ينظرون إليه ببلاهة، ويندهشون لمسلك هذا الأفندي الغائب عن الوعي المُتأمِّل في لا شيء، الذي يطلب حديدًا للتسليح وأسمنتًا للبناء! وشكا لي ذات مرة من أنَّه ذهب إلى رئيس مجلس مدينة الجيزة حسين الألفي فعامله مُعاملة سيئة ولطعه على الباب فترة طويلة، ثمَّ رفض طلبه معتذرًا بأنَّ كل مواد البناء مسخرة لخدمة المعركة! وقلت للشاعر الكبير الطيب الساذج البعيد عن دنيانا: وهل حدَّثته عن ديوانه الأخير؟ قال: ديوان من؟ قلت: ديوان رئيس مجلس المدينة. قال: وهل هو شاعر؟ قلت: يا سبحان الله! إنَّه شاعر فحل لم تُنجِب الجيزة مثله، وديوانه الأخير «الشمس طالعة» أحدث دويًّا في كل مكان، خصوصًا في ديوان المحافظة! ولقد ساءه أنَّ شاعرًا كبيرًا مثلك يذهب إليه يطلب حديدًا ولا يُشير من قريب أو بعيد لديوانه الجديد! قال الشاعر الكبير: وماذا في الديوان؟ قلت: قصائد كلها عن المعركة، ولا صوت يعلو فوق صوتها، ولا رأي بعد رأيها، ثمَّ هو في النهاية أشبه بديوان الحماسة لأبي تمام! قال: هل عندك نسخة؟ قلت: أعتقد أنَّ لديَّ نسخة من الديوان وسأُفتِّش عنها لك، ولكن يكفي أن تذهب إليه غدًا وتُقابله وتُحدِّثه عن ديوانه وتعده بأنَّك ستنقده نقدًا مُفصلًا عمَّا قريب، وستأخذ منه كل ما تطلبه من حصة الأسمنت والحديد! ولم يكن حسين الألفي شاعرًا، ولم يكن له ديوان. وأشهد بأنَّه كان أكفأ من تولى هذا المنصب، وأنَّه أفاد الجيزة وأهلها، وأنَّه كان نموذجًا لرئيس المدينة الحريص على مصلحة المدينة ومصالح الجماهير. واتصلت بحسين الألفي وحكيت له «المقلب» الذي دبَّرته للشاعر. وأبدى حسين الألفي أسفه لأنَّه لم يتعرَّف على الشاعر الكبير ولم يقدم له ما يرجوه!

وعندما ذهب الشاعر في اليوم التالي استقبله حسين الألفي مُرحِّبًا، وأعطاه حصته المطلوبة، بينما كان الشاعر منهمكًا في الحديث عن ديوان «الشمس طالعة»، الذي وضعه الشاعر الكبير حسين الألفي!

وعندما أدرك بعد فترة أنَّه كان مجرد مقلب من مقالب العبد لله راح يضحك بصوت عالٍ، ويقول: ما أظرفه من مقلب؛ لأنَّه كان السبب في حل المشكلات!

ولم تهدأ نفس الشاعر إلَّا عندما خرج على المعاش وسافر إلى إحدى البلاد الخليجية وعمل هناك. لعله ذاق طعم الاستقرار لأول مرة في حياته. لعله ذاق طعم أن يكون لديه فائض من المال. وراح يُؤلِّف قصائد ويُلقيها على جمهور من عُشَّاق الشعر في أمسيات متباعدة. ولعله أيضًا في هذه الأمسيات ذاق حرارة اللقاء بين الشاعر وعُشَّاق الشعر. لعله أدرك لأول مرة في حياته فائدة الاندماج بين الشاعر وجمهور الناس. لقد عاش في مصر

أغلب حياته في شرنقة نسجها حول نفسه. كان يخاف الزحام، ويخشى الجموع، ويتحاشى الاجتماعات، ولكنَّه في غربته خرج من شرنقته وسبح في تيار البشر. وعندما اجتمعنا ذات مساء وسألته أن يكتب لي مذكراته لأنشرها في جريدة السياسة على حلقات ... سرح فترة ثمَّ قال: فكرة لا بأس بها لو تمكَّنت من كتابتها، لأنَّها تحتاج إلى طقوس خاصة لا أظنني قادرًا عليها الآن. وطمأنته بأنَّ كتابتها يسيرة، وما عليه إلَّا أن يبدأ ليفيض بعد ذلك نهر الذكريات. فهزَّ رأسه ولاك شيئًا في فمه وقال: سنُحاول على كل حال. في تلك الليلة تذكَّرنا زكريا الحجاوي، وعبد الحميد قطامش، وأنور المعداوي وشلة قهوة عبد الله الذين انتقلوا إلى رحمة الله. وهزَّ الشاعر رأسه وقال: رحمهم الله، سبقونا إلى دار الاستقرار وتركونا في دار القلق. قلت: وهل لا تزال تشعر بالقلق؟ وابتسم ابتسامته الشهيرة وقال: القلق لم يعد شعورًا عندي، ولكنَّه صار عضوًا من أعضائي، إذا أردت التخلُّص منه فلا بد من بتره، وإذا بترته فلا بد أن أتخلَّص «أولًا من الحياة»!

وكانت هذه الليلة هي آخر عهدي بالشاعر، فلم تمضِ أيام حتَّى سقط ميتًا بالسكتة القلبية في الكويت.

ورحل عن دُنيانا شاعر عظيم هو بالقطع أهم شعراء مصر بعد أحمد شوقي. وهو بالتأكيد الذي مهَّد الطريق لظهور صلاح عبد الصبور، وحجازي، وأمل دنقل.

لقد كان هو الجسر الذي عبر بالشعر من مرحلة الألفاظ إلى مرحلة الأحاسيس.

ولكنَّه وبالرغم من موته، واختفاء الخلافات والصراعات، لم يحصل على حقه بعد، ولم يحتل مكانته التي يستحقها عن جدارة واستحقاق!

لقد ضيَّعناه حيًّا وأهملناه ميِّتًا! وهي جريمة أدبية كُبرى؛ لأنَّه — برغم الاتجاهات والمعتقدات — كان أهم شاعر في عصرنا، وكان أعظم من غنى في سمع الوجود، وستظل أغانيه تتردَّد لتشنف آذان الأجيال إلى آخر الزمان!

رحم الله الشاعر الذي اعتزل زمانه ليُحلِّق في فضاء كل العصور.

الفلَّاح

إذا كان أنور المعداوي هو النموذج الأفضل في قهوة عبد الله، وزكريا الحجاوي هو الفنان، وقطامش هو المتكلم، وعبد القادر القط هو الطيب، فالأستاذ محمود شعبان هو الفلاح. هو فلاح حقيقي وأصيل وبدون ادعاء، وهو الوحيد الذي كان يعرف العيب، ويتمسَّك حقًّا بأخلاق القرية! ومحمود شعبان في الأدب ربما لم يترك الأثر الذي سيخلد على مر الزمان، ولكنَّه كنموذج إنساني سيحتل مكانه في الصدارة وسيكون مثلًا ينبغي أن يُحتذى. وقصة محمود شعبان هي تطبيق للمثل المصري الشعبي «الدنيا متديش عايز»، ولمَّا كان محمود شعبان «مش عايز» أي شيء، فقد أعطته الدنيا كل شيء. أصبح أديبًا ولم يكن يُريد ذلك، وحصل على الشهرة ولم يكن يسعى إليها، وأصبح يملك المال ولم يكن في لهفة إليه! وهو أصبح ثريًّا عن طريق لم يتعمَّده، ففي الخمسينيات من هذا القرن؛ كتب محمود شعبان قصة طويلة بعنوان «زهرة من الجزائر»، لم يلتفت إليها النُّقاد ولم يكتب عنها أحد. ولكن وزارة التربية والتعليم رأت أنَّها قصة ممتازة، وأنَّها تستحق أن تُعمَّم على طلبة الثانوية العامة. واشترت الوزارة حق طبع عدة ملايين من قصة محمود شعبان ليصبح شعبان ثريًّا خلال أربع سنوات. واشترى شعبان الفلاح ضيعة صغيرة في قريته، وشيَّد بيتًا جميلًا في مصر الجديدة. واشترى أسطولًا صغيرًا من سيارات الركوب وصار له دخل محترم، وحقَّق ما يكفي لاستقراره وسعادته معًا، ولكنَّه لم يُغيِّر عادة واحدة من عاداته، ولم يتنكَّر لصديق من أصدقاء الماضي، ولم يتخلَّ عن صديق في محنة، ولم يتردَّد عن مساعدة صديق في حاجة إليه.

وموقف محمود شعبان من أنور المعداوي في محنته يجب أن يُروى، لتتعلَّم الأجيال الجديدة أنَّ الحياة في أحلك فتراتها كانت تشع بالنور رغم العتمة، وتنضح خيرًا رغم حجم الشر الذي كان يُعشش في أركانها.

فعندما أطاح «س» يومًا بالمرحوم أنور المعداوي، وفصله من وظيفته وأراد له أن يركع عن طريق التجويع، كان محمود شعبان هو السبب في صمود أنور المعداوي، وبفضله لم يستسلم أنور المعداوي ولم يركع!

فقد ظلَّ محمود شعبان يصرف مرتب أنور المعداوي كاملًا خلال السنوات الثلاث التي توقَّفت فيها وزارة التربية عن صرف مرتبه. وفي أول كل شهر كان أنور المعداوي يتسلَّم ٤٦ جنيهًا و٨٣ قرشًا بالتمام والكمال. ولم يعرف هذا التصرف إلَّا حلقة ضيقة من الأصدقاء. ولم يصل السر إلى هؤلاء الأصدقاء عن طريق شعبان، ولكن أنور المعداوي هو الذي أذاع السر لهم. ولم يكن فضل شعبان مقصورًا على صرف النقود فقط، ولكن الفضل كان في شجاعته، في وقت بدأ فيه الأصدقاء يهربون من أنور المعداوي ويتحاشون الظهور معه في مكان عام. فأنور المعداوي كان مفصولًا من السلطة ومُراقَبًا أيضًا. وكان هو نفسه شديد النقمة على الأوضاع في مصر عمومًا، وعلى الأوضاع في الحقل الأدبي على وجه الخصوص، ولم يكن يُخفي غضبه أو ثورته، وأحيانًا كان يتعمَّد إعلان رأيه عندما يشعر بأنَّ العيون تلاحقه والآذان تُحيط به في المكان الذي يجلس فيه. ولذلك آثر بعض الأصدقاء أن يبتعدوا عن طريقه، وانشغل البعض الآخر بأعماله، أو تظاهر بالانشغال، إيثارًا للسلامة وطلبًا للأمان. ولكن شعبان الفلَّاح لم يتخلَّف يومًا عن حضور مجلس أنور المعداوي في قهوة عبد الله، ولم يتخلَّف شهرًا عن دفع مرتبه. ولم يتوانَ لحظة عن توفير احتياجات أنور المعداوي. ودون أن يذكر ذلك مرة واحدة لأحد! ونفس الموقف اتخذه مع أكثر من صديق؛ مع زكريا الحجاوي وآخرين لا داعي لذكر أسمائهم؛ لأنَّهم لا يزالون على قيد الحياة. وأغرب شيء أنَّ شعبان لم يكن له وجهة نظر محددة في السياسة، ولكنَّه كان يقف إلى جانب كل مضطهَد من أي اتجاه. كان يُساند الاشتراكي واليميني والتقدمي طالما أنَّه في محنة ويُعاني بسبب ما يعتقده من آراء. ونادرًا ما كنت ترى شعبان في فترات صفوه، ولكن المؤكَّد أنَّك ستراه إلى جانبك في لحظات الضيق. كان في الإذاعة في فترة الستينيات مخرجٌ مزعجٌ للغاية، وكان مُرتشيًا، وتدهور به الحال إلى حد فرض الإتاوات. وبالتأكيد كان شعبان أحد ضحاياه، فابتعد شعبان عن التعاون مع الإذاعة فترة، ولكن بعد أن فصلوا المخرج من عمله لم يتخلَّف شعبان عن زيارة المخرج في منزله مرة كل أسبوع حاملًا معه كل ما تستطيع يداه حمله من الطيبات. وكان يُخصِّص للمخرج المزعج إيَّاه مبلغًا مُعيَّنًا من المال كل شهر يُعينه على مواجهة أعباء الحياة! ولا يعرف غير عدد قليل من الأصدقاء أنَّ محمود شعبان أنفق مبالغ كبيرة من ماله الخاص لطبع الإنتاج الأول

لكُتَّاب ناشئين لا تعترف بهم دور النشر. أذكر مرة أنَّني سخرت بقسوة من كاتب شاب يُدعى محمد أبو شنب، قدَّمه لي يوسف السباعي، وطلب مني أن أكتب له مقدمة كتابه الأول، وكان بعنوان «قصص من الحياة»، وقرأت القصص التي هي من الحياة، واكتشفت أنَّ الشاب إيَّاه كاتب من النوع الموهوم وليس من النوع الموهوب، وأنَّ علاقته بكتابة القصة كعلاقة العبد لله بلعبة الكاراتيه! وكانت القصة الأولى بعنوان «زوجتي في الحديقة»، والقصة الثانية بعنوان «يا بوليس الآداب»، والقصة الثالثة بعنوان «يا خائنة»، كان واضحًا أنَّه متأثر بيوسف وهبي، أو يوسف وهبه كما كتبها هو بالفعل في الكتاب. وحبكت معي النكتة فكتبت مقدمة للكتاب من نوع «هذا الكاتب المتقدم على الفصيلة الأولى مترنحًا على الأفق، منسابًا نحو الأعلى متضاربًا مع المجموعة الأولى في سبيل الحنجوري المتدافع في الشنجوري المتألق على قفا الشفق»! وتصوَّرت أنَّ الكاتب إيَّاه عندما يقرأ مُقدِّمتي سيُدرك أنَّني كاتب عابث بقدر ما هو كاتب هايف وسيُلقي بالمقدمة في سلة المهمَلات. ولكني فوجئت بعد أيام بالكتاب يُباع في الأسواق، وبمقدمة للأستاذ الكبير محمود الصعيدي عضو جماعة كبار الأدباء، وكنت قد انتحلت هذا الاسم لنفسي. ووقعت نسخة من الكتاب في طريق كامل الشناوي فكانت فاتحة خير للكتاب. تولَّى كامل الشناوي الدعاية للكتاب باعتباره مهزلة العصر فنفدت جميع النسخ من الأسواق في أيام. وساعد على ذلك أنَّ يوسف السباعي كتب مقالًا شرح فيه قصة الكتاب والمقدمة بعنوان «مطلوب قانون لحماية المُغفَّلين من محمود السعدني.»

ولكن محمود شعبان الفلَّاح لم يجد في الكتاب مهزلة عصرية كما رأى كامل الشناوي، ولم يرَ في المؤلف الشاب مُغفَّلًا كما رأى يوسف السباعي، فقد كان يعتقد أنَّه مؤلف سيئ الحظ، وأنَّ الكتاب مجرد محاولة رديئة لكتابة القصة، وسارع بالاتصال بالمؤلف وساعده ماديًّا على إصدار كتابه الثاني والأخير! ولم يقطع شعبان جذوره بالقرية التي أنجبته، كان يُحيي ليالي المولد في القرية، ويُساهم في أفراح الفلَّاحين، ويسعى لتوظيف البعض، وفي حل مشاكل الري والزراعة والعلاج والتعليم! وعاش شعبان يسعى كمؤسسة بمفرده، وربَط خيوطه بالجميع دون أن يتأثَّر بأحد أو يتبع خطوات أحد. ولم يُحاول مرة واحدة أن يتدخَّل في شئون أحد لا بالزجر ولا بالنصيحة، وتوقَّف دوره عند حد المساعدة والتدعيم. ذات مرة اضطر أن يدفع مبلغًا كبيرًا من المال لإحدى السيدات حتَّى لا تتقدَّم بشكواها إلى جهات الاختصاص ضد أديب مشهور بنزواته الغرامية. كانت السيدة المجني عليها فقيرة وجاهلة أيضًا. وكانت تعمل في حياكة الملابس المسرحية في مسرح صغير حين التقت

بالأديب إيَّاه. وبالطبع نقلها الأديب المشهور إلى عوالم أخرى جديدة وباهرة، وجُنت المرأة التي كانت في الأربعين من عمرها وتجيد صنع «المحشي» … جُنت بالكلمات السحرية التي كان يهمس بها في أذنها عن الأغوار السحيقة في عينيها، والأحلام الدافئة التي تشعها لمن يقترب منها، وعن الموسيقى التي تختلط وتنبعث من صوتها، بينما كان صوتها يُعاني من بحة على أثر برد مزمن وقديم. فطلَّقت المرأة زوجها وتخلَّت عن أولادها وباعت مصوغاتها في سبيل الفارس الجديد. ثمَّ تبخَّرت الأحلام فجأة، فإذا بالأديب فص ملح وداب، وإذا بقصة الحب الخالدة تموت بالسكتة فجأة. ولجأت المرأة إلى كل أصدقاء الأديب؛ فمنهم من نصحها بالصبر، ومنهم من وبَّخها بقاسي الكلام، ومنهم من حرَّضها على الأديب إيَّاه، ولكن شعبان رد للمرأة مصوغاتها، وكان هذا عاملًا مهمًّا في تجميد الموقف عند هذا الحد. ولَمَّا سألت محمود شعبان: هل فاتح الأديب إيَّاه في الموضوع، نفى ذلك بشدة، وسألني: ولماذا أُفاتحه؟ قلت: لعله يكف عن هذا الطريق! قال شعبان في هدوء: ولماذا يكف؟ إنَّ هذه هي طبيعته، وكل مُيسَّر لِمَا خُلِق له، وهو يفعل ما يُسعده، وليس هناك فائدة تُرجى من نُصحه، فهو ليس شابًّا في بداية العمر، إنَّه رجل في نهاية الرحلة، ثمَّ ما جدوى أن يُغيِّر من عاداته السيئة الآن وقد فات الأوان؟!

منطق الريفي صاحب التقاليد والأصول، يتدخَّل للمساعدة فقط، ولستر العورات فقط، وليس للمنظرة أو الدخول في الصورة أو كسب أصوات الناخبين! ولكن الغريب في الأمر أنَّ الأديب الريفي الذي يعرف الأصول فُرضت عليه عزلة قاتلة في أيام العيب وأخلاق القرية. اختفى الأُصَلاء فاختفى معهم، وغاب المعدن الحقيقي فكان لا بد أن يغيب، وطغى على سطح الحياة شوائب ونوائب، وفي كل مجال؛ توفيق عبد الحي في عالم التجارة، والكفراوي في عالم التهليب، وأحمد عدوية في دنيا التطريب، وأصبح علي برعي هو الكاتب والأديب. ولم يجد شعبان بُدًّا من الاختفاء، احتمى بقريته في آخر الأمر، واكتفى بكتابة برامج دينية للإذاعة بين الحين والآخر. ظاهرة تُثبت أنَّ الذين رفعوا الشعارات لم يكن لهم أي صلة بها، ولم يكن لديهم إيمان بأي شيء على الإطلاق. لقد كانوا يُرددون الشعارات ويفعلون غيرها، فخلت مصر من كل قيمة، وجفَّت من كل تيار إلَّا تيار الاسترزاق، ودخلت في نفق مظلم، وفي الظلام تستوي الأشياء، ويُصبح كل شيء مثل أي شيء. واختفى من مصر زكريا الحجاوي بالموت، وأنور المعداوي بالقهر، وفتحي رضوان بالسجن، واختفى معهم أيضًا محمود شعبان، اختفى وتوارى عن الأنظار إحساسًا منه بالحزن لِمَا يجري أمامه وشعورًا منه بالأشياء التي تُلطِّخ وجه الحياة.

ولقد آن لمصر الآن أن تُلملم أبناءها وأن تضمهم تحت جناحها، وأن تنشر الدفء والضياء في كل اتجاه، وآن للطيور المهاجرة أن تعود، الذين اغتربوا في الخارج، أو الذين اغتربوا في الداخل أيضًا، وما أبشع الغربة داخل الأوطان! ما أبشع غربة محمود شعبان الأديب الفلَّاح الذي يعرف العيب وتمسَّك بأخلاق القرية!

مُحارب بلا سلاح!

أول مرة رأيت فيها الخميسي كانت في الأربعينيات ... حضر إلى قهوة عبد الله ذات مساء، وقضى السهرة في ركن أنور المعداوي، وأشاع جوًّا من البهجة والمرح، وعزم الشلة كلها على العشاء، ومنح جرسون القهوة مبلغًا كبيرًا من المال، ودسَّ في يد الولد الذي قام بتلميع حذائه جنيهًا كاملًا، وأعطى عبادة مجنون قهوة عبد الله مبلغًا من المال اكتشفنا في الصباح أنَّ المبلغ كان خمسة جنيهات صحيحة ... المهم أنَّه غادر المقهى في ساعة متأخرة من الليل وقد وهب السعادة للجميع، حديثًا، وطعامًا، وهبات.

وغاب الخميسي طويلًا عن قهوة عبد الله، وعرفت من زكريا الحجاوي أنَّه عاد إلى مقر عمله في فلسطين، فقد كان يعمل في إذاعة الشرق الأدنى مع مجموعة من الفنانين والمثقفين العرب من بينهم: سامي داود، وسيد بدير، وسليم اللوزي، وعميد الإمام.

ولم ألتقِ بالخميسي بعد ذلك، إلَّا في جريدة الكتلة وكان قد بدأ ينشر فيها قصصًا من تأليفه شدتنيِ إليها كثيرًا، فقد كانت مختلفة عمَّا ينشره محمود كامل ومحمود تيمور، كانت شخوص قصص الخميسي أكثر حياة وأحداثها أكثر حرارة، وكان أسلوب الخميسي نابضًا بالحياة، موسيقيًّا وشاعريًّا وأشبه ما يكون بأسلوب كاتب فرنسي من العصر الرومانسي ... الساحر الغامض المثير!

وأحببت الخميسي منذ أول لقاء، كان نموذجًا للفنان الذي رسمته في خيالي، كان شديد الزهو، شديد البساطة، وعظيم الكرم، دائم الفلس، وكان يمشي دائمًا في الطريق يتبعه أكثر من شخص يلازمونه كظله، ويطيعون إشارته، وكان حريصًا على أن يرتدي ملابس أنيقة وغالية الثمن، وعلى العموم كان الخميسي في مظهره وسلوكه يختلف عمَّن عرفت من الشعراء والأدباء والفنانين. وأحببت الخميسي من أول لقاء، ولكن صلتي به لم تتوثق إلَّا بعد ذلك اللقاء بمدة طويلة، قدَّمني له زكريا الحجاوي وهو جالس مساءً

في جريدة «المصري» وناقشني في بعض ما عرضته عليه من كتابات وكان ودودًا للغاية، وأبدى اهتمامًا شديدًا بي، وبما كتبت، وكأنَّه صديق انقضت على صداقتنا أكثر من عشر سنوات.

ولم تمضِ أيام قليلة على معرفتي به حتَّى كنت قد عرفت قصة حياته كاملة، وأدق أسراره، وتفاصيل مشاكله، وأحسست بصدقه، ومسح بحديثه على جروح في نفسي؛ فقد كانت نشأته الأولى شبيهة بنشأة العبد لله، وبقدر ما مسح حديثه من جروح في نفسي، بقدر ما أمدني بشحنة هائلة من التفاؤل والأمل، وإذا كان الخميسي — ورغم كل هذه الظروف — استطاع أن يقهرها ويطفو على السطح، فحتمًا سيكون في مقدوري أنا الآخر أن أصل يومًا ما إلى ما وصل إليه الخميسي من مكانة وشهرة وانتشار.

كان الخميسي في ذلك الوقت الذي حكى لي فيه قصة ضياعه وتشرده في البلاد، وهروبه من مدرسة المنصورة الثانوية بحثًا عن نفسه وعن فنه في عاصمة فرعون، أقول: كان الخميسي واحدًا من أشهر الكُتَّاب في مصر على الإطلاق — إن لم يكن أشهرهم — كان ينشر قصصًا مسلسلة في جريدة المصري، واستطاع بقصصه أن يرفع توزيع الجريدة إلى ما فوق المائة ألف نسخة، وعندما دخل معركة مع محمد التابعي — وكان عميد كُتَّاب الصحافة المصرية وقتئذ — استطاع الخميسي أن يقهر التابعي وأن ينتصر عليه، وكان يتقاضى مُرتبًا عن عمله في جريدة المصري يسيل له لعاب كل الأدباء الجالسين على قهوة عبد الله، وكان لا يتردَّد على قهوة عبد الله كل ليلة، ولكنَّه كان يسهر كل ليلة من ليالي الأسبوع مع شلة مختلفة، وكانت كل الشلل خليطًا من الكُتَّاب والشعراء والفنانين، وكان حريصًا على أن تظل صلاته بالجميع موصولة، فهو يتردَّد على الدكتور لويس عوض بين الحين والآخر، ويُفاجئ نبوية محمد أحيانًا بالزيارة، ويحرص على رؤية الشُّجاعي وعبد الحليم نويرة.

وبقدر استمتاع الخميسي بالسهر مع الأحبة والخلان، كان حريصًا أيضًا على إنجاز ما عليه من أعمال. كان يتولَّى بنفسه تصحيح قصصه في المصري، وكان يقضي الساعات الطوال في استوديوهات الإذاعة يعد بنفسه برنامجه الأسبوعي الذي كان يتناول بالعرض والتحليل قصص مشاهير وأعلام الموسيقى في التاريخ، وكان برنامجه الموسيقي من أعظم البرامج التي قدَّمتها إذاعة مصر في تلك السنين. وعندما قامت الثورة أيَّدها الخميسي بحماس واعتبر نفسه واحدًا من رجالها، ويبدو أنَّ الثورة التي غيَّرت نمط الحياة في مصر غيَّرت الخميسي أيضًا، فتحوَّل من كتابة ألف ليلة وليلة إلى كتابة قمصان الدم!

كانت قصص الخميسي الجديدة مختلفة تمامًا عن قصصه القديمة، وامتلأت قصصه الجديدة بنماذج من عامة الناس، وأصبحت البطولة في قصصه للرجال العاديين، واختفى قصر السلطان وحلَّ محله الشارع والمقهى والدكان، وانحاز الخميسي إلى الضعفاء من الناس والمستضعفين من البشر، واختفت من ثنايا سطوره شاعريته القديمة، وعذوبة أسلوبه.

هجر الخميسي الشعر، وأقلع عن الغناء، وصار رجلًا واقعيًّا، وتحوَّل من كاتب تقليدي إلى مناضل من طراز خاص، وانتهى به الحال إلى دخول السجن، وغاب الخميسي خلف الأسوار ثلاث سنوات، ثمَّ عاد وانضم إلينا ككاتب بجريدة الجمهورية، ولكن الخميسي الذي جاء بعد السجن كان شخصًا آخر يختلف، صار أكثر حذرًا، وأقل جهدًا. وتصوَّرت أنَّها خطة من الخميسي لكي ينجو بنفسه من رقابة العسس، ويختفي بنفسه عن عيون البصاصين، ولكن يبدو أنَّ تجربة السجن كانت مريرة إلى الحد الذي أحدث شرخًا في نفس الخميسي، لم يعد يُبالي كثيرًا بنشر إنتاجه على الناس، وتحوَّل من الشعر التقليدي إلى الشعر الحديث، ولكن شعره الجديد لم يكن في مستوى شعره القديم، وسرعان ما هجر الشعر والقصص، وألقى بنفسه في بحر المسرح، كتب أوبريت «مهر العروسة» وانشغل بها أيَّما انشغال، وفرض نفسه على العمل المسرحي، يُشارك في الإخراج والموسيقى، وانتهى به الحال إلى خلاف حاد مع الموسيقار محمود الشريف، الذي ترك العمل في الأوبريت وحلَّ الموجي محله. وعندما ظهرت «مهر العروسة»، على المسرح، وبعد شهور طويلة من الإعداد، بدا واضحًا بصمات الخميسي على العمل كله، ولاقت الأوبريت نجاحًا كبيرًا، وتألق الخميسي أثناء عرض المسرحية، ثمَّ عاد إلى بياته الشتوي من جديد.

وغرق الخميسي في حب جديد، وخُيِّل إلى أصدقائه أنَّه انشغل بحبه الجديد عن أي شيء وكل شيء، ولكن الخميسي، الذي لا يقهره شيء ولا يمكن لشيء أن يستحوذ عليه، انفجر من جديد، وفي الإذاعة هذه المرة وبرواية شغلت مصر شهرًا بأكمله؛ لدرجة أنَّ شوارع القاهرة كانت تضيق بالمستمعين لحظة إذاعة حلقة من رواية «حسن ونعيمة» التي كانت بحق أعظم ما قدَّمت الإذاعة من مسلسلات في حقبة الخمسينيات. وعاد الخميسي إلى تألقه من جديد، وكأنَّما نجاح المسلسل قد حفزه على العودة إلى الأضواء، فقرَّر أن يسبح في التيار الجديد، ولكنَّه اختار المسرح هذه المرة ليعاود نشاطه الفني، فكوَّن فرقة مسرحية، واستعان بعدد من الشُّبَّان، صار لبعضهم شأن عظيم بعد ذلك: عادل إمام، وسعاد حسني، وصلاح السعدني، وحلمي هلالي، والشقيقان أبو الفتوح وفاطمة عمارة.

ولكن سرعان ما تلبَّدت غيوم السياسة على الساحة العربية، وناصبت بغداد القاهرة العداء، ولم تكن القاهرة عاصمة مصر وقتئذ، ولكنَّها كانت عاصمة الجمهورية العربية المتحدة. وانفتحت أبواب السجون والمعتقلات من جديد واختفى داخلها مئات من شباب مصر، صحفيين وأدباء وكُتَّاب وفنانين، وآثر الخميسي أن يُوقف نشاطه المسرحي، واختفى فترة، ليظهر من جديد في أحد استوديوهات السينما، ليُقدِّم «حسن ونعيمة» على الشاشة، مُكتفيًا بدوره كمؤلف وكمكتشف لاثنين من الوجوه الجديدة، سعاد حسني التي تربَّعت على عرش السينما فترة طويلة من الزمان، ومحرم فؤاد الذي لمع فترة كمطرب ذي صوت متميز، ثمَّ لم يلبث أن أصابه البَهتان بعد حين، كان العبد لله من بين الذين غابوا وراء الأسوار فترة امتدت عامين بالكمال والتمام، وعندما خرجت من السجن كانت أشياء كثيرة قد تغيَّرت من القاهرة، فانهدمت قهوة عبد الله، وانزوى أنور المعداوي في مقهى ديانا بالدقي، وانشغل زكريا الحجاوي بالفن الشعبي، وسرح وراء أولاد «رمز» في البراري والحقول، وتفرَّغ نعمان عاشور للمسرح وغرق فيه، واشتغل يوسف إدريس بالسياسة حينًا، ثمَّ عاد إلى كتابة القصة من جديد، وبحثت عن الخميسي وعثرت عليه ... في مكتب صغير بعابدين، واستقبلني بحفاوة، وهوَّن على نفسي أيام السجن الكئيبة، وألحَّ عليَّ في أن أشترك معه في مسرحه، وطلب مني أن أُكمل روايتي «عزبة بنايوتي»، وكنت قد فرغت من كتابة فصلها الأول، قبل أن أذهب في رحلة الأغلال والقيود، وأمدَّني الخميسي بطاقة هائلة، وخرجت من عنده إلى منزلي وعكفت على كتابة الفصل الثاني من المسرحية التي قُدِّرَ لها أن تظهر بعد ذلك على مسرح الخميسي من إخراج الخميسي وبطولة الخميسي، وأحدث ظهورها على المسرح دويًّا هائلًا، وعُرضت في مصر عدة سنوات، وشهدها الملايين من شعب مصر، من أسوان وحتَّى العريش.

وعلى خشبة المسرح وجد الخميسي نفسه، ولأول مرة في حياته يخضع ويمتثل! كان أول من يحضر وآخر من ينصرف. وكانت مسرحية ... «عزبة بنايوتي» ... من تأليفي ومن إخراج وبطولة عبد الرحمن الخميسي.

والحق أقول: إنَّ الخميسي كان يُمكن أن يتألَّق كمُخرج مسرحي لو أنَّه سلك هذا الطريق؛ فقد أضاف إلى النص بإخراجه أبعادًا جديدة ... وأثرى فهمه للنص جو المسرحية وبروز شخصياتها العديدة، واستطاع المخرج الخميسي أن يصنع نجومًا من شباب حديث السن يضع قدمه لأول مرة على خشبة المسرح. وكان دور «القلش» هو أعظم دور لعبه أبو الفتوح عمارة في حياته بالرغم من أنَّه ازدهر واشتهر بعد ذلك.

وكان مسرح الخميسي هو الذي لفت أنظار الحكومة إلى خطورة الدور الذي يمكن أن يقوم به المسرح، وأقطع بأنَّه كان السبب في إنشاء مسارح التليفزيون التي أسَّسها أمين حمَّاد، ثمَّ نسب الفضل بعد ذلك إلى غيره من الدكاترة!

وكانت فرصة كبيرة عندما طفت ريف مصر وصحاريها مع مسرح الخميسي نعرض «عزبة بنايوتي» على الجماهير، أحيانًا في مسارح، وأحيانًا في الحقول، وأحيانًا أخرى في سرادقات أُقيمت خصيصًا لهذا السبب. ولم أرَ الخميسي في حياتي متألقًا وراضيًا وسعيدًا كما رأيته في تلك الفترة التي امتدت حوالي العام. كان يُحب الصياعة، وقد بدا مسرورًا لهذه الرحلة التي جمعته مع فرقة من الصياع! وكان يعشق الريف، وخصوصًا في لحظات الفجر، وهو الوقت الذي يتأهب فيه الخميسي للنوم. وقد عاش تلك اللحظات كثيرًا خلال عام التجوال.

واكتشفت شجاعة الخميسي خلال رحلة المسرح، لم تقف في طريقه عقبة، ولا صده عن هدفه حاجز. ذات مساء غاب ممثل ولم يحضر في موعده. واقترحت على الخميسي تأجيل العرض تلك الليلة، ولكنَّه أطرق قليلًا، ثمَّ طلب مني الصعود على المسرح لأداء الدور باعتباري المؤلف وأحفظ المسرحية عن ظهر قلب. ورفضت في البداية، ثم وافقت. ومرت الليلة بسلام رغم ارتباكي على المسرح. وذات مساء اكتشف المنظمون للحفل صعوبة إقامة مسرح، ولكن الخميسي وجد الحل. وقدَّمت الفرقة المسرحية على مصطبة فسيحة من مصاطب القرية.

كان الخميسي في تلك الأيام في حالة حب، كان غارقًا لشوشته في حب فاتن الشوباشي، نجمة الفرقة ... وزوجته فيما بعد. وأعتقد أنَّ فاتن الشوباشي كانت حب الخميسي الوحيد خلال حياته الطويلة. وأعتقد أنَّ هذا الحب كان سر الالتزام والنشاط والإقبال الشديد على الحياة.

ولكن حماس الخميسي للمسرح وللفرقة فتر بعد زواجه من فاتن. وتعلَّق الخميسي بالموسيقى فجأة، وانهمك في دراسة النوتة الموسيقية، وانشغل في دراسة العزف على البيانو. وانتهى خلال وقت قصير من تأليف ثلاث قطع موسيقية سجَّلها على أسطوانات وباعها لشركة من شركات القطاع العام. ولكن موسيقاه لم تكن في مستوى الفنون الأخرى التي أبدعها الخميسي. واضطر إلى هجر الموسيقى بعد أن تولاه كامل الشناوي بتشنيعاته.

وقد روى كامل الشناوي أنَّ الخميسي دعاه لسماع أسطوانة لومومبا ... وكان شهيد أفريقيا قد لقي مصرعه على يد قوات موبوتو منذ وقت قصير. وجلس الشناوي وأصدقاؤه

يستمعون إلى موسيقى «لومومبا» بينما الخميسي يشرح لهم بعض الحركات الموسيقية في القطعة. فهذه الجملة الموسيقية تشرح بداية مجد «لومومبا»، وهذه تعكس كفاح «لومومبا» بين صفوف شعبه، وهذه تحكي مدى المعاناة التي لقيها أثناء فترة كفاحه ... ثمَّ انتصار «لومومبا» ووصوله إلى السلطة، ثمَّ المؤامرة ضده، وانتصار الثورة المضادة، ثمَّ مصرع «لومومبا» في النهاية!

ويحكي كامل الشناوي وهو يضحك ضحكته العالية: «وعندما انتهت الموسيقى انبعث من الأسطوانة صوت المذيع يعلن: والآن استمعتم إلى قطعة موسيقية من تأليف الأستاذ عبد الرحمن الخميسي بعنوان شارع الهرم!» وكان الخميسي هو مؤلف القطعتين، وأخطأ عند وضع الأسطوانة، فوضع «شارع الهرم» بدلًا من «لومومبا»، ولكنَّه لم يُفرِّق بين القطعتين!

وسواء كانت تشنيعة كامل الشناوي حقيقة أم مجرد افتراء، إلَّا أنَّها كانت تعكس حقيقة موسيقى الخميسي. فلم يكن الخميسي مؤلفًا موسيقيًّا، وإن كان من أكثر الناس تذوُّقًا لها. وهجر الخميسي الموسيقى واتجه إلى السينما ... مؤلفًا ومخرجًا وواضعًا للموسيقى التصويرية وكاتبًا للسيناريو والحوار! وأخرج الخميسي فيلمه الأول «الجزاء»، وهو فيلم وطني جيد لولا فقر الإنتاج. فقد ظهر في الفيلم عساكر إنجليز في لون أهل النوبة! وعندما أبديت ملاحظتي للخميسي، كان جوابه: مفيش فلوس!

ولكن الفيلم رغم فقر الإنتاج كان جيد الإخراج، والقصة كانت من النوع الذي تتحاشاه السينما المصرية ... فهي عن كفاح الشعب المصري ضد الاحتلال. وكان هذا أفضل أفلام الخميسي؛ لأنَّ فيلمه «عائلات محترمة» كان أشبه بأفلام حسن الإمام. أمَّا فيلم «زهرة البنفسج» والذي قام عادل إمام ببطولته، فقد عُرِضَ في دار للسينما لمدة ثلاثة أيام فقط لا غير!

لم تكتمل تجربته السينمائية. وتوقَّفت لأسباب في الخميسي نفسه. فالوقت في السينما قيمة كبرى. وهو يُتَرجَم إلى فواتير تُضاف إلى حساب الإنتاج. والمُنتِج الجيد هو الذي ينتهي من إعداد الفيلم في فترة معقولة. ولكن لأنَّ البساط أحمدي عند الخميسي، فقد استغرقته الديون. وامتنع كبار الممثلين عن العمل معه. والسبب أنَّ الخميسي ليس تاجرًا، ولكنه فنان. وهو يُريد أن يُنتج أفلامًا ويعيش حياته في نفس الوقت. وهي معادلة صعبة فشل الخميسي في تحقيقها. وخرج من مولد السينما بفيلم جيد، وفيلم هزيل، وفيلم سيئ للغاية!

وعاد الخميسي من جديد عند مفترق الطرق لا يدري أين المسير ... والمصير! وفجأة هزَّته فاجعة رهيبة، هي وفاة زوجته فاتن في حادث أليم. ولا أعتقد أنَّ الخميسي اهتز في حياته إلَّا مرتين: مرة عندما خاض تجربة السجن، ومرة عندما واجه كارثة وفاة فاتن.

ولا أقصد أنَّ السجن هزَّ الخميسي بأن خلع قلبه من مكانه، بالعكس ... لقد كان الخميسي ثابتًا طوال فترة السجن، وواجه المحنة بشجاعة وصمد لها حتَّى النهاية؛ ولكن السجن ترك في نفس الخميسي أثرًا لا يُمحى. وكان يُردِّد دائمًا بمناسبة وبلا مناسبة: «كل شيء مكلبش في السجن يا ابني؛ الشمس مكلبشة، والنهار مكلبش، والهواء مكلبش، والحياة كلها مكلبشة!» وظلَّ بعد السجن يضيق بالجلوس في الأماكن المغلقة والأماكن الضيقة. وكان يحب الخلاء والهواء الطلق والبيوت الفسيحة.

وكانت فاجعة موت فاتن أقسى على نفسه من أي حادث وقع له في الحياة. انطوى الخميسي على نفسه فترة من الوقت، وتفجرت في داخله ينابيع الشعر بعد أن خُيِّل للناس أنَّها جفت. وكانت قصيدته في فاتن الشوباشي هي أعظم ما كتب بعد شعره الرومانسي الحالم القديم. كانت قصيدة شاعر حزين ومكلوم بالفعل. وإذا كانت النظرية تقول: «إنَّ أجمل الشعر أكذبه» ... فقد أثبت الخميسي العكس، وأكَّد على أنَّ ... أجمل الشعر أصدقه!

ولكن لأنَّ الخميسي قوي، وحبه للحياة أكبر من أي حب وأبقى من أي حب، فقد تغلَّب على المحنة بعد فترة، ومارس تجربة الشعر، فنه الأول والأصيل؛ ولكن شعره الجديد كان يختلف عن شعره القديم كل الاختلاف. كان شعرًا منثورًا أقرب إلى الشعر الأفرنجي منه إلى الشعر العربي. كان شعرًا فاقد الروح والحرارة. وكان الخميسي يؤرِّخ به لأحداث يومية. وكان يحتل في خانة الشعر المعاصر مكانًا في الذيل.

ومن هنا بدأت مأساة الخميسي!

فقد سبقه في هذا اللون من الشعر فرسان احتلوا ذُرَى عالية وقممًا شاهقة. كان هناك صلاح عبد الصبور، وحجازي، وأمل دنقل. فانصرف الخميسي بكل مواهبه الاجتماعية لينقل شعره إلى العالمية. ونجح في ترجمة شعره إلى لغة أجنبية. واهتمَّ به بعض المستشرقين وبعض هواة الأدب العربي من الخواجات، وتخصَّص بعض التلاميذ في معاهد موسكو وبرلين في دراسة أدب الخميسي وشعر الخميسي، وتخصَّص بعضهم في الخميسي نفسه، وحصل طلبة من هؤلاء على درجة الدكتوراه في الخميسي وأدبه.

واستهوت الحركة الجديدة الخميسي، فانحاز بشعره إلى العمل السياسي من أجل التقدُّم والتطور والسلام. ولم يُعجِب السلطة الحاكمة الموقف الجديد للخميسي، فبدأ

الحصار. وأحسَّ الخميسي بأنفاس العسس ووقع خطوات المخبرين. وشعر بأنَّ قضبان السجن تطبق عليه ... ففرَّ هاربًا ولجأ أول الأمر إلى بيروت.

والحق أقول: إنَّ الخميسي كان من أشد الناس ثورة على الأوضاع المتردية في مصر في السبعينيات. ولذلك كان خط الرجعة إلى مصر مقطوعًا أمامه ... وكان المنفى مفروضًا عليه؛ ولكن لأنَّ الخميسي كان له رأي في لبنان، وكانت له قصيدة شهيرة في وصف بيروت، حيث كل شيء معروض للبيع، فقد غادر الخميسي بيروت ذات يوم واختار بغداد منفًى له.

وهكذا أصبح الخميسي منفيًّا، وصار قدره أن يعيش خارج مصر ... وهو الأمر الذي لم أكن أتصوَّره، ولا أعتقد أنَّ الخميسي كان قادرًا على تحمُّله، ولكن هكذا شاءت الأقدار ... الخميسي في المنفى، وبعيدًا عن مصر!

وقصة حياة عبد الرحمن الخميسي واحدة من أعجب وأغرب قصص الفنانين والشعراء في تاريخ مصر، ولكن الباحث المُدقِّق سيكتشف أنَّ تاريخ مصر الأدبي والفني، حافل بقصص كثيرة من هذا الطراز مع اختلافات في التفاصيل وفي النهايات. فعبد الرحمن الخميسي هو ابن سيبويه المصري الذي كان يركب حماره بالمقلوب ويطوف في الأسواق ويهجو الشعراء المعاصرين ويرميهم بأشنع التهم ويصفهم بأقذع الألفاظ، وهو عبد الله النديم لو كانت الظروف مناسبة والريح مواتية، وهو بيرم التونسي لو كانت القضية في زمنه هي المحتل المستعمر والاستقلال التام أو الموت الزؤام!

وعلى أيَّة حال، ستجد في الخميسي شيئًا من كل هؤلاء، وستظل من أبرز حسناته اهتمامه بالزهور الجديدة والمواهب الصاعدة، فهو الذي اكتشف سعاد حسني وكانت مجرد طفلة لا تعرف القراءة والكتابة، وهو الذي جاء بمحرم فؤاد وانتشله من شارع محمد علي إلى الشهرة والأضواء.

وهو الذي وقف إلى جانب عادل إمام، وصلاح السعدني، وفاطمة عمارة، وفاتن الشوباشي، ومحسنة توفيق، وكان له الفضل في الأخذ بيد عبد الرحمن شوقي، ويوسف إدريس، وعشرات آخرين اختلفت حظوظهم وتشعَّبت المسالك بهم في الحياة.

ولكن عيب الخميسي أنَّه كان لا يستمر، كان يرعى الموهبة ثمَّ ينساها فجأة وينشغل بشيء آخر، وكانت هموم الحياة ومطالبها وكثرة العيال والأتباع هي التي تفرض عليه الهروب أحيانًا من مكان إلى آخر، والقفز أحيانًا من عمل إلى آخر، ولعل عدم الاستقرار

كان هو الصفة التي لازمت الخميسي منذ نشأته وحتَّى الآن. حتَّى البيوت التي سكن فيها تنوَّعت أحياؤها حسب الظروف والأحوال. ذات مرة كان يسكن في عمارة شاهقة تطل على حديقة الأزبكية، وكان في الشقة شرفة واسعة يحلو للخميسي أن يجلس فيها في ليالي الصيف، وذات ليلة مقمرة جذبني الخميسي من يدي ووقف ينظر إلى الحديقة، وقضى وقتًا طويلًا وهو صامت لا يتكلَّم، وفجأة، قال لي وهو يضغط على ذراعي: «شايف الجنينة دي!» «وشايف الدكة اللي هناك! أنا نمت عليها كتير … وكانت برد، لا غطاء ولا أكل ولا مستقبل ولا أي شيء!»

ولم ينتظر مني ردًّا أو تعليقًا، تركني عند حافة الشرفة وعاد إلى مكانه الذي اعتاد أن يجلس فيه، وخُيِّل إليَّ أنَّ الخميسي كان يُحدِّث نفسه ولا يتحدَّث معي، وظننت أنَّه اختار هذه الشقة بالذات لأنَّها تطل على هذه الحديقة، وعلى هذه الدكة، ولكن ظني لم يكن في محله، فلم يلبث أن هجرها وذهب إلى حي السيدة زينب وسكن في عمارة حديثة هناك، وقضى في هذه الشقة سنوات قبل أن يهجرها إلى شقة أخرى في حي عابدين تطل على قصر عابدين، ولكنَّه سرعان ما تركها، وذهب ليعيش في شقة في حي «معروف» على مقربة من نقابة الصحفيين، ثمَّ تركها هي الأخرى إلى شقة أخرى في شارع عدلي، وهي الشقة التي قضى فيها أيامه الأخيرة في القاهرة قبل أن يغادرها إلى بلاد الله.

ولعل علاقة الخميسي بالشقق تعطينا فكرة عن علاقة الخميسي بالناس وبالأشياء. فهو يتعلَّق بشلة ثمَّ يختفي فجأة ليظهر في شلة جديدة، وقد ينغمس في عمل ما حتَّى يُخيَّل إليك أنَّ الخميسي لا بد غارق فيه إلى النهاية، وفجأة يهجر الخميسي العمل لينغمس في عمل آخر بنفس الحماس ونفس النشاط. وهو في هذا الأمر يختلف عن زكريا الحجاوي مثلًا، الذي عاش في الجيزة حياته كلها، ورفض أن يغادرها بعد أن انهار بيته، ورفض شقة عرضوها عليه في مدينة نصر قائلًا: «يُمكنني أن أمتلك شقة في مدينة نصر ولكنِّي لا أستطيع أن أسكن فيها، لأنَّ مدينة نصر هي مقبرة للأحياء.»

وهو أيضًا يختلف عن عبد الحميد قطامش، الذي عاش ومات في شقته بالسيدة زينب، ويختلف عن طاهر أبو فاشا الذي عاش العمر كله — ولا يزال — في شقته في حي الحسين. وحتَّى عندما غادر الخميسي مصر إلى الخارج، عاش الخميسي في بيروت فترة ثمَّ تركها وذهب إلى بغداد، وعاش فترة طويلة في بغداد كان فيها زينة المحافل الفنية والأدبية، ولكنَّه لم يلبث أن غادر بغداد إلى غير عودة، وذهب ليعيش في أوروبا حيث هو الآن.

وأيًّا كانت الأسباب التي من أجلها ترك الخميسي بيروت إلى بغداد ثمَّ ترك من أجلها بغداد إلى أوروبا، فإنَّها حتَّى لو لم تكن موجودة لاختلقها الخميسي اختلاقًا، فالاستقرار عند الخميسي يعني الجمود والموت.

وإذا كان الخميسي قد تنقَّل ببساطة بين الشقق والأحياء، فقد تنقَّل وبالبساطة نفسها بين أبواب الأدب والفن، فهو كاتب القصة القصيرة، والرواية، والمسرحية، والأوبريت، والتمثيلية الإذاعية، والرواية السينمائية، واشتغل بالإخراج المسرحي، وبالتمثيل المسرحي، وبالإخراج السينمائي والتمثيل السينمائي، كما اشتغل بتأليف الشعر، وتأليف الموسيقى، وتأليف الأغاني، وهو الشيء الذي قد يجهله أغلبية القراء. ولقد شاعت للخميسي أغنية للمطربة مها صبري يقول مطلعها «ما تزوَّقيني يا ماما، دا عريسي هياخدني بالسلامة.»

وهناك عشرات من الأغنيات التي ردَّدها الشعب المصري في فترة الثلاثينيات وبداية الأربعينيات كانت من تأليف الخميسي، وإن أُذيعت بأسماء مؤلفين آخرين. ولقد ذكر لي الخميسي يومًا ما أنَّه عندما جاء إلى القاهرة قادمًا من المنصورة وجد نفسه ضائعًا في المدينة الكبيرة، كانت القاهرة أكبر من إمكانياته، وإن كانت أصغر من طموحاته، ولكن الطموحات لا تُفيد مع واقع يومي لشاب ريفي يريد أن يعيش ويحتاج إلى مأكل وملبس ومسكن، وكان على الخميسي أن يتصرَّف. كان يقضي أغلب أوقاته على مقهى في حي الحسين، وعلى غير ميعاد جاءه مؤلف أغاني شهير وكان قد سمع بموهبة الخميسي وقدرته على تأليف الأغاني، ولم يستغرق الاتفاق بينهما سوى دقائق معدودة، الخميسي يُؤلِّف والشاعر الشهير يبيع باسمه ويتقاسمان الثمن.

ولا أعتقد أنَّ الاتفاق بين الشاعر المغمور والشاعر المشهور قد تمَّ بحذافيره، صحيح أنَّ الخميسي ألَّف، وصحيح أنَّ الشاعر المشهور باع، ولكن الثمن الذي تقاضاه الخميسي عن تلك الأغنيات كان شيئًا ضئيلًا بالنسبة لما دخل جيب الشاعر المشهور، ولكن الخميسي كان راضيًا على أيَّة حال، فهو يستطيع الآن أن يتنقَّل في المدينة وأن يسهر وأن يقرأ، ويستطيع أيضًا أن يُواجه مطالب الحياة. وفي فترة أخرى من فترات حياته اضطر الخميسي إلى الاشتغال كممثل في فرقة مسرحية متجولة، كان يُشرف عليها فنان شعبي أصيل هو أحمد المسيري، ولعل هذه الفترة كانت أخصب فترة في حياة الخميسي، فقد طاف الريف المصري في فرقة مسرحية كان لها تقاليد وطقوس، وصاحبها «أحمد المسيري» كان فنانًا حقيقيًّا، يُؤلِّف المسرحيات المرتجلة ويؤدي أدوار البطولة، ويُؤلِّف الأغاني لنفسه وللآخرين.

يُحكى أنَّه كان يجلس على مقهى في شارع عماد الدين أثناء الحرب العالمية الأخيرة، وكان عاطلًا عن العمل ويُعاني من البطالة والفَلَس، وفجأة دخل المقهى الفنان الشعبي محمود شكوكو، فنادى عليه أحمد المسيري، وسأله: معاك عشرة جنيه يا محمود؟ وردَّ محمود شكوكو: ليه؟ وقال المسيري: عندي ليك أغنية هتعمل هزة في البلد، وأخرج شكوكو الجنيهات العشرة ودسَّها في يد أحمد المسيري، فرجاه المسيري أن يجلس معه خمس دقائق فقط ليُدوِّن له الأغنية في ورقة. وفي الواقع لم يكن في رأس أحمد المسيري أي فكرة عن الأغنية التي باعها لمحمود شكوكو بعشرة جنيهات، ولكنَّه بدأ يُؤلِّف الأغنية أمام محمود شكوكو وعلى الفور، وانتهى من تأليفها بالتمام والكمال، وكان مطلعها «ورد عليك فل عليك، يا مجنني بسحر عنيك» … وقد شاعت هذه الأغنية وتردَّدت على ألسنة المصريين فترة طويلة من الزمان. وبالقطع استفاد الخميسي من تجربة أحمد المسيري، وكان الخميسي دائمًا يذكُره بالخير، ويحكي عن أيامه مع المسيري بعاطفة طيبة ومشاعر قوية، ولكن وبالرغم من كل الفنون التي مارسها الخميسي، إلَّا أنَّ الذي سيبقى من الخميسي في النهاية هو شعره العظيم القديم الذي كتبه قبل أن يتحوَّل إلى شاعر واقعي، وهو في هذا الشعر بلغ قِممًا عالية، ويقف مع علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وأحمد فتحي وغيرهم من شعراء هذه المرحلة. ويبقى معه أيضًا دوره المتميِّز في فيلم الأرض «دور الشيخ يوسف الذي شارك في معارك ثورة ١٩١٩م ثمَّ تدحرجت به الأحوال في النهاية، فافتتح لنفسه دكانًا في القرية وانضم إلى عساكر الهجانة التي جاءت لضرب الفلاحين وقهرهم، ثمَّ تطلَّع إلى منصب العمدة عارضًا خدماته على السادة الذين أذاقوا الفلاحين كل أنواع الهوان»، ولقد تفوَّق الخميسي في هذا الدور على نفسه، فقد قدَّم نموذجًا بشريًّا موجودًا بشكل أو بآخر في الحياة السياسية المصرية، وعلى طول التاريخ وخصوصًا في العصر الحديث! ويبقى منه أيضًا دور «إسماعيل بيه» في مسرحية «عزبة بنايوتي»؛ المجاهد القديم الذي واجه السجن والنفي وحبل المشنقة إبان ثورة ١٩١٩م، ثمَّ اكتشف بعد الثورة أنَّ كل شيء قد عاد إلى ما كان عليه؛ الثوار تحوَّلوا إلى وزراء، والمناضلون اشتغلوا بأعمال المقاولات، فأغرق نفسه في الوهم؛ ولكنَّه ظلَّ شوكة في جنب شقيقه حسنين بيه، الذي اشتغل مُقاولًا مع الجيش الإنجليزي، ودخل البرلمان نائبًا عن الجماهير!

وتبقى تحفته الشعبية الرائعة «حسن ونعيمة» التي أضفى عليها طعمًا جديدًا وبساطة متناهية، وقدَّم لنا لوحة ريفية باهرة ليس لها نظير. ثمَّ تبقى قصة حياة الخميسي نفسها، قصة الفنان الذي تُحاصره ظروف أقوى من إرادته، وأعتى من طاقاته،

ولكنَّه يقهرها جميعًا، ويهرب من ريف مصر إلى القاهرة المزدحمة الصاخبة، يفرض عليها نفسه بعد حين، ويفرض نفسه بعد ذلك على وطنه العربي كله، وعلى مناطق أخرى في العالم خارج وطنه.

ولقد عاش الخميسي حياته كفنان وأنتج في بعض فترات حياته فنًّا، ولو كان الخميسي تفرَّغ لفنه كنجيب محفوظ أو توفيق الحكيم، لترك لنا الخميسي مكتبة عامرة، ولكن الخميسي آثر أن يعيش حياته بفن على أن ينتج فنًّا، ولهذا قد تُصبح حياة الخميسي نفسها فنًّا تستفيد من ورائه أجيالنا الصاعدة، ولو أنَّ الخميسي تفرغ لكتابة تاريخ حياته كما حدثت وبالتفصيل، فبالتأكيد سنحصل على سيرة فنان تقترب من طفولة جوركي، واعترافات جان جاك روسو، وأيام طه حسين؛ فالظروف التي صارعها، والتجارب التي خاضها، والأهوال التي صادفها لا بد ستُنتج في النهاية عملًا فنيًّا رائعًا ومدهشًا وغريبًا. قصة فنان وحيد واجه أعداء كثيرين، ولكنَّه لم ينسحب ولم يتوارَ، بل قرَّر أن يخوض المعركة ضد الجميع، وأن يُقاتل بلا سلاح، والأغرب أنَّه انتصر!

رحلة بلا متاع!

لم ألتقِ بمحمد عودة في مقهى محمد عبد الله، ولكنِّي قابلته صدفة في مقهى آخر يقع وسط مدينة القاهرة، هو مقهى «إيزافتش» الذي كان يطل على ميدان الإسماعيلية «التحرير فيما بعد»، وكان يملكه يوغوسلافي مهاجر، فر من يوغوسلافيا، واختار القاهرة منفى له. وأسَّس محلًّا أنيقًا للغاية، واستخدم عُمَّالًا من الأجانب؛ قبارصة ويونانيين، ولكن الرجل اليوغوسلافي — وهنا العجب — قَصَر نشاط محله على بيع الفول المدمس أشهر طعام شعبي في مصر، واجتذب هذا المحل الأنيق — الذي يسبح في جو أوروبي ويبيع طعامًا شعبيًّا — فئة من المثقفين المصريين الذين تعلَّموا في الغرب ولم تنقطع جذورهم الضاربة في أرض مصر!

وكان محمد عودة واحدًا من هؤلاء الذين اختاروا من «إيزافتش» محلًّا مختارًا لهم، يجتمع بالأصدقاء، ويُدير المناقشات ويدخل في معارك نظرية، ويقرأ جانبًا من عشرات الكتب التي كان يحملها دائمًا بين يديه. ولعل اختيار محمد عودة لمقهى «إيزافتش» يرجع إلى الصفات المشتركة بين الرجل والمقهى، فمحمد عودة واحد من المثقفين المصريين الذين سبحوا في علوم الغرب، وأغلب قراءاته باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ومع ذلك لم يبحر محمد عودة بعيدًا عن شواطئ مصر، ولم تنقطع خيوطه بقاع المجتمع، في الحارة وفي القرية، بالرغم من أنَّه كان يعيش في وسط القاهرة وفي أرقى أحيائها، وينزل في بنسيوناتها وفنادقها الصغيرة.

كان صورة مصغرة من قهوة إيزافتش، ديكور أفرنجي، وخدمة أجنبية، وطعام مصري عربي أصيل.

كان يتوافد على مقهى «إيزافتش» في تلك الأيام مجموعة من المثقفين المصريين قرءوا قشورًا في الثقافة، وسبحوا في مجارٍ ثقافية ضحلة، واستخدموا شعارات وتعبيرات وعبارات

أفرنجية، وارتاحوا إلى ما وصلوا إليه، ورضوا عن أنفسهم واكتفوا بمشاهدة الحياة في مصر من فوق رصيف مقهى «إيزافتش» ثمَّ الدخول في مناقشات عقيمة حول نظريات لا علاقة لها بواقع شعب مصر. لذلك كان الخلاف محتدمًا ومستمرًّا بين جبهة المثقفين إيَّاهم وبين محمد عودة، وكان هذا مدخلي إلى محمد عودة. فذات صباح، احتدمت المناقشة بين محمد عودة وشلة المثقفين إيَّاهم، وكان الحديث حول أم كلثوم وفنها، وتأثيرها على وجدان الشعب المصري، وأثرها في حالة الغيبوبة التي كان يعيشها شعب مصر في ظل حكومة باطشة وسفارة بريطانية حاكمة. كان رأي المثقفين إيَّاهم، أنَّ أم كلثوم هي السبب في كل ما يُعاني منه شعب مصر، فهي ترسم لهم بأغانيها واقعًا مخمليًّا لا صلة له بالواقع البائس الذي يعيش فيه، ووصفوها بأنَّها «أفيون» لتخدير شعب مصر ولتمكين عصابة المستفيدين من دمه، وكان رأي محمد عودة أنَّ هذه مبالغة لا أساس لها في الواقع، وأنَّه حكم سهل توصلوا إليه لإراحة أنفسهم من دراسة المشاكل الحقيقية والأسباب الرئيسية في تعاسة شعب مصر.

وانضممتُ في المناقشة إلى رأي محمد عودة؛ ولكنَّهم تغلَّبوا علينا بالزعيق واستخدام الشعارات والاستشهاد بأقوال من هنا وهناك. وينطقونها بلغتها الأصلية ويخلطونها بكلمات عربية.

واقتربت من محمد عودة أكثر عندما وصف شلة المثقفين إيَّاهم بأنَّهم جهلة. وكان ذلك الوصف من محمد عودة كافيًا لتغيير فكرتي عن شلة إيزافتش.

شلة المثقفين

وأحببت محمد عودة أكثر عندما عرضت عليه إنتاجًا لي فقرأه باهتمام وأبدى إعجابًا شديدًا بما قرأه، على عكس سلوك شلة «إيزافتش» عندما عرضت عليهم شيئًا من إنتاجي، فقد ألقوا نظرة خاطفة على ما كتبت، ولم يوجه لي أحدهم كلمة ثناء أو كلمة نقد، وانشغلوا عني بمناقشة قضايا العصر التي تبدأ من المشكلات التي خلفتها الحرب العالمية الثانية والأخطار المحدقة بالعصر النووي، وتنتهي دائمًا بمناقشة سلوك «مخالي» جرسون مقهى إيزافتش، وموقفه الغريب لإصراره على تقاضي حساب الطلبات من شلة المثقفين قبل أن يُغادروا المقهى! ومنذ تلك اللحظة بدأت رحلتي وراء محمد عودة، في الصباح عبر شوارع القاهرة الأنيقة، ومساءً عبر حواري وأزقة القاهرة المُعِزِّية، وكانت تنتابه حالة من النشوة وهو يجوب أزقة حي الجمالية وسوق السلاح في القلعة.

وكنت أتخيَّله في تلك الجولات واحدًا من المماليك الذين يحيطون بالسلطان المظفر، وأحيانًا أتخيَّله فلَّاحًا هاربًا من قريته إلى أزقة مصر هربًا مِن تحكم الملتزم وسياطه. كان يبدو كأنَّه قطعة من جسم الماضي انفصلت فجأة وسقطت في عصرنا، وهكذا كان محمد عودة، حرب طاحنة بين ما يعرفه وما يمارسه، بين أحلامه التي يُحلِّق بها وواقعه الذي يزحف فيه، بين طاقاته الذهنية وإمكانياته المادية، بين العصور التي يحيا فيها بخياله والبنسيون الذي ينزل فيه! ومن خلال محمد عودة تعرَّفت إلى عصور مصر الوسيطة ومماليكها العظام، وقادتها الفاتحين، وسلاطينها المستبدين، وحُكَّامها الذين نصبوا المشانق، ودقوا الخوازيق، وفرضوا المكوس والرسوم، وشربوا من دم الفلاحين وأكلوا من لحومهم!

وكما «جرجرني» محمد عودة إلى حواري مصر المملوكية «جرجرته» أنا الآخر إلى قهوة محمد عبد الله، واكتشفت أنَّه على علاقة بالكل، وأنَّه قرأ لزكريا الحجاوي، وأنور المعداوي، وعبد القادر القط، وأنَّه يعرف قدرات كل منهم ويعرف مواطن القوة والضعف لكل واحد من أعضاء الشلة. ولكنَّه كان أقرب في مزاجه وتكوينه إلى زكريا الحجاوي. وكان اختياره لزكريا الحجاوي هو اختياره لصف الصعاليك وأبناء الطريق الذين استطاعوا أن يقهروا كل الظروف ليصنعوا على مدى تاريخ مصر عبقريات أضاءت وسط الظلام والعفن والفساد. بدأ محمد عودة مترددًا ليلًا على قهوة محمد عبد الله، ولم يكن يحضر وحده، بل كان يحضر ومعه شلة من الشباب: محررون يحاولون العمل في دور الصحف، وشعراء يحاولون نظم الحرف، وكُتَّاب قصة يحاولون رسم هياكل لعوالم عاشوها أو شاهدوها أو حلموا بها يومًا ما.

كان بعضهم موهوبًا، وأغلبهم عديم الموهبة، وكان بعضهم خفيف الدم، وبعضهم ثقيلًا لا تُطيق الأرض حمله على ظهرها، ومع ذلك كان عودة يحتضن الكل ويرعى الجميع، وكان بمثابة الأب الروحي، وكان لا يكتفي بفتح الأبواب لهم، ولكنَّه يُتابع مسيرتهم، ليس بالنفوذ؛ فلم يكن له نفوذ على الإطلاق، ولا بالنقود؛ فلم يكن يحمل نقودًا على الإطلاق، ولم يكن يملك منها شيئًا، ولكن بالنقد والتشجيع، وكنت أعجب كثيرًا لهذا السلوك من جانب محمد عودة، لأنَّني كنت الوحيد من أفراد الشلة الذي يعلم ظروف محمد عودة على وجه التحديد. ففي تلك السنوات الأولى من حقبة الأربعينيات كان يسكن في بنسيونات من الدرجة الثالثة وسط القاهرة، وكان يختار بالذات تلك البنسيونات التي تملكها أرامل أجنبيات اضطرتهن الظروف إلى تحويل شققهن إلى بنسيونات لمواجهة أعباء الحياة. ولكن الصحافة في مصر في تلك الأيام كان اعتمادها على أقلام بعض النجوم، بينما ينسحق في

قاع المهنة مئات من الموهوبين والمثقفين وأصحاب الأحلام والآمال، ولقد شمل هذا القانون محمد عودة كما شمل الآخرين، ولذلك كان يضطر أحيانًا إلى الانتقال من بنسيون إلى آخر، أحيانًا في وضح النهار وغالبًا في جنح الليل ومن الأبواب الخلفية.

رحلتي العجيبة

في تلك الغزوات كان عودة يختار العبد لله لمساعدته في عملية الهروب من بنسيون لآخر، وكانت مهمتي تنحصر في إخلاء الغرفة من الكتب، وكانت عملية إخلاء الكتب وحدها تستغرق أسبوعًا كاملًا، فقد كانت الكتب هي كل ثروته في الحياة. وكانت مجرد صدفة بحتة أنَّني عثرت على كتاب من كتب عودة أثناء عملية من عمليات النقل، هذا الكتاب هو «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس، وقرَّرت أن أستعيره من عودة دون أن أُخبره، ولزمت بيتي أسبوعًا مع بدائع الزهور، وعشت مع الرحلة العجيبة التي عاشتها مصر في عصور سابقة، من السلطان برقوق إلى المملوك حمص أخضر، وشمخت بأنفي في حروب النصر، وطأطأت رأسي في معارك الهزيمة، ووددت لو انحنيت أمام السلطان قطز اعترافًا بفضله في إبادة جنس التتار من على ظهر الأرض، وأمام الملك الظاهر بيبرس البطل الذي جعل مصر منارة وحوَّلها إلى قلعة، وتمنَّيت لو كنت طبيبًا لأقوم بتشريح قلب وعقل الزيني بركات الذي اشتغل مع عشرة حُكَّام، وجلس يُصدر الأوامر والنواهي من نفس الديوان في خدمة عشرة عهود، وكان دائمًا مع المملوك الحاكم وموظفًا سابقًا في خدمة المملوك السابق، وعلى رأس حكومة المملوك الآتي!

وكان هذا الكتاب هو بابي إلى رحاب مصر المملوكية، ومن بعده توغَّلت في أزقتها، وحواريها وقصورها، وساحاتها، وكانت مكتبة محمد عودة المتنقلة من بنسيون لآخر هي زادي الذي تسلَّحت به في رحلتي الطويلة الحافلة بالأسرار والحكايات والأعاجيب.

وذات مساء، غادرت مقهى محمد عبد الله مع محمد عودة في رحلة قصيرة إلى حي الدقي الفاخر، باعتبار ما كان في تلك الأيام، كانت بالنسبة للعبد لله سهرة إلى مجهول. وعندما دخلت القصر الذي سنقضي السهرة فيه، أحسست برجفة وانتابتني قشعريرة، فلم يكن قد سبق لي الدخول في مكان مثل هذا من قبل. قصر من القصور التي تظهر عادة في السينما، تحوطه حديقة مترامية الأطراف، أشجار النخيل عالية ومتناسقة، كأنَّها صف من الجنود اختير بعناية لاستقبال عظيم، ورائحة الورد تعبق في الجو، والأضواء التي تتلألأ من داخل القصر تُضفي على الجو كله مزيدًا من الفخامة والإبهار، وفكَّرت في الانسحاب

واعتذرت لمحمد عودة بحجج واهية، ولكنَّه أصرَّ على اصطحابي إلى داخل القصر، وبثَّ في نفسي الشجاعة، وكسر الحاجز النفسي الذي كان يفصل بيني وبين هذا الجو الجديد. وعندما خطوت الخطوة الأولى داخل القصر، اكتشفت عالمًا آخر لم أُشاهده من قبل، عالمًا من الراحة والرفاهية والثقافة والموسيقى، عالمًا غريبًا خلا من العُقد ومشاكل الحياة اليومية، عالمًا كنت محتاجًا إليه لأعرف بالضبط ما يدور على الشاطئ الآخر من الحياة. ولكن ما دار داخل القصر تلك الليلة كان أغرب من الحقيقة ومن الخيال.

حالات تستحق التشجيع

كان القصر الذي دخلناه آية في الترف والأناقة والجمال، ولم أكن قد رأيت قصرًا مثل هذا قط، ولم يكن في القصر سوى سيدتين ألمانيتين في الخمسين من عمرهما، وإن كان يبدو عليهما أنَّهما في الأربعين. وقد سهرت تلك الليلة سهرة ممتعة استمعت فيها إلى موسيقى بتهوفن وباخ، وقد تبادلنا العزف على البيانو بينما كانت الأنوار الخافتة تُضفي جوًّا ساحرًا على المكان.

وتناولنا عشاءً شهيًّا، وكان الحديث يدور بالفرنسية التي لا أعرفها، واضطرت إحداهما إلى التحدث معي بإنجليزية ركيكة، ولكنَّها اضطرت إلى استعمالها مجاملة للعبد لله الذي كان يجلس أثناء الحديث كثور الله في برسيمه!

كنت في الثانية والعشرين من عمري، وكنت خجولًا بالرغم من طموحي واقتحامي، وقد نغَّص عليَّ خجلي تلك الليلة الرائعة، والسبب أنَّ هندامي لم يكن لائقًا وحذائي لم يكن نظيفًا، وتصوَّرت طوال السهرة أنَّ السيدتين تُحدِّقان في ملابسي وتشمئزان من منظري، وعندما صارحت محمد عودة بعد السهرة بحقيقة إحساسي، نظر نحوي باندهاش، وأكَّد لي أنَّهما سُرَّتا جدًّا لوجودي وأنَّهما لم تلتفتا إلى شيء مِمَّا أُعانيه، وأنَّ هذا النوع من الناس لا يستوقفه منظر الإنسان ولا هندامه، وأنَّ الأوروبيين خصوصًا لا يُقيمون وزنًا لمثل هذه التفاهات التي تتحكَّم في حياتنا وفي مصيرنا أيضًا في شرقنا السعيد!

وشحنتني كلمات عودة بثقة زائدة، ولذلك كانت السهرات المتتالية ممتعة للعبد لله، وقد تخلَّيت عن خوفي وخجلي، واندمجت في الجو الجديد الذي قادني إليه محمد عودة. ولم أكن أنا وحدي الذي يختصه عودة بهذه السهرات التي تفتح أمام الشخص المبتدئ آفاقًا جديدة ... كان يصطحب معه في سهرات أخرى آخرين لهم نفس الظروف، كان أحدهم شابًّا ريفيًّا ساذجًا، وكان عندما يُصاب بنزلة برد، يلف حول رقبته منديل جيب أبيض

مبللًا بالماء — عادة من عادات البيئة التي جاء منها الأديب الريفي إيَّاه — وكان العبد لله دائم السخرية من الأديب الريفي الشاب وبطريقته الخاصة التي يتناول بها الأشياء والحياة. وكان محمد عودة على العكس، يرى في كل محاولة حالة تستحق التشجيع وبذرة تستحق الرعاية.

ولعل من أجل هؤلاء الشبان الذين يتزاحمون على أبواب الصحف، ويقفون في طوابير أمام الحياة الأدبية ينتهزون فرصة ويتشبثون بأمل، لعل بسبب هؤلاء كان محمد عودة مرفوضًا عند أغلب أدباء الجيل الكبار، فما من مرة دُعِيَ إلى منزل أحدهم إلَّا واصطحب معه عددًا من هؤلاء الشبان. وكان بعضهم — كما قلت — ثقيل الظل، ولم ينقطع عودة عن تلك العادة حتَّى الآن.

ما بعد الهزيمة

وعندما قامت حرب فلسطين تحمَّس لها عودة بشكل خاص، كان يرى أنَّ الحركة الصهيونية هي امتداد لكراهية أوروبا — ومن بعدها أمريكا — للشرق العربي. عندما انتهت الحرب بهزيمة الجيوش العربية أُصيب عودة بخيبة أمل، وأعلن رفضه لكل شيء وأي شيء. كان مؤمنًا بضرورة التغيير وحتميته أيضًا، وكان مؤمنًا بحزب الوفد، ولكنَّه كان يائسًا من استطاعة حزب الأغلبية القيام بأي عمل حقيقي لقلب الأوضاع في مصر لصالح الناس، كان يرى أنَّ حزب الوفد قد ترهَّل، وأنَّ الأجنحة المُتصارعة داخله قد انتهت بهزيمة الأجنحة الشابة وانتصار جناح الكبار وأبناء العُمد والبيوتات العريقة في ريف مصر. وكان من رأيه في تلك الأيام أنَّ المثقفين قد انفصلوا عن واقع الحياة في مصر، وعاشوا في بروج عالية وانهمكوا في مناقشة نظريات لها وجود في الكتب، وإن لم يكن لها وجود في حياة الناس.

وكان يرى أن الوقت قد حان لحسم الأمور لصالح الطبقات الفقيرة والمجهدة، ولكن كيف؟ كان عودة يُردِّد في حيرة دائمًا: سيحدث التغيير حتمًا، ولكن كيف ومتى؟ هذا هو السؤال.

وفجأة اختفى محمد عودة من القاهرة، ومن مصر كلها، طار إلى الهند ليعمل هناك وغاب فترة طويلة، وعندما عاد كان كل شيء قد تغيَّر في مصر وفي عودة أيضًا!

كان في مصر نظام جديد بقيادة مجموعة من ضباط الجيش، وطنيون بالتأكيد، وإن كانت السُّبل التي يسلكونها غير واضحة المعالم، ولكن عودة كان مُتفائلًا بالتغيير، وكان

يرى أنَّ أبواب مصر قد انفتحت على آفاق لا يعلم مداها إلَّا علَّام الغيوب، ولكنَّها حتمًا ستتطور وتنتهي إلى صالح الجماهير.

ولكن فجأة حدث لعودة ما حدث لكل المثقفين الوطنيين الذي أيدوا الثورة على بدايتها بالقلب وليس بالتقارير، وكان اختلاف الضباط في القمة وصراع السلطة الذي نشب بينهم منذ أول يوم، كان قد فتح بابًا أمام تسلل عناصر تزحف كالدود، وتفح كالأفاعي، وسيطرت هذه العناصر على معظم ضباط القيادة، وأصبح الشعار: من ليس معي، فهو ضدي. وألقي القبض على عودة في أزمة مارس ١٩٥٤م، وغاب شهورًا في السجن، وعندما عاد، كان شديد القرف من كل شيء، شديد القلق بالنسبة للمستقبل، ولكنَّه لم يُغيِّر عاداته قط، الطواف بشوارع القاهرة نهارًا، والتسكع في أزقتها ليلًا، والتهام الكتب التي بين يديه، وتوزيع عطفه وحنانه على كل الذين يصارعون على بداية الطريق.

موقف وموقف

وفي عدوان عام ١٩٥٦م، كان محمد عودة معي في بيروت. والحق أقول: إنَّه الوحيد بين الجميع الذين كانوا هناك، الذي لم تخطئ بوصلته هدفها قط، أعلن منذ أول لحظة وقوفه إلى جانب عبد الناصر وثورة مصر، وكان يرى أنَّ الغزو الفرنسي البريطاني سينتهي بدحره، وأنَّ عهد كرومر قد ولى، وأنَّ عصرًا جديدًا قد أشرق على العالم، وأنَّ ثورة مصر كانت الناقوس الذي دقَّ إيذانًا ببدء العصر الجديد. وراح يكتب في الصحف ويناقش في الاجتماعات، وعندما أصدرنا جريدة الجمهورية «طبعة بيروت» لم ينقطع يومًا عن الكتابة، ولم ينقطع يومًا عن الحضور، ولم يفتر حماسُه، في وقت تردَّد فيه آخرون انتظارًا لظهور نتيجة المعركة. لم يكن أحد منَّا يتقاضى أجرًا، ولم نكن نجد ما نأكله أحيانًا، وكنَّا نتقاسم السيجارة أغلب الوقت. وكان في بيروت وقتئذٍ كاتب مصري جهير الصوت، شهير الاسم، إلى جانب عمله كأستاذ بجامعة القاهرة، وكان ينزل في فندق فخيم، ويعيش عيشة السُّواح، وعندما طلبنا منه مقالة ضد الغزو، اعتذر بأنَّه مريض ولا يقدر على الكتابة، ولكن عندما انتهت المعركة لصالح مصر، أرسل إلينا مقالًا من نار ضد الاستعمار، ومقالًا آخر كله نفاق عن بطولة عبد الناصر ورفاقه، ولم ينسَ أن يؤكِّد للقراء ثقته المطلقة في انتصار ثورة مصر. أغرب شيء أنَّنا عندما عدنا إلى القاهرة بقي محمد عودة في الظل، وارتفع الآخر على رأس الموكب، وسافر على رأس وفد مصري في مهمة وطنية في بلاد العالم! وعندما جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن في عام ١٩٥٩م كان عودة موضع هجوم شديد من

بعض التنظيمات السياسية؛ لأنَّه لم يذهب معهم إلى السجن، ورموه بكل تهمة، واتهموه بكل نقيصة، وبالرغم من ذلك، ظلَّ خط عودة هو الخط الوحيد الصحيح، هكذا برهنت الأيام بعد ذلك، وبينما أثرى عشرات من الذين هاجموه وركبوا الموجة واحترفوا الهتاف، ظلَّ عودة يكتب ويقرأ، ويسحب وراءه جيشًا من المواهب الجديدة، مُقتحمًا بهم السهرات والعزومات ماسحًا على جراحهم، مُشجعًا إيَّاهم بكلماته المتفائلة وثقته الزائدة بنضارة المستقبل، وبالرغم من كل شيء.

درة ثمينة

كان عودة قد أحدث دويًّا في مصر بكتاب صغير الحجم كبير القيمة عن الصين، وكان بحق نموذجًا في فن الكتابة السياسية، كما كان درسًا في كيفية تحويل السياسة إلى أشعار، كان مستوًى رائعًا لأول مرة في العربية، كان في مستوى ما كتبه ستيفان زفايج وإميل لودفج، وقد بهر الكتاب الجميع، اليمين واليسار والوسط، وكان كل ما تقاضاه عودة عن هذا الكتاب ثلاثين جنيهًا مصريًّا والشهرة والذِّكر الحسن! وطبعًا نُشِر من الكتاب عدة طبعات، وبالرغم من أنَّ عودة أصدر كُتبًا عديدة بعد ذلك، إلَّا أنَّ كتابه الأول عن الصين ظلَّ هو درته الثمينة، وبالرغم من نقائه وإخلاصه وبراءته التي تشبه براءة الأطفال، إلَّا أنَّه لم يصل حتَّى في المهنة التي احترفها طويلًا وعانى بسببها كثيرًا، وكان مؤهلًا لها أحسن تأهيل ومُسلَّحًا لها بكل الأسلحة، لم يصل فيها إلى بعض ما وصل إليه تلاميذه والذين تعلَّموا على يديه.

ملحمة ومأساة

أذكر في العام ١٩٦٧م أنَّني ذهبت لمقابلة أحد المسئولين ورشحت محمد عودة لتولي منصب رئيس تحرير جريدة لم تكن منتشرة ولم تكن مؤثرة، وارتسمت على وجه المسئول علامة لم أفهم مغزاها، وتساءل في دهشة ممزوجة بالاستنكار «محمد عودة؟!» ورحت أستعرض تاريخ عودة وأُعدِّد مآثره، وفي النهاية اكتفى بأن هزَّ رأسه ولم يقطع بشيء. وبعد هذا اللقاء بأيام اختير صحفي باهت اللون والطعم ممسوح الاتجاه، لم يكن يعرفه أحد في مصر خارج دائرة أسرته، اختير رئيسًا لتحرير الجريدة، وبقي متربعًا على قبرها ست سنوات طوال، والسبب أنَّ محمد عودة كان يعقد صِلاته بالناس «اللي تحت»، وكان عَزوفًا

عن الاتصال بالناس «اللي فوق»، لم يكن من شلة أحد، ولم تقع عيني عليه في حفل رسمي، ولم أشاهده قط في مكتب مسئول، ليس ترفعًا من عودة أو استنكارًا أو خصامًا، ولكن هذه هي طبيعته، يختنق من الأماكن الرسمية، ويضيق بالخطوات المنضبطة، ويكره الانتظام في صف. وإذا كان هو الكاتب الوحيد الذي لم يتربَّع على منصب في عصر عبد الناصر، ولم ينمُ اجتماعيًّا إلَّا بالقدر الطبيعي والمرسوم، فما حدث له بعد وفاة عبد الناصر يصلح ملحمةً تحتاج إلى شاعر شعبي ومطربة شعبية ليطُوفا بها في الأسواق، وليقُصا أحداثها على مسامع الفلاحين في الحقول، وهي الملحمة التي انتهت بمأساة ونزول عودة ضيفًا على السجن وهو في سن المعاش، ولكن تلك الأيام التي قضاها محمد عودة في مصر بعد وفاة عبد الناصر وحتَّى لحظة دخوله السجن، كانت هي أكثر أيامه حركة وأشدها حرارة، وأغزرها إنتاجًا، وأثقلها مصائب، وأعنفها أحداثًا، ولكنَّه ظلَّ متشبثًا بالأرض، لم يُفكِّر مرة واحدة في أن يُغادرها إلى الخارج، واعتصم بالله والوطن وبأهله من أبناء الشعب.

عندما رحل جمال عبد الناصر، كان محمد عودة قد بلغ الثانية والخمسين، وفي المهنة التي احترفها — مهنة الصحافة — كان موقعه، بعد رحلة شاقة طويلة ومضنية، مجرد مُحرِّر سياسي في إحدى الجرائد اليومية. وكان مُرتَّبه لم يصل بعد إلى مُرتَّب زملائه في المهنة، أو مُرتَّب بعض تلاميذه، لم يصل قط إلى منصب رئيس التحرير أو منصب رئيس مجلس الإدارة، مع أنَّه كان أشد الجميع حُبًّا لعبد الناصر وأكثرهم حماسًا له. وكانت كل ثروته في الحياة خمسة كتب من تأليفه، وشقة متواضعة في عمارة من عمارات الأوقاف في حي الدقي، وسيارة فيات صغيرة اضطر إلى بيعها بعد ذلك عندما فشل في استعمالها لعدم قدرته على قيادة السيارة في بحر زحام القاهرة الرهيب، وبالرغم من المحاولات لاستمالة محمد عودة، إلَّا أنَّه لم يتخلَّ أبدًا عمَّا يعتقده، ولم يكتب حرفًا ضد قناعاته، وخاض حربًا ضروسًا بقلمه ضد كل الذين حاولوا وعملوا وساهموا في تلطيخ المرحلة الناصرية في وحل العار.

ولكن مأساة محمد عودة الحقيقية أنَّه كان يحارب من استفادوا من تلك الفترة والتفوا حول موائدها، وكان عودة هو الوحيد الذي خرج من المولد بلا حمص، ولم يخرج من العهد الناصري إلَّا بأمجاده وذكرياته، بينما خرج الآخرون بالمكاسب والمغانم. وكانوا خمسة أو ستة من الكُتَّاب المصريين الذين بقوا في مصر وتشبثوا بمبادئهم، وكان محمد عودة أكثرهم تشبثًا وأقلهم ظهورًا، وعندما رفع كُتَّاب مصر وأدباؤها عريضة إلى رأس

الدولة يستنكرون فيها حالة اللاسلم واللاحرب، ودعَوا فيها إلى حسم الموقف، والوقوف بصلابة ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي، وطالبوا بضرورة تحقيق مطالب الشعب والانحياز إلى صف الغالبية العظمى من الفقراء ورفع المعاناة عنهم، كان محمد عودة واحدًا من المُوقِّعين على العريضة، وكان واحدًا من الذين عصفت بهم قرارات السلطة، فنقلتهم من دور الصحف إلى إدارات حكومية وشركات القطاع العام.

وعندما عادت الأمور إلى وضعها الطبيعي بعد حرب أكتوبر، اشتعل محمد عودة حماسًا للمصري العادي الذي استطاع أن يقهر الصعب، وأن يصنع المستحيل ويعبر قناة السويس ويدك حصون خط بارليف.

ولكن الأمور سارت بعد ذلك في عكس الاتجاه الذي كان يحلم به عودة، انقسم المجتمع المصري إلى قسمين: الذين عَبروا، والذين هَبروا.

وفي هذا الجو المتوتر آثر أحمد بهاء الدين أن يُهاجر إلى الكويت، وهرب عشرات من الكُتَّاب المصريين إلى بلاد عربية أو أوروبية، وهرب محمد عودة ولكن إلى داخل مصر. انكفأ على كتبه يلتهمها، وعكف على تأليف عدة كتب صدرت تباعًا، كانت بمثابة بصيص من النور وسط الظلام الدامس، واختار الاستقلال التام وسط التيارات المتصارعة، والحياد وسط صراع الأنظمة العربية، ورفع شعار العروبة دون انضواء وبغير انحياز. وتفرَّغ محمد عودة لكتبه، وأدار ظهره لمجتمع العمولات والمكافآت والصفقات والمشروعات، ولكن هذا المجتمع نفسه أبَى أن يتركه. وعندما عصفت بمصر قرارات سبتمبر ١٩٨١م كان محمد عودة ضمن الذين أُلقي القبض عليهم، وكانت التهمة الموجهة إليه: التجسس، والقضية التي تضمه اسمها: التفاحة، وكانت تهمته أنَّه اجتمع مع عبد السلام الزيَّات نائب رئيس الوزراء السابق.

وعندما دخل محمد عودة السجن كان قد بلغ عامه الثاني والستين، وفي بلاد أخرى يُكرَّم الكُتَّاب والأدباء الذين يبلغون هذه السن، وتُقدَّم لهم الجوائز والعطايا، امتنانًا وشكرًا لهم على ما قدَّموه خلال حياتهم الطويلة، ولكن نصيب محمد عودة كان مائة يوم في السجن واتهام حقير بالتجسس، وهو العاشق الذي تدله حبًّا في مصر، وهو الشاعر الذي تغنى بكل ذرة تراب في أرضنا، وهو الكاتب الذي كان مداده عَرَق الناس وزحام الطريق ومعاناة الأغلبية الساحقة. وبعد ٦ أكتوبر ١٩٨١م قُدِّر لمصر أن تعود إلى الطريق الصحيح، وقُدِّر لمحمد عودة أن يُغادر سجنه بعد ذلك ... خرج بلا مساءلة وبلا محاكمة، خرج لأنَّ التهمة كانت مُلفَّقة، وخرج لأنَّ المتآمرين بعضهم انتقل إلى رحمة الله وبعضهم انتقل إلى سجون الدولة، وبعضهم فرَّ هاربًا خارج البلاد.

وعاد محمد عودة هذه المرة ليُنقِّب في تاريخ مصر عن أعظم أيامها وأخلد معاركها، ورسم لنا وللأجيال القادمة صورة زاهية الألوان عن الفلَّاح عُرابي، والشركسي الوطني محمود سامي البارودي، وعن اللورد الوقح كرومر، وعن الصايع الخالد عبد الله النديم. وكان كتابه «سبعة بشوات» بمثابة تاريخ جديد لمصر المعاصرة، ووجهة نظر فلاح مصري مُثقَّف في فترة هي بحق من أعجب وأغرب وأخصب فترات تاريخها على المدى الطويل ... وإذا كانت الأيام قد زحفت بعودة إلى الشيخوخة، فهو أقرب الشيوخ في مصر إلى الشباب، أقربُ إليهم بفكره وبموقفه، ويتندر بعض الناس في مصر ويتداولون مقولة: «إذا أردت أن تعرف الاتجاه الصحيح، فاعرف أولًا أين يقف محمد عودة» فهو بالرغم من اضطراب بحر السياسة المصرية وصخب أمواجها، وشدة أعاصيرها وعواصفها، إلَّا أنَّ بوصلته لم تُخطئ الاتجاه الصحيح قط، وسفينته لم تُخطئ الميناء المنشود.

وإذا كان محمد عودة هو واحد من الكُتَّاب الموهوبين، وخبيرٌ من خبراء السياسة العربية المعدودين، ونجم من نجوم الصحافة والكتابة السياسية، إلَّا أنَّه لم يظهر قط في حديث تليفزيوني، ولم يُدْعَ مرة واحدة إلى برنامج إذاعي، وليس عضوًا في المجالس المتخصصة، وحتَّى طلب الانضمام إلى اتحاد الكتاب رفضوه وطالبوه بأن يُقدِّم لهم ما يُثبت أنَّه كاتب، وأغرب شيء أنَّ الذين طالبوه بإبراز هويته الأدبية هم أُدباء وكُتَّاب من أمثال سعد حبلص، وسيد المناويشي، والأستاذ الكبير أحمد أبو دراع. إنَّها مأساة ولكنَّها ليست مأساة عودة وحده، بل مأساة الكثيرين من أمثال محمد عودة، وإن كان هو نفسه يشعر بأنَّها ليست مأساة إذا قيست بمأساة الوطن كله. والوطن عند محمد عودة هو امتداد الأرض العربية من الخليج إلى المحيط، فهو عروبي أصيل بلا ادعاء وبلا ثمن، وهو لذلك جاب أرض العرب على قدميه، وجاس خلالها من قرية إلى قرية، من وجدة في المغرب إلى الحُدَيدة في اليمن، وله في كل مكان من الأرض العربية أصدقاء وتلاميذ، ولديه مقدرة على الحياة في أي بقعة من أرض العرب أسابيع طويلة دون أن يحمل زادًا أو نقودًا، ودون أن يحتاج إلى استضافة رسمية من الدولة التي يوجد على أرضها، فهو قادر دائمًا على إيجاد أصدقاء، وقادر دائمًا على خلق جو من حوله، وقادر أيضًا على اكتشاف مواهب جديدة، بالرغم من طبقات الصدأ والتراب.

وإذا كان محمد عودة قد خرج من المرحلة الناصرية بلا مغانم، فقد خرج بإيمان لا حد له بأنَّ عبد الناصر كان ضرورة، وبالنسبة للعروبة كان أملًا ومنارًا، وأنَّ طريق عبد الناصر هو الطريق السليم، وحلول عبد الناصر هي الحلول الصحيحة. ولقد حمل

على رأسه خلال السنوات العشر الأخيرة تراث عبد الناصر وتعاليمه وطاف بها في الأسواق، وبالرغم مِن تنكر الأصدقاء وتناقص الأنصار، وهروب المريدين، وكثرة المستفيدين، وزحام الأرزقية، إلَّا أنَّه ظلَّ مُتمسِّكًا بالطريق، مُحافظًا على الطريقة مع عدد صغير من المريدين والأنصار، ومن المؤكد أنَّه سيظل على الطريق والطريقة حتَّى لو بقي وحده.

ويبقى بعد ذلك، أنَّ عودة عاش في جيل واحد مع توفيق عبد الحي، وعصمت السادات، ورشاد عثمان. وبينما هَبر توفيق عبد الحي كنوز مصر الذهبية بدون موهبة وبلا علم، اكتفى عودة بالحصول على كنوزها الروحية؛ ولذلك سيعيش عودة طويلًا في تاريخ مصر ... الفنان الذي حوَّل السياسة إلى شعر، والسياسي الذي أثبت أنَّ السياسة حرفة تحرق صاحبها بالنار، بعكس مفهوم العصر كله، الذي يؤكِّد أنَّ الفرق بين السياسي والحرامي هو أنَّ السياسي يدخل السجن أولًا.

المأساة الأسوانية

كان عباس الأسواني — يرحمه الله — أحد نجوم قهوة عبد الله. وعندما التقيت به أول مرة كان طالبًا بكلية الحقوق، وموظفًا بنادي السيارات، ومُحرِّرًا بمجلة مصر الفتاة، وعضوًا نشيطًا في الحزب الذي كان يحمل نفس الاسم. وكان حزب مصر الفتاة الذي اختاره الأسواني ليُمارس نشاطه فيه، حزبًا غوغائيًّا يؤمن بالأسلوب الهتلري في حكم البلاد. كان الحزب يحلم بحكم مصر على نفس الأُسس التي قامت عليها تركيا في عهد مصطفى كمال أتاتورك! ولذلك ناصب الحزب مصطفى النَّحاس العداء؛ وسلك كل الطرق لهدم زعامة النحاس والنيل من شعبية حزب الوفد؛ ولذلك لفت عباس الأسواني نظري في أول لقاء.

وازدادت دهشتي لموقفه عندما توثقت الصلة بيني وبينه؛ فقد كان ساخرًا إلى أقصى حد، فنانًا بكل معنى الكلمة، محبًّا للحرية وللانطلاق، وكان يخرج من بيته في الصباح فلا يعود إليه إلَّا قبل الفجر! وكان ينتقل من قهوة إلى مطعم إلى رصيف إلى أي مكان، شرط ألَّا يكون بين أربعة جدران، وكان يقضي سهرته المفضلة في منزل أمين المهدي، وهو فنان عبقري كان أعظم عازف عود في زمانه! وكان قد اعتزل العمل العام منذ فترة طويلة وتفرَّغ لسهراته مع أصدقائه، يستمع إلى إنتاجهم الفني ويشنف آذانهم آخر السهرة بالعزف على العود!

ولكن آمال عباس الأسواني في حزبه انهارت فجأة بعد حريق القاهرة. فقد أُلقي القبض عليه مع غيره من أعضاء الحزب بتهمة إحراق القاهرة، ووجد عباس الأسواني نفسه حبيس زنزانة ضيقة في سجن مصر، وكانت التهمة هي الاشتراك في مؤامرة لإحراق القاهرة، والعقوبة المنتظرة هي الإعدام! وقضى عباس في الزنزانة ثمانية أشهر، ولم يُخلِّصه منها إلَّا ثورة يوليو وجمال عبد الناصر، ولو تأجَّلت الثورة أو فشلت لقضى عباس بقية عمره حبيس الجدران!

وخرج عباس من الزنزانة وقد اتخذ قرارًا حاسمًا ألَّا يعود إليها! وكان هذا القرار هو حجر الزاوية في مأساة عباس الأسواني، ولم يكره شيئًا في حياته مثل السجن، وهو شيء طبيعي؛ ولكن الشيء الذي يحتاج إلى تفسير هو كراهيته لثورة ٢٣ يوليو التي كانت السبب الوحيد في إنقاذه! لعل السبب هو أنَّ الثورة أنقذته من السجن ولكنَّها قضت على حزب مصر الفتاة، وقضت أيضًا على نفوذ الطبقة التي كانت تتمحور في نادي السيارات الذي كان والده يعمل فيه، وهي الطبقة التي كانت تحكم مصر، وكان لها الفضل في تعليم عباس، الذي كان ابنًا لموظف بسيط للغاية يعمل ضمن حاشية النادي. لعل تلك هي الأسباب التي دفعت بعباس إلى اتخاذ هذا الموقف من ثورة ٢٣ يوليو. موقف العداء منها دون استفزازها، والعمل في ظلها دون ولاء ودون عداء ظاهر أيضًا. واستطاع أن يتلاءم عليها عندما فشل في التلاؤم معها، ولَّما كانت ثورة ٢٣ يوليو لم تشغل نفسها بهذا الطراز من الأعداء، فقد أفسحت له صدرها، فلمع في ظلها، وأصبح كاتبًا إذاعيًّا وكاتبًا صحفيًّا، وكاتبًا مسرحيًّا، وصدرت له كتب، وعُقدت له ندوات، وأفسحت سهرات القاهرة مكانًا له، وصار عباس الأسواني واحدًا من مشاهير المرحلة! ولم يُفصح عباس الأسواني عن حقيقة مشاعره إلَّا بعد وفاة عبد الناصر، فإذا به واحد من أشد أعداء ثورة ٢٣ يوليو وأكثرهم عداءً.

وكشف عباس عن حقيقته فإذا به أقرب إلى العهد الذي ولَّى — عهد الباشوات ونادي السيارات — من العهد الذي لمع فيه وانتشر بفضله؛ ولكن عباس — بالرغم من كل شيء — كان فنانًا وكان حساسًا. ولعله أدرك المأزق الذي حشر نفسه فيه، لعله لمح رأي الناس الذين أحبوه في نظراتهم، ولذلك سقط صريع المرض في نهاية حياته، ولزم الفراش وهو لم يبلغ الستين بعد؛ لقد أصيب بالفالج وراح يتوكأ على عصا، ثمَّ عجز في آخر الأمر عن النهوض من الفراش، ومات فجأة وذهب قبل الأوان!

وإذا كانت هذه هي مأساة عباس السياسية، فإنَّ مأساته الفنية أكبر، فهو أعظم محدث ساخر عرفه تاريخ مصر، ولا أعتقد أنَّ عباس الأسواني كان له نظير كنديم من قبل! كان حديثه يقطر سخرية وفكاهة في نفس الوقت، وكان يروي قصصًا قصيرة وهو يحكي لو كتبها عباس بنفس الطريقة التي يحكي بها لكان أفضل بكثير من مارك توين! والغريب أنَّه في الكتابة لم تكن له موهبته في الكلام، وجرَّب كل ألوان الكتابة؛ كتب القصة القصيرة، والرواية، والمسرحية، والمقال؛ ولكن موهبته الحقيقية لم تظهر إلَّا في المقامات؛ كتب المقامات الأسوانية، ولو اهتم بها لكانت أفضل من مقامات الحريري وبديع الزمان،

أقول لو اهتم بها؛ لأنَّه انشغل عنها بعاملين هامين؛ العامل الأول: هو حياته الشخصية، فقد كانت لديه أمور لا يمكن التنازل عنها تحت أي ظرف: الجلوس في قهوة ريش وقت الظهيرة والحديث مع الأصدقاء، وقضاء السهرة في أي مكان شرط أن يكون وسط مجموعة من الناس يودون الاستماع إليه! والعامل الآخر: هو أنَّه لم يهتم في مقاماته بمشاكل مصر الحقيقية، لم يهتم بقضية الحكم والحاكم، ولم يُعنَ بالمشاكل الحقيقية التي تواجه البشر العاديين! وأغمض عينيه عن كل المشاكل، واهتم بمشكلة واحدة، هي أن يكون باستطاعته أن يعمل ويكسب ويسهر وينشر إنتاجه ويحصل على الأجر الذي يريد! ولذلك ضحك الناس على الصياغة ولم يتوقَّفوا عند المضمون! فلم يكن هناك مضمون حقيقي، ولكنَّها التفاتات ذكية من رجل ساخر له وجهة نظر في اختناقات المرور وأزمات السجاير واللحوم! هل كان عباس الأسواني لا يرى المشاكل الحقيقية؟

بالطبع كان يراها ... ولكنَّه يتعمَّد الابتعاد عنها؟

ولعل ذلك هو السبب الذي جعله — وهو المتكلم العظيم — يبتعد قدر الإمكان عن حلقة المتكلمين العظام مثله.

فقد ابتعد خلال السنوات العشر الأخيرة عن الحلقات التي كانت تضم زكريا الحجاوي، وعبد الحميد قطامش، وحسن فؤاد، وكامل زهيري! والسبب أنَّ هذه الحلقات كانت تبدأ الحديث بالفن أو بالأدب أو بالكلام الفارغ، ولكنَّها تنتهي حتمًا إلى السياسة. ولمَّا كان عباس قد اختار مكانه السياسي إلى جانب حزب مصر الفتاة، فقد آثر الابتعاد حتَّى لا يتورَّط ضد الجانب الذي اختاره ولو بالسماع! ولعل ذلك هو السبب في جفاف نهر فنه في النهاية. فالمجالات التي كان يرتادها في النهاية لم تكن قادرة على إعطائه أي شيء، ولكنَّها كانت تأخذ منه كل شيء!

كان سميعته في النهاية من طبقة المستوردين والمصدرين، وأصدقاؤه من المؤسسين في شركات الاستثمار، وهؤلاء سرعان ما انفضُّوا من حوله عندما داهمه المرض اللعين وألزمه الفراش، ولعل هذا الموقف كان السبب في التعجيل بنهايته، فقد اكتشف بعد فوات الأوان أنَّه أخطأ الطريق، وأنَّه ابتعد كثيرًا عن الناس الذين كان من المفروض أن يُصادقهم ويكتب عنهم! وأيًّا كانت النهاية التي انتهى إليها عباس، فقد كان — يرحمه الله — مشروع فنان عظيم لم يكتمل، وكان واحدًا من أبناء الجيل، الذي لم يُمنح فرصة للنضوج، وإنَّ صدمة السجن بعد حريق القاهرة قد خلعت قلبه من مكانه وقلبت كيانه، وخوفه الشديد من ثورة ٢٣ يوليو لم يكن له مبرر، فهي التي فتحت له طريق الشهرة، ولم تسجنه يومًا، بالرغم

من أنَّ كل أبناء جيله نزلوا ضيوفًا في سجونها مددًا مختلفة! وانضمامه الأخير بكل قواه إلى عصر الانفتاح لم يكن له ما يبرره؛ لأنَّه لم يستفِد شيئًا، ولم يجنِ شيئًا، وخرج من المولد بلا حمص.

حتَّى إنتاجه الأدبي لم يحفل به أحد بعد موته، حتَّى البرامج القليلة التي قدَّمها للتليفزيون، مسحوا شرائطها ليُسجِّلوا عليها ما هو أكثر أهمية، مباريات كرة القدم!

وحتَّى حقوقه الشرعية لم يحصل عليها، وقد أدمت قلبي شكوى منشورة في الصحف للسيدة الفاضلة حرمه تطلب فيها سرعة إنجاز إجراءات معاشه الشهري!

ولا أدري من هو الملوم في بداية ونهاية عباس المأساوية؟ هل هو عباس نفسه؟ هل هو الجيل الذي ينتمي إليه؟ هل هي المرحلة التي عاشها؟ أغلب الظن أنَّها كل هذه الأشياء مجتمعة؛ فهو عاش خمسين عامًا من الثلاثين إلى الثمانين، وهي فترة من أعصف وأخطر وأخصب فترات مصر؛ نشبت فيها الحرب العالمية، وبدأت فيها حروب فلسطين، ووقع فيها العدوان على مصر، وقامت الوحدة، وفشلت الوحدة، وحدثت هزيمة ٦٧، وتفكَّكت الأسرة العربية، وشهدت الأرض من طنجة إلى صنعاء كوارث ومصائب ومعارك بالسلاح بين أقطار الأمة! وإذا كان الفنان عباس الأسواني قد فقد توازنه في الزلزال فبعض اللوم يقع عليه، وأكثر اللوم يقع على الظروف المحيطة؛ لأنَّه لم يرتكب إثمًا سوى بعض أبيات من الشعر، ولعله اختار الشعر لأنَّه ليس بشاعر، كأنَّما أراد أن يحتفظ بفنه طاهرًا، وتكَسَّب بفن مجلوب! تمامًا كما فعل الشاعر كامل الشناوي حين مدح زعماء الأقلية بمقالات في الصحف، ولكن قصيدة المدح الوحيدة التي نطق بها كانت لمصطفى النحاس؛ لأنَّ كامل الشناوي شاعر والمدح بالشعر ينبغي أن يكون للزعيم فقط، أمَّا الآخرون فلهم مقالات الصحف وهي أشبه بصرخات في واد فسيح!

إنَّ المأساة الأسوانية هي جزء من مأساة مصر؛ ولكنَّها — وبالرغم من كل شيء — أقل حدة من مأساة رشدي صالح وغيره، لأنَّ عباس لم يضطر إلى ركوب منبر أو قيادة حزب يعلم هو نفسه أنَّه مزيف، ولكنَّه عاش رغم مأساته مجرد مواطن يُريد أن يعيش. صحيح يُريد أن يعيش في جاردن سيتي، وأن يركب سيارة بويك، وأن يُنفق عن سعة، وأن يقضي رحلة العمر دون زيارة لسجن طرة أو منفى الواحات، ولكنَّها على العموم كانت مطالب مشروعة، ورغبات فنان غلبان صعد من سرداب المبنى الاجتماعي وأراد أن يحتفظ لنفسه بموضع قدم فوق السطوح!

ولا أشعر بأسف قدر أسفي على إنتاج عباس الأسواني، الذي تبدَّد أغلبه في نكات حارَّة، وغمزات مريرة، وقفشات لاذعة أطلقها في سهراته وقعداته، وسجل أقلها في سطور

على ورق مطبوع. ولو أنَّ الريح كانت مواتية والظروف مناسبة، لكسبت مصر فنانًا عملاقًا ليس له نظير. فقد كان صاحب موهبة في الحديث متفردة. وإذا كان زكريا الحجاوي كمتحدث يُبهرني، وقطامش يُبهجني، فإنَّ عباس الأسواني هو الوحيد الذي كان يُضحكني! ولم أضحك في حياتي من الأعماق إلَّا وأنا أستمع إلى عباس الأسواني. ولكن أغرب شيء أنَّ عباس الأسواني المقتدر المُتمكِّن كان يُصاب بالصمت إذا خرج عن نطاق الشلة؛ اشتركت معه مرة في ندوة تليفزيونية حضرها صلاح جاهين، وزكريا الحجاوي، والفنان محمد رضا، والفنان بهجت الرسام، ولم يفتح الله على عباس بكلمة، فقد أُرتِجَ عليه أمام عدسات التليفزيون! وذات محاضرة في مدينة طنطا، وكانت المناسبة هي عيد طنطا القومي، وكان فرسان المحاضرة زكريا الحجاوي، والأسواني، والعبد لله. أُرْتِج على عباس الأسواني فلم يفتح فمه بكلمة واحدة، وعجز تمامًا عن النطق عندما همَّ بالكلام! وسألني بعضهم عقب المحاضرة كيف تُشركون معكم رجلًا عاجزًا إلى هذا الحد؟ ويبدو أنَّ عبقرية عباس كانت تتفتَّح في حلقة، ضيقة وتموت عندما يتسع الميدان. وكان يتألَّق أكثر إذا اطمأن إلى جميع الجالسين، وهي صفة كان يشترك فيها مع مُتكلِّم عظيم آخر هو قطامش! وكان أسلوب عباس في الحديث يعتمد على سرد قصة مشوقة وأحداثها مثيرة، وكان يسوقها بأسلوب مشوق للغاية، وبينما كل الدلائل تُشير إلى نهاية يتوقَّعها الجميع للحكاية التي يرويها إذا به يُفاجئ الجميع بخاتمة مسرحية، خاتمة لا تتفق مع سير الأحداث وتثبت فساد علم المنطق، وكان أكثر الناس وقارًا لا يملك نفسه من الضحك حتَّى السقوط من فرط الإعياء! وكانت لديه قدرة للتحدث عدة ساعات دون كلل، ودون أن يفقد حرارته! وكان لا يستطيع الصمت ولو كان في حضرة أعظم رجال دولة الكلام. المرة الوحيدة التي رأيت فيها عباس صامتًا كانت في سهرة في بيت الحجاوي أُقيمت على شرف الفنان الكبير زكريا أحمد — يرحمه الله! وكان زكريا أحمد مُلحِّنًا عظيمًا ومتكلمًا أعظم، وكان حاسمًا جدًّا، فلا يسمح لأحد بالكلام، وكان سنه وتاريخه لا يسمحان لأحد بمقاطعته بعكس العتاولة الآخرين، وكان حديث زكريا أحمد مشوقًا ويجبرك على السماع، خصوصًا وأنَّه يحكي عن فترة لم نشهدها، ويقص أخبار عباقرة لم نكن على قيد الحياة عندما كانوا زينة المجالس والسهرات! كان يحكي عن الشيخ علي محمود، وأول مرة جاء فيها الشيخ سيد درويش إلى القاهرة، وخرجنا كلنا من السهرة في منتهى السعادة لحكايات الشيخ زكريا، وفي منتهى الغم لأنَّ أحدًا منَّا لم تُتَح له

فرصة للكلام؛ ولكن أكثرنا غمًّا كان عباس الأسواني، لدرجة أنَّه بكى بدموع حقيقية في الصباح!

رحم الله عباس الأسواني، أحد عباقرة زمن الحسومات، زمن الولادة المتعسرة والمواليد المُشوَّهين، رحمه الله، فقد كان أشبه بمسدس بدون طلقات!

عبادة بن الناطق

كان عبادة في نظر البعض متسولًا، وفي نظر البعض الآخر معتوهًا!

فهو متسول لا يسأل الناس ولكنَّه لا يرفض ما يُقدَّم إليه، وكان مجنونًا، ولكن جنونه كان من هذا النوع الهادئ الذي يلمع ويتوهَّج لحظات قليلة، ثمَّ لا يلبث أن يعود عبادة إلى وعيه وكأنَّه لم يكن منذ لحظات يجدف أو يخطرف أو يهذي بكلمات لا يفهمها إلَّا قلة قليلة من الذين كانوا يعرفون عبادة عن قرب!

أمَّا أصل عبادة وفصله فلا أحد يعرف عنهما شيئًا كثيرًا، لا أحد يعرف؛ لأنَّه لا أحد اهتم، فهو في تلك الأيام المبكرة من حقبة الأربعينيات لم يكن في مصر من يشغل باله بأمر العقلاء، فما بالك بأمر المجانين؟! كما أنَّ عبادة كان له شبيه في كل قرية مصرية تقريبًا، وأكثر من شبيه في كل حي من أحياء القاهرة، والذين اعتادوا الجلوس على مقهى محمد عبد الله في الجيزة في تلك السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأخيرة وصاحبتها فوجئوا بوجود عبادة في المقهى ثمَّ اعتادوا على رؤيته فيها حتَّى صار جزءًا لا يتجزأ منها، شأنه شأن المقاعد والمناضد والجدران، ولم يكن عبادة عاملًا في المقهى بمعنى كلمة العامل كما نفهمها هذه الأيام؛ ولكنَّه مجرد صعلوك ينام في المقهى فقط ويحتمي به، ولم يكن يرتدي ملابس ولكن هرابيد تكشف عن جسده أكثر مِمَّا تُخفي، وكانت رائحته كريهة ونفاذة وتفوح من بعيد، والأكيد أنَّ الماء لم يلمس جسمه منذ أن غادر قريته في أقاصي الصعيد، ولم يكن يأكل كما يأكل «البني آدمين» فلم أرَه في حياتي جالسًا يأكل؛ ولكنَّه كان يتناول وجبته وهو يذرع الرصيف أمام المقهى جيئةً وذهابًا في خطوات عسكرية أشبه بمشية الإوزة الألمانية الشهيرة، وكان يتوقَّف أحيانًا ليُلقي — وفمه محشو بالطعام — كلمات صارخة وغامضة وغالبًا بلا معنى، ثمَّ يستأنف خطوة الإوزة والأكل من جديد،

وكان يُدخِّن بلذة؛ ولكنَّه لم يكن يُدخِّن أكثر من خمس سجائر في اليوم، ربما لضيق ذات اليد، وربما لحكمة نجهلها نحن العقلاء ويدركها ذلك المعتوه.

كان أنور المعداوي أكثر زبائن قهوة محمد عبد الله اهتمامًا واحتفالًا بعبادة، وكان يعتقد اعتقادًا لا شك فيه أنَّ وراء عبادة سرًّا. وكان يستدعيه أحيانًا — خصوصًا ساعة العصاري — ويسأله أنور المعداوي عدة أسئلة عن الأحوال الخاصة والعامة على حد سواء، وكان عبادة يستمع ويضحك ثمَّ يفر هاربًا ويختفي لحظات، ثمَّ يعود ليظهر في مشيته العسكرية المعهودة ووجهه نحو السماء ويصرخ بكلام، وكان أنور المعداوي ينصت إليه باهتمام مؤمنًا بأنَّ ما نطق به عبادة له علاقة بالأسئلة التي طرحها عليه. وعندما اشتدت الحرب العالمية ارتدى عبادة غطاء رأس لمارشال إنجليزي. وكان كلما رأى وهو على رصيف المقهى جنديًّا من جنود الحلفاء تحرَّش به، وكلما مضت سيارة عسكرية من الميدان بصق عليها عبادة في زهو واستعلاء. ولم يشعر عبادة بأزمات الحرب العالمية، لم يشعر بأزمة التموين، ولم يشعر بأزمة السجائر، ولم يشعر بأزمة الدقيق، فقد كان بحالة من انعدام الوزن والرغبة والحاجة.

ولكن عندما انتصر الإنجليز على الألمان في معركة العلمين نزع عبادة غطاء رأسه المارشالي وراح يُردِّد شعارًا واحدًا لا غير «سعد باشا قال: مفيش فايدة»، وظلَّ يُردِّد هذا الشعار سنوات طويلة ولم يتخلَّ عنه إلَّا عندما قامت حرب فلسطين في عام ١٩٤٨م. فجأة انتاب عبادة نشاط لم نعهده فيه من قبل، واشترى نموذج بندقية خشبية راح يحملها على كتفه وهو يخطو خطوة الإوزة على رصيف المقهى، وكانت معسكرات التطوع أمام الشباب الراغبين في الاشتراك في حرب فلسطين قد بدأت العمل على قدم وساق! وبدأت تظهر طوابير المتطوعين عقب صلاة الفجر تجتاز شوارع الجيزة مرددين شعارات الله أكبر ولله الحمد، الذي أصبح شعار عبادة هو الآخر. وعندما انتهت الحرب بهزيمة الجيوش العربية ألقى عبادة سلاحه هو الآخر وعاد إلى شعاره القديم «سعد باشا قال: مفيش فايدة». ولكن بمرور الوقت تطوَّر جنون عبادة، فأصبح من النوع الخطير؛ فقد كان يصرخ بشدة وينتابه هياج أشد، ولم يحفل أحد بأفعال عبادة باعتباره مجنونًا وفاقد الأهلية وعديم التربية والأصل!

المهم أنَّ عبادة كان أول من أيَّد ثورة ٢٣ يوليو بحماس، وارتكب من أجل ذلك عملًا كلَّفه عدة كفوف هوت على صدغيه من يد المعلم عبد الله الذي كان أقرب إلى الوحش منه إلى «البني آدمين»؛ ولكن هذه الكفوف الساخنة لم تمنع عبادة من القيام بعمل آخر لتأييد

ثورة ٢٣ يوليو؛ ولكنَّه تكلف في المرة الثانية عدة أسنان سقطت من فمه. وأصل الحكاية أنَّ عبادة كان يقوم بتنظيف المقهى وترتيب المقاعد والطاولات في الصباح الباكر، وكان يفتح الراديو ليستمع إلى القرآن الكريم وهو يؤدي عمله المرهق، هكذا تعوَّد منذ أن وُجِد بالمقهى وإلى آخر يوم في حياته؛ ولكن في ذلك الصباح من يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م استمع عبادة بعد القرآن مباشرة إلى بيان يُذيع أخبار حركة قام بها عدد من ضباط الجيش، وهو البيان الأول الذي أذاعته ثورة يوليو، وهو غير البيان الذي أذاعه أنور السادات في الساعة التاسعة صباحًا. استمع عبادة إلى البيان الأول الذي لم يكن مفهومًا بدرجة كافية، ولم يكن صريحًا إلى الدرجة التي تكشف عن وجود ثورة في البلاد، ثمَّ انقطع الإرسال فجأة؛ ولكن يبدو أنَّ عبادة وحده هو الذي فهم الرسالة؛ فقد ترك عمله على الفور واختطف صورة «فاروق» المعلقة على الجدار وحطَّمها، وراح في مشيته العسكرية المعهودة على الرصيف يسب ويلعن بصوت صارخ في هذا الوقت المبكر من الصباح فاجتمع حوله بعض المارة، وجذبت الضجة بعض عساكر الشرطة، واكتشف أحدهم أنَّ صورة «فاروق» ممزقة وإطارها مُحطَّم، فنظر إليها وإلى عبادة في بلاهة ظنًّا منه أنَّها نوبة من نوبات جنونه؛ ولكن الضجة أيقظت المعلم عبد الله صاحب المقهى من نومه، وعندما اكتشف ما جرى انتابه غضب شديد وهوى بعنف وبضراوة على وجه عبادة حتى أسال الدم من أنفه، والغريب أنَّ عسكري الشرطة تدخل لحماية عبادة من غضب المعلم عبد الله. لم يكن المعلم عبد الله يعلم شيئًا مِمَّا حدث ولا عسكري الشرطة أيضًا! وربما لم يكن أحد آخر من الذين توافدوا على الضجة يعلم شيئًا، المهم أنَّ الضجة انتهت والناس تفرقت، وجلس عبادة على الأرض يمسح دمه ويشرب كوبًا من الشاي وينظر إلى الميدان في بلاهة وفي هدوء، ولم يستمع إلى نداءات المعلم عبد الله ولم يهتم بها، فقد أعلن الإضراب عن العمل! وعندما أُذيع بيان الثورة الثاني الذي أذاعه أنور السادات هاج الناس في الشوارع فرحًا فترة قصيرة، ثمَّ لزموا الصمت؛ لأنَّ البيان حذَّر من القيام بأي أعمال شغب وهدَّد المتظاهرين بأنَّهم سيلقون مصير الخائن؛ ولذلك خيَّم الصمت على الشوارع والتزم الناس الهدوء واكتفوا باختلاس النظرات إلى سيارات الجيش وهي تجوب الشوارع وقد صوَّب الجنود بنادقهم إلى صدور المارة.

الوحيد الذي لم يلتزم ببيان الثورة هو عبادة؛ ما إن شاهد سيارة جيش تعبر الميدان حتَّى هجم عليها كالوحش وفي نيته أن يحتضن كل أفراد القوة فردًا فردًا، وأن يطبع القبلات على وجناتهم وعلى أيديهم أيضًا! ولكن عساكر الجيش لم يدركوا القصد من هجوم عبادة على السيارة، اعتقدوا أنَّه ربما كان عدوًّا من أعداء الثورة، وربما عميلًا من العملاء، وربما

جاسوسًا لجهة أجنبية، فانهالوا عليه ضربًا بكعوب البنادق حتَّى سقطت عدة أسنان من فمه وسقط عبادة مُغمًى عليه، وعندما علم قائد السيارة أنَّ الرجل معتوه استقل السيارة مع جنوده ومضى.

وهكذا دخل عبادة التاريخ كأول مؤيِّد لثورة ٢٣ يوليو وأول ضحاياها. وتألَّق عبادة في بداية الثورة، وعندما انعقدت محكمة الثورة التي حاكمت زعماء الأحزاب كان يهتف بميدان الجيزة بكلمة واحدة هي «إعدام»، ولكن يبدو أنَّ ثورة يوليو لم تستمع إلى صرخات عبادة، ولذلك فتر حماسه بها وراح يُهاجمها بين الحين والآخر بالصرخات كل مساء وهو يذرع رصيف ميدان الجيزة في مشيته العسكرية الخطيرة! وكان صوته مزعجًا إلى الحد الذي يجذب انتباه الناس، وعندما صار أكثر إزعاجًا جذب انتباه المباحث فضربوه علقة في قسم الجيزة ليكف عن ترديد الشعار … ولكن عبادة لم يكف ولم يتوقَّف وظلَّ يُردِّد الشعار حتَّى حدث العدوان الثلاثي على مصر، وانتابت عبادة حالة من الجنون استغرقت وقته كله وأهمل عمله بالمقهى؛ ارتدى عبادة صحنًا على رأسه كأنَّه خوذة من التي يستعملها الجنود في الحرب، وحصل على نموذج خشبي لبندقية، وراح يتدرَّب نهاره كله على إطلاق النار، وكان كلما نهاه أحد عن الصراخ ازداد صراخًا، وكان يبكي أحيانا عقب نوبة الصراخ، وأحيانًا أخرى كان يضحك ضحكًا هستيريًّا! وفي المساء عندما يخلو الميدان من الحركة وتتوقَّف مركبات الترام ويهدأ كل شيء وينام، كان عبادة يتوسَّط الميدان مُلقيًا بأوامره إلى الفيالق الوهمية التي يقودها للتحرك في المعركة حسب الخطة المرسومة. وعندما انتصرت مصر والعرب في معركة بورسعيد خلع عبادة ملابسه ووقف يصرخ في الميدان شديد الابتهاج حتَّى أُغْمِيَ عليه.

وعاد عبادة أيام الوحدة ليُغني مع الوحدة أحيانًا، ويُغني ضدها أحيانًا! واختلَّ عقله أكثر فأصبح يضحك ويبكي في وقت واحد. وساءت أحواله أكثر فاتسخت ملابسه أكثر، وطالت لحيته وشعر رأسه، وصار منظره أشبه بمنظر قيس الذي كان يجوب البراري، وكان زكريا الحجاوي يُداعبه أحيانًا فيسأله أسئلة في السياسة، والغريب أنَّه كان يُجيب على زكريا إجابات يقصر عنها بعض أدعياء الأدب والثقافة. وشاخ عبادة وطعن في السن، ولكن عيناه ظلتا تحملان نفس البريق الوهاج النفَّاذ القلق المشع الذي هو مزيج من الجنون والذكاء. وكانت لديه حاسة شديدة يتشمَّم بها رائحة المواهب الحقيقية، ويحتقر المنافقين والأدعياء، كان ينفر بشدة من مخرج إذاعي، فإذا جاء إلى ركن أنور المعداوي انصرف عبادة بعيدًا عن هذا الركن إلى ركن آخر! ويظل بعيدًا لا يقترب من ركن أنور المعداوي إلَّا

إذا انصرف المخرج الإذاعي إيَّاه. وكان يُبدي رأيه في أحد المُدَّعين الذي كان يعتنق الفرعونية مذهبًا، وكان الأخ المُدَّعي إيَّاه عالي الصوت دائمًا، غريب المصطلحات والألفاظ أيضًا، غريب النظريات كذلك، وكان يزعم بأنَّ الهرم الأكبر مُقام في نقطة في منتصف الأرض تمامًا، وكان يزعم أيضًا أنَّه إذا دُمِّر الهرم الأكبر، فإنَّ الكرة الأرضية ستُدمَّر عن آخرها لا محالة!

وكان عبادة يحضر إلى ركن أنور المعداوي كلما جاء الأخ إيَّاه، ويظل عبادة يضحك بينما الأخ إيَّاه يتحدَّث، وربما لم يكن أحد من الجالسين يلحظ العلاقة بين ضحك عبادة وحديث الأستاذ إيَّاه إلَّا أنور المعداوي وزكريا الحجاوي. وكان عبادة يأنس إلى نعمان عاشور ويُحب مجلسه، وكان نعمان يتحدث إليه أحيانًا وكأنَّه — أي عبادة — هو رائد المسرح المصري الحديث والقديم أيضًا. وكان يعشق زكريا الحجاوي، وعبد القادر القط، ومحمود شعبان، وكان ينفر من الشيخ عبد الحميد قطامش؛ والسبب أنَّه رفع الكلفة بينه وبين قطامش ذات يوم فزجره قطامش زجرًا عنيفًا، وعبثًا حاول قطامش أن يتودَّد إليه بعد ذلك دون جدوى، اتسعت الفجوة بينهما وظلت العلاقة متوترة بين الاثنين حتَّى آخر يوم في عمر قهوة عبد الله.

ولقد وقع بصري عليه آخر مرة وهو في حالته المعهودة ذات يوم من مارس ١٩٥٩م، كان يقف على مقربة من ركن أنور المعداوي وهو يصرخ في جنون «قَرَّب» بفتح القاف وتشديد الراء، وكأنَّه يدعو شيئًا للاقتراب منه، شيئًا مجهولًا يحن إليه وينتظره، وظلَّ يُردِّد هذا الشعار طول الليل، وقبيل الفجر انصرفنا إلى منازلنا ومددت يدي إلى مصافحة عبادة، ولكنَّه لم يصافحني، وقف متخشبًا كأنَّه تمثال حجري ليس فيه من آثار الحياة إلَّا صراخه، والعجيب أنَّه كان يصرخ دون أن تختلج عضلة واحدة من وجهه، وفي تلك الليلة شاءت الأقدار ألَّا أبيت ليلتي في منزلي، وجدت رجال الأمن في انتظاري عند باب البيت، وأخذوني من يدي إلى الواحات الخارجة لأغيب هناك في بطن الصحراء الحارقة والمجهولة نحو عامين. وعندما أُفرج عني اكتشفت أنَّ قهوة عبد الله قد انهدمت، لم يعد منها شيء، وبحثت عن عبادة في كل مكان، وعندما اهتديت إليه هالني منظره! فلم يكن هذا عبادة الذي أعرفه؛ انطفأ البريق الذي كان في عينيه، وضاع الذكاء وبقيت مسحة الجنون فقط! ولم يعد يصرخ ولكنَّه كان يعوي أحيانًا مثل كلب دهسته سيارة ضخمة على الطريق، كان ينام في قهوة المعلم مُرجان، وكان روَّادها من الباعة والحرفيين، ولم يكن هناك صلة بينها وبين مقهى محمد عبد الله، كان أنور المعداوي، وعبد القادر القط، وزكريا الحجاوي، والشيخ قطامش، وعبد الرحمن الخميسي، ومحمد علي موافي، ونعمان عاشور، وعشرات من

شُبان مصر النوابغ يتناقشون في المقهى ليلًا، وكان ركن أنور المعداوي كأنَّه مصر كلها مصغرة ومطهرة، وكان عبادة جزءًا من هذا الركن.

والآن تغيَّر كل شيء، تغيَّر الزمان والمكان أيضًا؛ حلَّت محل قهوة عبد الله عمارة ضخمة، واحتلَّ مكان القهوة فرع لبنك مصر، توارى الفن قليلًا ليتصدَّر الاقتصاد، وراحت أيام المناقشة، وحلَّت أيام الحساب. المجد الآن للمهندس وللمحاسب، وعلى الناقد والأديب والشاعر والصعلوك أن يتنحَّوا جانبًا، فمصر تدخل مرحلة جديدة وهذه أول خطوة لها على الطريق.

لقد نشأ عبادة وقهوة عبد الله معًا، وذاقا الشهرة والمجد معًا، ثمَّ تنكَّرت الأيام ودارت على القهوة وعلى عبادة معًا، وعندما تحوَّلت قهوة عبد الله إلى أنقاض سقطت الأنقاض كلها على رأس عبادة، وعندما وقع بصري عليه لحظة عثرت عليه في قهوة مرجان خُيِّل إليَّ أنَّه خارج لتوه من تحت الأنقاض، ولقد أنكرني وأنكرته، انتابني الأسف إلى الحال التي وصل إليها، وانتابه الشك لأنَّه لم يعرفني، وكان عبادة على حق فلقد أصابني أنا الآخر ما أصاب قهوة عبد الله وعبادة معًا، انهدم شيء ما فينا جميعًا، انهدمت الأحجار في قهوة عبد الله، وانهدم الذكاء والجنون الذي يقترب من الإلهام في عبادة، وانهدم الإحساس بالأمن في داخل العبد لله، نظراتي أصبحت زائغة، وشعري حلقوه في الواحات، ولم يتعرَّف عبادة على شخصي وفرَّ مذعورًا من أمامي، فقد ظنَّ أنَّني أسخر منه أو أرجو إيذاءه. وتدحرج عبادة بعد ذلك وهجر القهوة وبات على الأرصفة وتشرَّد في الشوارع يلتقط غذاءه من صناديق الزبالة.

وتفرَّقت شلة قهوة عبد الله، انشغل بعضهم بالحياة، وانشغلت الحياة ببعضهم؛ بعضهم غرق في النور وبعضهم انسحب إلى الظل، وبموت أنور المعداوي لم يعد يسأل عن مصير عبادة إلَّا نعمان عاشور أحيانًا وزكريا الحجاوي بين الحين والحين. وذات صباح من يوم شديد القيظ في صيف ١٩٦٣م كنت في طريقي إلى المطار لألحق بالطائرة المتجهة إلى لندن إذا بعسكري شرطة يتمطَّى كسلانَ على الرصيف المواجه لقهوة مرجان وثلاثة من المارة وجثة مُمدَّدة على الرصيف وقد غطوها بأوراق صحف. وسألت عن الخبر وأجابني الشاويش في بلاهة: «ده واد صايع قتلته عربية ليلة إمبارح.»

ولم أعرف أنَّ القتيل الذي كان مُمدَّدًا على الرصيف تُخفيه أوراق الصحف هو عبادة إلَّا بعد ذلك بثلاثة أعوام.

وداعًا عمنا المجنون عبادة، كنت الوحيد الذي نطق بكل ما في صدره في عصرنا، كان له من جنونه حماية، ولكنَّه مات في صمت، ولم يُشيِّعه أحد، وكما جاء وحيدًا ... مضى

وحيدًا، وإن كانت ذكراه بقيت حية في صدور الذين عرفوه وأحبوه، وتمنوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه عبادة من انعدام الوزن والرغبة والحاجة إلى أي أحد أو أي شيء، طبقة من السمو لم يصل إليها إلَّا قلة نادرة من الرجال في التاريخ وقبل التاريخ، ومنهم بالقطع هذا المعتوه عبادة!

شاعر من بغداد

لم تكن قهوة عبد الله قهوة مصرية فحسب، ولكنَّها كانت قهوة عربية أيضًا. وقد شهدها وحضر مجالسها أدباء وشعراء وفنانون عرب من كل الأقطار: عدنان الراوي وشفيق الكمالي من العراق، ونزار قباني وأديب نحوي من سوريا، وعبد الهادي الهوني من ليبيا، ومعين بسيسو وأبو سلمى من فلسطين، والفيتوري من السودان!

كان عدنان الراوي عضوًا أصيلًا في ندوة القهوة، وكان يقضي أغلب أوقاته فيها عقب لجوئه إلى القاهرة هاربًا من طغيان نوري السعيد وعبد الكريم قاسم، وغوغائية من سمُّوا أنفسهم بالتقدميين العراقيين الذين اعتبروا العروبة والقومية رجسًا من عمل الشيطان.

وكان عدنان الراوي شاعرًا، يرى أنَّ للشعر وظيفة واحدة هي القتال ضد أعداء العروبة، ولذلك كان أول من اضطهده نظام عبد الكريم قاسم، ونظام نوري السعيد من قبله، فاضطر إلى الهرب عبر الحدود السورية ومن هناك جاء إلى القاهرة هاربًا من جحيم بغداد، ولَّما كانت له علاقات سابقة بأنور المعداوي فقد اختار السكن في حي الدقي، وجعل من قهوة «عبد الله» مكانًا مُختارًا لتدبيج قصائد من نار ضد العصبة التي استولت على بغداد في غفلة من الزمن.

كان من عادته أن يحضر إلى المقهى في الضحى فيجلس ساهمًا يرقب حركة الميدان، ويظل على هذا الوضع ساعات، ثمَّ ينصرف في الساعة الثانية بعد الظهر ليذهب إلى شقته فيستريح بعض الوقت قبل أن يعود إلى المقهى في السادسة مساءً، فيجلس صامتًا نحو ساعتين، قبل أن يندمج في حوار ساخن حول العروبة والشعوبية والوحدة وأنصار التجزئة والانقسام! وكان يبدو في تلك الأوقات — بالرغم من ضآلة حجمه — كأنَّه بُركان تغلي في أعماقه الحمم، ولكنَّه كان يعود إلى هدوئه وصمته بعد نهاية الجلسة، ويعود إلى الحملقة في الميدان حتَّى يُغلق المقهى أبوابه، فيهب متخذًا طريقه إلى شقته سيرًا على الأقدام، وكان

يسلك طريقًا واحدًا لا يُغيِّره عبر شارع المدارس حيث تقع جامعة القاهرة، ومن هناك إلى شارع الدقي حيث يُقيم. ولقد حاولت مرارًا وفي المرات القليلة التي شاركته فيها رحلة السير على الأقدام أن أسلك طريقًا آخر عبر شارع «مراد» أو شارع «النيل»، ولكنَّه كان يرفض بشدة، فقد كان يشم في شارع المدارس رائحة شوارع مشابهة أحبها في أحياء الأعظمية وصدر القناة والسبع أبكار في بغداد.

وكان عدنان الراوي يعشق بغداد بجنون، كان يتوقَّف أحيانًا كثيرة عند منظر يُصادفه في الطريق ويزفر في حسرة ويقول في هدوء وفي أسى: هذا المنظر له شبيه في سوق الغزل ببغداد، أمَّا شارع النيل فكان يُذكِّره بشارع أبي نواس على شاطئ دجلة، وكان يتردَّد كثيرًا على شارع الموسكي لأنَّه كان يُشبه شارع الرشيد.

وكان يرى أنَّ العراق هو أهم جزء في الوطن العربي وأخطره أيضًا، إنَّه أخطر من فلسطين، لأنَّ فلسطين تقع في قلب الأمة، وقد ضاعت من قبل ولكن العرب استردوها، لأنَّ العرب حولها من كل مكان، أمَّا العراق فهو نتوء خارج من جسم الوطن العربي ويُحيطه أغراب من كل جانب؛ ولذلك فالخطر عليه أكبر، لأنَّ الأعداء يُمكنهم — لو تمكَّنوا — أن يقضموا منه قطعة وراء قطعة، ولو ضاعت قطعة، فمن المستحيل أن تعود، وكان حزينًا ومهمومًا؛ لأنَّ عبد الكريم قاسم وبطانته ليسوا أُمناء على تراب العراق، لأنَّ التراب ليس له قداسة في نظرهم، إنَّما القداسة والفداء للطبقة، بغض النظر عن اللون والجنس والدين. وعندما سألته ذات مساء ببراءة متحمس لم تنضجه الأحداث بعد عن السبب في مجيئه إلى القاهرة، ولماذا لم يستقر في بيروت مثلًا وهي أقرب إلى بغداد؟ قال: هذا سؤال وجيه وإن كانت الإجابة عنه ينبغي أن تكون معلومة لديك. ولمَّا بدا على ملامحي أنَّني لم أفهم، قال: صحيح بيروت أقرب، ولكن في السياسة القُرب والبعد ليس له فضل، ولكن الفضل كله للتأثير، ولهذا السبب جئت إلى القاهرة، لأنَّها أكثر تأثيرًا على بغداد من بيروت أو غيرها من العواصم، ولأنَّ مصر هي القطر القاعدة، وعلى كل المقاتلين من أجل العروبة والحالمين بدولة الوحدة أن يحتشدوا جميعًا في القاهرة وليس في أي أرض سواها، لأنَّ الاحتشاد في مكان آخر هو مضيعة للوقت. ولعل هذا هو السبب الذي أوقع عدنان في تناقض حادٍّ مع بعض فصائل الثورة العربية التي لم تكن تؤمن بما يؤمن به عدنان، ولم تكن ترى ما يراه.

والحق أقول: إنَّني من خلال صداقتي لعدنان الراوي التي امتدَّت عدة سنوات، كنت أتصوَّر — ولا أدري لماذا — أنَّه يعيش سعيدًا في القاهرة، فهو لا يؤدي أي عمل، وهو

يقضي نهاره كله على المقهى مع الأحبة والأصدقاء، وهو حر يقرض الشعر ويتغنَّى ببغداد ويُكافح، وهو في مأمن من الخطر. إلى أن اكتشفت العكس! ففي ذات مرة من المرات التي انفردت فيها بعدنان في المقهى، راح يحكي لي عن القلق الذي يأكله، والألم الذي يعتصر قلبه، وعن الضياع الذي يشعر به غالبًا، وعن الإهانات التي تلحق به أحيانًا من بعض صغار الموظفين «الهلافيت» الذي يعملون في أجهزة الدولة. وقال وهو يزفر بشدة: لولا المبادئ التي أعتنقها والهدف الذي أسعى إليه، لآثرت العيش في بغداد في أي وضع وتحت ظل أي نظام، ولكنَّه قدري، ولم يُولد بعد من يستطيع تغيير مسار الأقدار!

ولم أُصدق عدنان، أو بمعنى أصح لم أقتنع بما قال، ظننته يُبالغ في وصف مشاعره، ولكنِّي وبعد مرور عشرين عامًا على كلمات عدنان الراوي التي قالها لي في قهوة عبد الله ذات مساء، تذكَّرته عندما كنت مقيمًا في المنفى والغربة وقد سارت بي الأقدار إلى موقعه السابق، وأصبحت لاجئًا وقضيت تسع سنوات طويلة في هذه الغربة، وتمنَّيت في بعض الأوقات لو كان عدنان الراوي على قيد الحياة، لقلت له: صدقت يا عم عدنان، فما أبشع أن يشعر الإنسان أنَّه مثل ريشة في مهب الريح! وما أتعس لحظات الحيرة والضياع! وما أفظع أن يتحكَّم في الحُر الهارب بعض هلافيت الموظفين الذين هم لكثرتهم ووجودهم في كل الأقطار، دليل على أنَّنا أمة واحدة دون جدال!

وكلما رجعت الآن إلى تلك الأيام في أواخر حقبة الخمسينيات وأوائل حقبة الستينيات أتذكَّر كيف كان وجه عدنان مرآة لما يحدث في بغداد. عندما اندلعت ثورة الشواف في الموصل كاد يرقص طربًا وتخلَّى في تلك الليلة عن وقاره المعهود، وعندما انتكست الثورة بدا عدنان كأنَّه ميت خارج من قبره، وبعدها صار يائسًا من تغيير الأحوال، وعندما تطوَّرت الأحوال في بغداد إلى الأسوأ، وانطلق المهداوي خلف أحرار العراق وأسرف فيهم قتلًا وتشريدًا؛ أصبح عدنان يختفي من المقهى بالأيام كان يلزم شقته فلا يُغادرها، ويبتعد عن الأصدقاء، فلا يذهب لأحد، ولا يستقبل أحدًا، واعتدنا نحن رُوَّاد القهوة هذا الغياب، فلم نعد نلح في السؤال عندما يبتعد عن أعيننا، ولكن غيابه الأخير طال، فذهبنا نسأل عنه، واكتشفنا أنَّه في المستشفى. وحكى لنا وهو على سرير المرض كيف أنَّه يُعاني كحة شديدة لم يستطع التخلص منها، وقال: إنَّ الأطباء نصحوه بالإقلاع عن التدخين، وضحك في مرارة وقال: لقد أقلعت عن الوطن، والآن جاء دور الإقلاع عن الهوايات! وقال بعد صمت قصير: ماذا يبقى من الإنسان؟ وخرج عدنان من المستشفى ولكنَّه سُرعان ما عاد إليه، وأصبح يتردَّد على المستشفى بين الحين والحين، ولكنَّه ازداد نحولًا، وضربت الصفرة في وجنتيه، وذبلت عيناه وعلَّلنا مرضه إلى شدة حنينه لبغداد.

وأصبح عدنان شديد الخوف، ليس من المرض أو الموت، ولكن خوفًا من أن يموت وهو بعيد عن مسقط الرأس، ودون أن تكتحل عيناه برؤيته من جديد.

وتهدَّمت جدران قهوة محمد عبد الله، وزالت كلها قبل أن ينهار النظام الذي كان قائمًا في بغداد، واضطر إلى مغادرة قهوة عبد الله إلى قهوة إنديانا التي كانت مقصدًا لكل اللاجئين القادمين من بغداد، ولكنَّه كان يؤثر الوحدة والصمت. وذات صباح جاءه الفرج، فقد سقط النظام الذي كان قائمًا في بغداد، وطار عدنان إلى بغداد، ولكنَّه سُرعان ما عاد ليواصل علاجه في القاهرة.

في تلك الأثناء كان الأطباء قد اكتشفوا مرضه الحقيقي، كان داء السرطان قد انتشر في صدره وكبده وتوغَّل في أمعائه، وعندما عاد إلى القاهرة كان قد فقد نصف وزنه، وافتقد حماسه وحيويته، وعندما سألته عن الأحوال في بغداد، أجاب في ابتسامة باهتة: تغيَّرت بغداد، وتغيَّرتُ أنا الآخر. ودخل المستشفى في القاهرة لعدة شهور، ولكنَّه ظلَّ متمسكًا بعادة قديمة لديه، فقد كان يكتب خطابات يومية لعدد من أصدقائه يشرح لهم مرضه وتطوراته ويُضمِّنها أبياتًا من شعره كتبها حديثًا. وكان شعره في تلك الفترة غاية في العذوبة والصفاء، وكأنَّما تحوَّل عدنان فجأة إلى صوفي يُحلِّق في ملكوت الله. واقترح عدنان في أحد خطاباته لأنور المعداوي أن يبحث له عن ناشر في القاهرة ينشر ديوان شعره، وفي خطاب آخر كتب يقول لأنور المعداوي: إذا قُدِّر لي الشفاء فسأُبادر باستكمال بناء داري التي تقع بمنطقة ساحرة على صدر القناة في بغداد. ولكن المرض اللعين كان قد أنشب أظافره في لحمه وفي عظامه، ويبدو أنَّه ملَّ طول الرقدة ومرارة الوحدة، فترك المستشفى وغادر القاهرة عائدًا إلى بغداد.

وعندما زرت بغداد بعد ثورة ١٤ رمضان ذهبت لزيارة عدنان الراوي في منزله بصدر القناة، ولكنِّي كرهت اليوم الذي ذهبت فيه إليه؛ لأنَّني لم أتعرَّف عليه إلَّا بصعوبة، وعندما رأيته أنكرته، لم يكن هذا عدنان الذي عرفته، أين الأمل والحيوية؟ أين البركان الذي كان في داخله؟ والتصميم الذي كان في عينيه؟ لقد انطفأ كل شيء فجأة وأصبح الرجل حطامًا وشبحًا، وهو بعدُ على مشارف الخامسة والأربعين. وبالرغم من ضعفه وذبوله إلَّا أنَّه استقبلني بحفاوة شديدة، وأصرَّ على أن ينهض من فراشه، وتمنى لو استرد عافيته ساعة من الزمان ليقضيها معي في حديقة منزله، وليطلعني على طريقة طهي السمك المسجوف، والذي كان يُحبه وطالما حكى لنا في قهوة عبد الله عن السمك المسجوف، وسألني عن أخبار القاهرة وأخبار الأصدقاء، واستفسر عن مرض أنور المعداوي، وعن أحوال زكريا

الحجاوي، وعندما نهضتُ مُودِّعًا إيَّاه تعلَّقت يده بيدي دقائق، وقال: لقد افتقدت القاهرة ولياليها ومقاهيها، ولكنِّي سأعود إليها قريبًا لأعرض نفسي على الطبيب وأقضي أيامًا مع الأصدقاء. وعندما خرجت من بيته أدركت أنَّها آخر مرة أراه فيها، وأنَّه على وشك الانطفاء روحًا كما انطفأ جسدًا. ولقد حدث ما توقَّعته، فبعد وصولي إلى القاهرة، جاء عدنان إلى القاهرة ليدخل المستشفى مرة أخرى وأخيرة، وبعد أسابيع قليلة مات في القاهرة، وأُقيمت له جنازة كبرى، ونُقِل جثمانه إلى بغداد ليُدفن في أرضها كما تمنَّى دائمًا، ومضى واحد من جيل المثقفين العرب الذين أقلقهم مصير الوطن وأرعبهم ما يلوح على الطريق من نُذُر، وسقطوا وهم يُحاربون — في الداخل وفي الخارج معًا — أعداءً أغرابًا في الخارج، وأعداء محليين في الداخل، ولشدة ما قاتلوا في المعارك سقطوا صرعى قبل الأوان!

وهكذا كان نعمان!

لم يكن عمري يتجاوز الثالثة عشرة عندما رأيت نعمان عاشور لأول مرة، فقد كنت زميل دراسة لشقيقه الصغير، وكان يبدو على أسرته أنَّها على شيء من اليُسر! لم يكونوا أثرياء ولم يكونوا فقراء، ولكنَّهم كانوا «ناس طيبين» بالتعبير المصري الفلَّاحي، ثمَّ اعتدت رؤية نعمان بعد ذلك وهو جالس في ندوة أنور المعداوي على قهوة عبد الله، فقد كان عضوًا أصيلًا في الندوة، بينما كنت أجلس مع شلتي بعيدًا عنها، فلم تكن السن تسمح بعد بالاقتراب من مجلس الأساتذة الكبار! ولكن عندما حدث اللقاء بيني وبين الندوة عن طريق العم زكريا الحجاوي، اكتشفت أنَّ نعمان عاشور هو أقرب أعضاء الندوة إلى العبد لله، فقد كان في منتصف الطريق بيني وبين زكريا الحجاوي وعبد القادر القط والشيخ قطامش، وكانت تعليقاته حارة وساخرة، ولكنَّه كان يتلفَّت حوله في حركة غير إرادية كلما صدر عنه تعليق من هذا النوع، ثمَّ أدركت السر عندما علمت أنَّه كان ضمن المعتقلين الذين ساقهم إسماعيل صدقي باشا إلى السجن، وكان نعمان ضمن الذين أُفرج عنهم رهن المحاكمة! وبالرغم من استقراره النسبي في وظيفة حكومية محترمة إلَّا أنَّه كان دائم القلق، وربما كان خوفه الدائم من الحكومة هو الذي دفعه إلى العمل كسكرتير صحفي للدكتور زهير جرانة وزير الشئون الاجتماعية في عهد فاروق! ومن المؤكَّد أنَّ قيام ثورة جمال عبد الناصر قد خفَّفت من قلقه، وكان في أسعد أيامه عندما جاء إلى وزارة الشئون الاجتماعية رجل فاضل من ريف مصر، تثقَّف في جامعات أوروبا وأمريكا، وانبهر بنظم الحياة، وعاش على أمل أن يسود مصر مناخ مثل هذا المناخ الذي عاش فيه يومًا ما في الغرب. كان الدكتور عباس عمَّار هو الذي بثَّ الطمأنينة في قلب نعمان عاشور، ومن المؤكَّد أنَّ نعمان بدأ يُمارس الكتابة للمسرح في تلك الأيام المبكرة من ثورة جمال عبد الناصر، وعندما كتب «وابور الطحين» لم

تُحدِث الأثر الذي كان يرجوه، كانت أول تجربة، ولذلك جاءت باهتة، ليصدق عليه المثل العربي «المليح يُبطئ» ومعناه أنَّ الحصان الجيد لا يتقدَّم في أول الشوط! ولم يراوده اليأس بعد الشحوب الذي لازم تجربته الأولى، فكتب «الناس اللي تحت»، وكانت هذه المسرحية هي شهادة ميلاد أبي المسرح المصري الحديث. كان المسرح قبل نعمان عاشور روايات شعرية على طريقة روايات المدارس الثانوية للشاعر عزيز أباظة الذي كان يتولَّى — لمدة طويلة من الزمان — وظيفة مدير مديرية أسيوط، وهي وظيفة بوليسية؛ لأنَّ الأمن العام كان أهم المسئوليات المنوطة بالمدير! وكانت مسرحيات توفيق الحكيم لونًا من الترف الثقافي تصلح للقراءة ولا تصلح للتمثيل، وإلى جانب هذه المسرحيات كانت هناك مسرحيات الريحاني وعلي الكسار، وهي كلها مسرحيات فرنسية مُمصَّرة؛ ولكنَّها أبدًا لم تتناول مشاكل مصر الحقيقية، ولم تتعرَّض لهموم المصريين من قريب أو بعيد! لم يكن قبل نعمان عاشور إلَّا مسرحيات يوسف وهبي، وهي مسرحيات خطابية أغلبها، وإن كان بعضها قد تعرَّض لمشاكل مصرية حقيقية، غير أنَّ الفنان يوسف وهبي كان من المؤمنين بشعار «خِف تعوم»؛ ولذلك لم يُحاول الغوص في الأعماق قط! كانت مسرحية «الناس اللي تحت» هي أول مسرحية مصرية حقيقية تُعرض على المسرح المصري، وكان حوارها الموحي الذكي هو أول حوار ينطق بلسان الناس العاديين؛ البواب، والكمساري، وصاحبة البيت، والنصاب، ورجائي الثري الذي تدحرجت به الأحوال إلى السرداب. وأحدثت المسرحية زلزالًا في عموم مصر، وكانت هي السبب المباشر الذي فتح الطريق أمام مواهب كثيرة اقتحمت المسرح المصري بعد نعمان: ألفريد فرج، وسعد وهبة، ويوسف إدريس، وعلي سالم، ومحمود دياب. ولكن ما كاد نعمان يستقر ويُشمر عن ساعده استعدادًا للكتابة، حتَّى حدث ما لخبط كيانه من جديد وأفقده التوازن! لقد اختفى الدكتور عبَّاس عمار وجاء الصاغ كمال الدين حسين إلى الوزارة ومعه طاقم من ضباط المخابرات احتلوا مكتب نعمان عاشور وراحوا يصدرون الأوامر، وكان نعمان مُستعدًّا في كل لحظة إلى التنازل عن مقعده خلف المكتب لأي واحد من هؤلاء حتَّى «سيادة الصول» الذي لم يكن يؤدي عملًا مُعيَّنًا في الوزارة!

وعندما غاب كمال الدين حسين وانتقل إلى وزارة التربية والتعليم حلَّ محله البِكباشي حسين الشافعي، وجاء حسين الشافعي ومن خلفه مجموعة من صغار الضباط الذين خدموا معه في المعسكرات، واحتلَّ هؤلاء مكاتب وزارة الشئون، وكان مكتب نعمان عاشور في مقدمة المكاتب التي احتُلَّت، وانزوى نعمان يجلس أحيانًا في مكتبه؛ ولكن في المكان المخصص لجلوس الضيوف. وعاوده الشعور بالقلق والخوف من المستقبل، وفي تلك الأيام

عكف على كتابة «الناس اللي فوق»، وجاءت صورتها في النهاية مهزوزة كحالة نعمان سواء بسواء! ولكن حظ نعمان الحسن أوقعه في طريق زميلين من كبار الموظفين، كانا السبب المباشر في تهدئة روح نعمان القلقة: سعيد قدري الذي كان مديرًا للعلاقات العامة بالوزارة، ومدحت حمدي الذي كان سكرتيرًا خاصًّا للوزير، وكان سعيد قدري واحدًا من الموظفين الذين اشتركوا في تأسيس وزارة الشئون الاجتماعية، وكان بفكره ومعتقداته تلميذًا مُخلصًا لحزب الفلاح الذي ضمَّ نُخبة من المثقفين الذين تناقضوا مع العهد قبل الثورة، وهو الحزب الذي تعاون مع الثورة في بداية عهدها، ومثله في الحكم الدكتور أحمد حسين، والدكتور عباس عمار، والدكتور فؤاد جلال. وكان رجال هذا الحزب قد تلقوا تعليمهم في أمريكا وتأثَّروا بأسلوب الحياة هناك، وكانوا يحلمون بمجتمع عصري وسلوك حضاري، ولذلك كانوا يذهبون إلى مكاتبهم بالقميص والبنطلون، وبعضهم كان يرتدي القبعة لحماية رأسه من الشمس الحارقة، وكان سعيد قدري يتعامل مع موظفيه كأنَّهم مجموعة من الأصدقاء، وبالطبع وجد سعيد قدري في نعمان عاشور ما هو أكثر من الصديق، فقد كان نعمان هو الفنان الوحيد الذي يعمل بالوزارة، وهو المثقف الوحيد أيضًا الذي يهتم بما هو أوسع من قوانين العمل وخطوات تطبيق الضمان الاجتماعي! وكان مدحت حمدي من جيل نعمان، وكان من أسرة تشبه أسرة نعمان، الفرق الوحيد أنَّ نعمان كان ينحدر من أصول ريفية، بينما مدحت كان من أسرة عاشت في المدينة وشغل أفرادها المناصب العليا في الإدارة والشرطة وقيادة الجيش، وبقدر ما كان نعمان قلقًا كان مدحت حمدي واثقًا من نفسه، وبقدر ما كان نعمان مترددًا كان مدحت مقدامًا، وكان يتعامل مع الوزراء الذين عمل معهم من موقع الند، وكان لا يُخفي رأيه في أحرج المواقف وأشدها حساسية! يُردِّد رأيه في أسلوب العمل، وينتقد ممارسات الثورة أمام ضباطها. وكان لهذه الصحبة أثرها في نفس نعمان، ولعل هذا الشعور الجديد بالاطمئنان هو الذي أنتج في النهاية أعظم روائع نعمان عاشور وهي مسرحية «عيلة الدوغري»! ولقد خسر نعمان عاشور كثيرًا حين ترك مجال الوظيفة واتجه إلى غابة الصحافة، خصوصًا وأنَّ نعمان ليس صحفيًّا؛ ولكنَّه فنان وأديب ومفكر. كما أنَّ أي كاتب صحفي تمرَّس على هذا العمل واعتاده كان باستطاعته أن يخطف انتباه القراء من نعمان عاشور، ولذلك أصبح نعمان هو القلق بعينه بعد أن كان يُعاني القلق فحسب! وضاع نعمان عاشور في خضم التيارات المتضاربة، ولم يرحمه هؤلاء الذين كانوا يكافحون ضد السلطة ويمُنُّون على الناس كفاحهم، ويُعيِّرونهم أحيانًا، ولم يرحمه أيضًا هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بأنَّ السلطة هي روح الشعب، وأنَّ الشرف

الحقيقي يكمن في الوقوف معها ومطاردة أعدائها. وأخيرًا وجد نعمان نفسه في الشارع مفصولًا مع عشرات غيره من الصحفيين، ولم ينقذه من هذه الورطة إلَّا مصطفى أمين، فقد كان يُقدِّر مواهبه ويعتقد أنَّه الطبعة العصرية والشعبية من توفيق الحكيم!

واشتغل نعمان عاشور كاتبًا في أخبار اليوم — ولا يزال. وكان هو الوحيد الذي اشتغل بالكتابة من أفراد الدفعة التي فُصلت في عام ١٩٦٥م؛ ولكنَّه عاد إلى شرنقته القديمة مُحتميًا بحذره وقلقه وتطيره الشديد. وكتب مسرحيات كثيرة بعضها صادف نجاحًا، والبعض الآخر لم يلمع، ولكنَّه بكل المقاييس والمواصفات عَرَّاب المسرح المصري الحديث، وبالتالي فهو عَرَّاب المسرح العربي الحديث كله، وهو رائد النهضة المسرحية الحديثة التي انفجرت كالقنبلة في الستينيات من هذا القرن، ولا يزال صداها يتردَّد عبر السنين. و«رجائي بك» في «الناس اللي تحت»، و«الطَّوَّاف» في «عيلة الدوغري» سيخلدان في تاريخ مسرحنا طالما هناك مسرح ورواد وعاشقون! وليس هناك أحد مِمَّن تبعوه ومضوا على طريقه استطاع أن ينافسه أو يقترب من قمته، ولو كان لنعمان عاشور جسارة يوسف إدريس، وأعصاب سعد وهبة لصار للعرب نجم لامع وعلى قدم المساواة مع إبسن! ولقد استطاع نعمان عاشور بفضل حذره الشديد أن ينجو من المعتقلات والسجون، في الوقت الذي ضمت فيه هذه السجون كل أدباء مصر تقريبًا ما عدا قلة قليلة، إلَّا أنَّه استطاع بالرغم من كل شيء أن يكتب مسرحيات لامعة، وتعرَّض لمشاكل اجتماعية شائكة. ولكن نعمان غاب في العصر الساداتي فلم يكتب شيئًا ذا قيمة حقيقية، فقد أغلق مسرح الدولة أبوابه في وجهه، وعندما اتجه إلى المسرح الخاص لم يستطع أن يُثبِّت أقدامه عليه، فقد كان الانهيار قد شمل كل شيء في البلاد، وحط الخراب على كل مجالات الفنون، وخصوصًا مجال المسرح. واكتفى نعمان في النهاية بتدوين مذكراته أو ذكرياته.

ونعمان هو أفقر الأدباء المصريين «الكبار»، فكلهم — والحمد الله — يرفلون في العز، وبعضهم يملك الضياع والقصور، ولكن نعمان خرج من الدنيا بفيلا على حافة الصحراء الشرقية في ضاحية المعادي، ويعيش وحيدًا تقريبًا بعد أن رحلت السيدة زوجته منذ أعوام عن دنيانا؛ والسبب أنَّ نعمان لم تسمح له ظروف «كتابته» بالاسترزاق الواسع، فهو كتب للمسرح أعظم إنتاجه عندما كانت أعظم مسرحية تُباع بخمسمائة جنيه، وكتب بعض إنتاجه للإذاعة عندما كانت المسلسلة الشهرية يُدفع عنها ثلاثمائة جنيه! وهو اهتم في بداية حياته بكتابة فصول عن تاريخ مصر، وهو لا يُخفي إعجابه بالمعلم الأكبر عبد الرحمن الجبرتي الذي كتب تاريخ مصر في يوميات قصيرة أشبه بالمسرحيات. ثمَّ حاول

كتابة القصة القصيرة؛ ولكنَّه لم يُوفَّق فيها، وإن كان من خلالها قد أثبت مقدرته الفذة على رسم الشخصيات، كما أنَّ حوار الشخصيات في قصصه القصيرة كان حوارًا مسرحيًّا بلا شك. ولعل أشهر أصدقائه هو العم «أبو عبامة» وكان صعيديًّا يبيع القازوزة على مقربة من منزل نعمان في صباه، وكان «أبو عبامة» يتمتع بمواصفات جسدية تؤهله لبطولة العالم في الملاكمة، ولكنَّه كان غبيًّا إلى حد أنَّه لم يكن يستطيع الحصول على قوت يومه إلَّا بصعوبة، وهذا التناقض الحاد في شخصية «أبو عبامة»، سيكون هو محور شخصيات نعمان عاشور، كما أنَّ «عبادة» مجنون قهوة عبد الله ألهم نعمان بدون شك أشياء كثيرة؛ ولكن شخصية نعمان الحذرة المترددة المتوجسة من كل شيء منعته من أن يكون له صلات واسعة بالشارع المصري كزكريا الحجاوي، كما حالت بينه وبين عقد صلات قوية بالوسط الأدبي كأنور المعداوي، واكتفى — كتوفيق الحكيم — بالمشاهدة دون المشاركة، وبالمراقبة دون الالتحام؛ ولكنَّه على العكس لم يلجأ إلى برجه العاجي قط، ولم يفقد وعيه لحظة، بل كان يتأمَّل من الشارع نفسه، ويراقب وهو وسط الجماهير، ويحلم وإحدى عينيه مفتوحة والأخرى نصف مغلقة! ولذلك حمل قضية الجماهير على كتفيه، وحارب في صفها، ولم يكتب حرفًا واحدًا في حياته ضد مصالحها. وبالرغم مِمَّا قدَّمه نعمان عاشور للمسرح العربي بقدر ما تجاهله نُقَّاد النظريات إيَّاها التي روَّجت كثيرًا لأعمال أقل شأنًا من أعمال نعمان عاشور، والتي ذهب بعضها بعيدًا، فرفع ميخائيل رومان — وهو للعلم كاتب مصري وليس كاتبًا أجنبيًّا — درجات فوق نعمان عاشور، وهو موقف غريب من هذه الأقلام سبق أن وقفت موقفًا مشابهًا له حين توَّجت «ش» أميرًا للرواية العربية، وأغفلت ذكر نجيب محفوظ! وفي المقابل تخصَّصت أقلام من نوع آخر في مهاجمة نعمان عاشور، وطاردته تلك الأقلام العفنة حتَّى في الفترات التي اعتكف فيها نعمان، وكف فيها عن الكتابة! ولكن المؤكد أنَّه سيُذكَر في تاريخ مصر الجديد أنَّها أنجبت نجيب محفوظ في الرواية، ويوسف إدريس في القصة القصيرة، ونعمان عاشور في المسرح، وصلاح عبد الصبور في الشعر. وإذا كان سعد وهبة قد تحوَّل إلى منتج، ويوسف إدريس إلى كاتب مقالات سياسية، ومحمود دياب إلى راهب، وألفريد فرج إلى مهاجر بدون سبب؛ فإنَّ نعمان عاشور هو الذي بقي في المسرح وحده، يُعاني اللهب والوحدة والصراخ، وهو الذي سقطت على رأسه شظايا البيت المسرحي عندما نسفه المتآمرون، ومع ذلك ظلَّ يصرخ بقدر ما أوتي من قوة، غير أنَّ صراخه كان خافتًا، وربما لم يكن مسموعًا وسط ضجيج الانفجارات! وللتاريخ أقول: إنَّه لم يقف مع نعمان ولم يثبت مكانه إلَّا علي سالم، وإن كان

هو الآخر قد اضطر إلى الهجرة بعض الوقت، عندما اشتدت الضربات، وتمَّ إحكام الحصار حول أصحاب المواهب.

وإذا كان لنا أن نضيف شيئًا لأمجاد نعمان، فلا بد أن نُقرِّر مطمئنين أنَّه كان صاحب الفضل الأول على بزوغ نجم فرقة المسرح الحر، وهي التي كانت البداية الحقيقية للنهضة المسرحية التي بلغت ذروتها في الخمسينيات، والتي أنجبت فرقة الخميسي، وهي الفرقة التي لفتت نظر السلطة إلى خطورة المسرح، فكانت فكرة إنشاء مسارح التليفزيون، التي بدأت بشكل جيد وانتهت بكارثة حقيقية، بسبب تدخُّل عدم الموهوبين، وإشراف الجهلاء من «دكاترة» السلطة!

ولو كان في مصر رغبة حقيقية الآن في إعادة الروح إلى المسرح المصري، فإنَّ مكان نعمان عاشور الطبيعي اليوم هو حجرة المدير في المسرح القومي، أو حجرة رئيس مجلس الإدارة في مؤسسة المسرح؛ ولكن عيب الذين يُظهرون الرغبة في تجديد المسرح المصري، أنَّهم يُريدون التجديد ولكن في إطار نفس الوجوه التي أغلقت المسرح وشرَّدت أبناءه؟

وعلى كل حال، وإذا كانت العبرة بالخواتيم، فإنَّ خاتمة نعمان كانت على خير ما يُرام؛ فهو قد أدى واجبه نحو أمته، وبذل كل ما لديه للمسرح، وإن كانت ظروفٌ استثنائية قد حرمت المسرح من كل ما لديه. وهو أحد أبناء مصر العظام الذين أسهموا بجهد خلَّاق في إثراء روح مصر العظيمة، وهو واحد من بناة مصر الحديثة، وأثره فيها لا يقل عن أثر مختار في النحت، وحسن فتحي في العمارة، وهو في النهاية واحد من شلة ندوة قهوة عبد الله، زميل أنور المعداوي وزكريا الحجاوي والشيخ عبد الحميد قطامش؛ ولكنَّه وحده كان له الفضل في الصعود على خشبة المسرح بالناس العاديين، صعد بهم وبمشاكلهم وبأحلامهم وبآلامهم، ومنحهم الفرصة ليعرضوا مشاكلهم تحت الأضواء وبمصاحبة المؤثرات الصوتية والضوئية، ولعل هذا هو السبب الذي جعله موضع اضطهاد من السادة أصحاب المصلحة في كل العهود.

طوبى لنعمان عاشور.

زواج الدكتور!

كان اسمه الشيخ، لم يكن هذا اسمه بالضبط، ولكن كان اسم عائلته، أمَّا اسمه الأول فقد نسيته، وكان لقبه الدكتور، فقد كان طبيبًا بيطريًّا، وكان عمله في معالجة الحيوانات يستغرقه طول العام، ولكنَّه كان حريصًا على الوجود في قهوة محمد عبد الله كل مساء، فقد كان على صلة وثيقة بزكريا الحجاوي، وكان زكريا حريصًا على التردد على عيادة الدكتور الشيخ للكشف والعلاج، وكان يُفضِّله على غيره من الأطباء، وكانت فلسفة زكريا الحجاوي تتلخَّص في أنَّ الدكتور الشيخ الذي تفوَّق في معالجة الحيوانات التي لا تنطق ولا تشكو، قادر أيضًا على علاج الإنسان الذي ينطق ويشكو ويعرف موطن الداء.

وكان الشيخ من أسرة كبيرة اشتهرت بإنجاب عدد من مشاهير الفنانين. وكان الدكتور الشيخ شديد الحرص على اقتناء عدد من أعمال هؤلاء الفنانين في منزله، وكان حرصه أشد على الطواف بأصدقائه الذين يتردَّدون على منزله لمشاهدة هذه الأعمال، وكان يسهب في شرح تفاصيل هذه الأعمال، والمعنى الذي تحمله، والهدف الذي يرمي إليه الفنان. وفي هذه الساعات التي كان يطوف فيها بأصدقائه للفرجة على هذه الأعمال الفنية، كان يُثرثر كثيرًا، ويخوض في موضوعات تتعلَّق بهذه الأعمال، وتتعلَّق بغيرها أيضًا، وكان يبدو سعيدًا ومرحًا ومنطلقًا على سجيته تمامًا في تلك اللحظات؛ ولكنَّه إذا جاء إلى قهوة عبد الله واحتلَّ مكانه المختار، لم يكن يفتح فمه إلَّا نادرًا، وأحيانًا يقضي السهرة دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة، وأحيانًا كان زكريا الحجاوي يستفزه ليُجبره على الكلام، ولكنَّه كان يكتفي بابتسامة ويهز رأسه ثم يرفع أصبعه السبابة ويُقرِّبها من شفتيه علامة أنَّه صائم عن الكلام! ولكنَّه في بعض الليالي إذا احتدم النقاش وثار الجدل حول الإنسانية وبدايتها وتطوُّرها، كان ينبري للكلام، ولكنَّه كان لا ينطق أكثر من عبارة واحدة «هذا الموضوع يحتاج إلى جلسة طويلة، وأنا مستعد لحضور هذه الجلسة والاشتراك في النقاش» ولكن

هذه الجلسة لم تُعقد أبدًا، ولم يتَح لأحد أن يشترك في نقاش من أي نوع مع الدكتور الشيخ.

ولكن هذا الصامت الزاهد في الكلام، كان قارئًا ممتازًا، قرأ الأدب اليوناني باللغة اللاتينية التي كان يُجيدها، وأطلع على حضارة الهند وفارس، وكان واسع الإلمام بتاريخ العرب في الجاهلية وبعد الإسلام ... وكان يتردَّد أحيانًا على المسرح، وكان لا يفتح الراديو إلَّا للاستماع إلى نشرة الأخبار، ولكنَّه كان حريصًا على الاستماع إلى حفلة أم كلثوم أول كل شهر، وكان يقرأ إنتاج أدباء قهوة محمد عبد الله، فإذا أعجبه شيء منه، اكتفى بإبداء رأيه بكلمة واحدة هي «برافو»، وإذا لم يعجبه إنتاج أديب من الأدباء ادَّعى أنَّه لم يقرأه لانشغاله في عمله.

كان الدكتور الشيخ أعزب يملك وقته كله، ولم يتردَّد حوله أي كلام يُشير من قريب أو بعيد إلى أنَّه على علاقة بأحد من الجنس الآخر؛ بل كانت حياته تمضي على وتيرة واحدة، يعود إلى منزله في منتصف الليل، ويستيقظ مبكرًا، ويخرج إلى عمله في وزارة الزراعة، ثمَّ يعود إلى منزله لينام بعض الوقت، ثمَّ يذهب إلى عيادته ويقضي فيها عدة ساعات، ثمَّ يأتي إلى قهوة محمد عبد الله ليسهر فيها حتَّى منتصف الليل، ولم يُشاهَد الدكتور الشيخ خارج هذه الدائرة أبدًا، ولم يترك القاهرة إلى غيرها من البلاد، بالرغم من حبه للريف، وشغفه بالبحر، وكان يعشق نهر النيل ويعتبره مصدر الحياة في مصر. وكان حريصًا على أن يشرب من مياه النهر مباشرة طوال شهر طوبة، وكان يدعو كل من حوله إلى الشرب من النهر مباشرة خلال هذا الشهر، فقد كانت هذه هي عادة المصريين القدامى في فجر التاريخ.

ولكن الدكتور الشيخ الذي كان أشبه بقطار سكة حديد يسلك طرقًا معروفة وخطوطًا مرسومة، انقلبت حياته رأسًا على عقب، فقد مات أحد أقربائه، وآلت إليه ثروة طائلة، واختفى الدكتور الشيخ من قهوة عبد الله، وبرَّر البعض سر اختفائه بأنَّه حزين، وزعم البعض أنَّه مشغول بإحياء ما آل إليه من أموال طائلة وعقارات كثيرة وأراضٍ شاسعة؛ ولكن الدكتور الشيخ ظهر بعد عام وقد تغيَّرت أحواله، فقد اقتني سيارة وهجر البيت الذي كان يسكنه على أطراف الصحراء بالقرب من الهرم، واستأجر شقة فاخرة على النيل الذي يعشقه، وفتح أبواب بيته للأصدقاء.

وكانت دائرة أصدقائه قد اتسعت ولم تعُد مقصورة على شلة قهوة عبد الله، ودخلت في دائرة أصدقائه طوائف جديدة: ضباط شرطة كبار، وأطباء مشهورون، وفنانون، ورجال

أعمال. وذات مساء دعا أدباء قهوة عبد الله إلى وليمة في شقته، ولم يكف عن الكلام طوال السهرة، ولم يسمح لأحد — حتَّى ولا لزكريا الحجاوي — بأن ينطق حرفًا واحدًا خلال السهرة، ولكنَّه اضطر إلى ذلك حين أعلن للجميع عن رغبته في هجر العيادة والاستقالة من الوظيفة والتفرغ لمباشرة أعماله التي آلت إليه بالميراث، ولكن زكريا الحجاوي الذي استحسن الفكرة، اقترح عليه أن يُؤسِّس دارًا للنشر، وراح زكريا يشرح ميزة دار النشر، خصوصًا إذا كان صاحبها مثقَّفًا من طراز الدكتور الشيخ، وأضاف زكريا أنَّ لديه كتابًا جديدًا بعنوان بجماليون، ووصف الكتاب بأنَّه إضافة جديدة إلى الأسطورة التي تناولها عدد من مشاهير الأدباء عبر التاريخ، واقترح زكريا عدة كتب لأنور المعداوي، وديوان شعر لمحمود حسن إسماعيل، واقترح أيضًا نشر قصة ألف ليلة وليلة الجديدة لعبد الرحمن الخميسي، وأكَّد أنَّ بداية من هذا النوع كفيلة بتدعيم دار النشر الجديدة، وإفساح الطريق أمامها للنمو لتصبح دار نشر من نوع جديد، وتكون في خدمة القُرَّاء والأدباء، وخصوصًا وأنَّ صاحب الدار غني بفضل الله، ولا يحتاج إلى مزيد. وسكت الدكتور الشيخ ولم يُعلِّق على اقتراح زكريا الحجاوي. وانتهت السهرة بدون الوصول إلى حل أو تحديد الطريق الذي سيسلكه الدكتور الشيخ.

ولكن الذي حدث بعد ذلك أنَّ صلة الدكتور انقطعت بشلة قهوة محمد عبد الله، وصرنا نراه أحيانًا عندما يمر ليلًا على بقالة مخالي لشراء ما يلزمه للسهرات في منزله، وفي البداية كان يعرج على القهوة ويُصافح أفراد الشلة ثمَّ يعتذر لارتباطه بموعد، ولكنه بعد ذلك كان يكتفي برفع يديه لتحيتنا من بعيد لبعيد.

وانقطعت صلتنا بالدكتور الشيخ بعد ذلك، ولم نعد نسمع عنه إلَّا قصصًا حول سهراته التي يقيمها في منزله، وعن أصدقائه الذين ازداد عددهم وارتفع قدرهم، فشملت بعض أصحاب النفوذ، وبعض المشاهير من الفنانين؛ ولكن أغلبها كان من باب الإشاعات، وبعضها كان يتضمَّن مبالغات شديدة؛ ولكنَّا كنَّا نستمع إليها ونُعلِّق عليها ثمَّ ننساها بعد ذلك. وذات مساء انتحى بي زكريا الحجاوي ركنًا وأسرَّ إليَّ بأنَّ الدكتور الشيخ يُريدنا معًا لنسهر في منزله هذه الليلة، ثمَّ انصرف على أن ألقاه عند كوبري عباس في الحادية عشرة مساءً، واستقبلنا الدكتور الشيخ بترحاب شديد، وفوجئت بأنَّ منزله كان خاليًا تمامًا إلَّا منه، وظننت أنَّ السهرة المعتادة لم تبدأ بعد؛ ولكنَّه حين جلس أبلغنا أنَّه قرر الإقلاع نهائيًّا عن السهر، وهجرة شلة الأصدقاء الذين تعرَّف عليهم بعد الثراء المفاجئ الذي هبط عليه، وقال وفي صوته رنة أسى: «لقد جربت الحياة وحيدًا وفقيرًا حتَّى بلغت الخمسين، ثمَّ جربت الغنى والحياة تحت الأضواء وفى الضجيج وبين الأصدقاء عشر سنوات كاملة،

ولكني سئمت كل شيء الآن، وأريد أن أعيش حياة مختلفة كبقية عباد الله، فأتزوج وأقضي بقية عمري في جو عائلي حرمتني منه ظروف كانت أقوى مني ومن الجميع»، وسأله زكريا الحجاوي عن سعيدة الحظ، وهل وُفِّق في العثور عليها، أم أنَّه سيبدأ رحلة البحث عنها في المستقبل القريب؟ واسترخى الدكتور في مقعده، وراح يحكي عن السيدة التي تعلَّق بها قلبه، وهي سيدة في الثامنة والأربعين من عمرها، ولكنَّها جميلة بالرغم من أنَّ ابنتها الوحيدة تبلغ التاسعة والعشرين من العمر، وأنَّه اتفق معها على الزواج والعيش معه في شقته هي وابنتها، وسألنا رأينا فيما هو مُقدم عليه. ولمَّا طال الصمت بيننا، نظر إلى زكريا الحجاوي وقال متوسلًا: «ما رأيك أنت يا أبو الزيك، هل أتزوجها، أم أتوقَّف عند هذا الحد، خصوصًا وأنَّ محسوبكم سيدخل غدًا عامه الستين؟» وقال زكريا الحجاوي في جد شديد: سأسألك عشرة أسئلة، وسيتوقَّف جوابي على أجوبتك لها. وأنصت الدكتور الشيخ إلى أسئلة زكريا الحجاوي، وراح زكريا الحجاوي يُمطره بالأسئلة: هل تشك في إخلاصها لك؟

وكان الجواب: نعم، إنَّني الآن في الستين، وهي كما قلت لك في الثامنة والأربعين، وهي تبدو شابة وجميلة، بينما أبدو أنا عكس ذلك؛ شيخًا ومُحطَّمًا وعلى باب القبر. وقال زكريا: هل هناك احتمال أن تدس لك السم في الطعام؟

وكان الجواب: بالطبع، إذا سنحت فرصة فستفعل ذلك بكل تأكيد.

– إذن هي تطمع في أموالك؟

– بدون شك.

– هل تتصوَّر أنَّها قد تلجأ إلى محاولة الحصول على توقيعك على بعض الأوراق لكي تنفرد بالميراث كله بعد وفاتك؟

– بالطبع ستُحاول ذلك بلا جدال.

– هل تشعر نحوها بحب؟

– طبعًا.

– وهل تشعر هي نحوك بحب؟

– لا ... بكل تأكيد.

وانقطع النقاش بين زكريا الحجاوي والدكتور الشيخ وساد الصمت طويلًا، وفجأة قطع زكريا الحجاوي الصمت وقال للدكتور الشيخ في كلمات قاطعة: إذن تزوجها على بركة الله. وانقضت السهرة بعد ذلك في حوار متقطع حول بعض الأمور التافهة الشأن،

ثمَّ حان الوقت لنستأذن بالانصراف، فودَّعَنا حتَّى الشارع، وعندما مدَّ يده ليصافح زكريا مُودعًا، قال له: يعني دا رأيك الأخير؟

وقال زكريا: توكَّل على الله، ومبروك مقدمًا.

وعندما رحنا نقطع شارع النيل الهادئ الصامت المظلم أنا وزكريا الحجاوي سيرًا على الأقدام صرخت في زكريا الحجاوي: ما هذا الذي فعلت؟ تنصحه بالزواج من امرأة يشك في إخلاصها، ويعتقد أنَّها ستدس له السم في الطعام، وأنَّها ستُدبِّر له مكيدة للاستيلاء على ثروته؟

وهزَّ زكريا الحجاوي رأسه وقال في صوت خفيض: إنت أصلك غبي ...! إنَّه يُريد رأينا في الزواج من امرأة يؤمن أنَّها لا تُحبه ويعتقد أنَّها ستقتله، ومع ذلك يسألنا الرأي، لقد قرَّر الدكتور الشيخ يا محمود أن يتزوَّج هذه السيدة منذ فترة طويلة، ولم يكن سؤالنا إلَّا تحصيل حاصل، ولم يكن حواره معنا إلَّا حوارًا مع نفسه، وسيتزوجها الدكتور الشيخ سواء رضينا أو رفضنا، وهو على أيَّة حال سيتزوجها بعد أيام.

وظننت أنَّ زكريا الحجاوي يخرف، وأسِفت للدكتور الشيخ الذي تصوَّر أنَّه سوف ينجو عندما تعلَّق بزكريا الحجاوي فإذا به يكتشف أنَّه تعلق بقشة؛ ولكن — وهنا العجب — تزوَّج الدكتور الشيخ تلك السيدة بعد أسبوعين من هذا اللقاء وسرعان ما ظهر في المقهى من جديد بعد شهر واحد من هذا الزواج؛ ولكنَّه ظهر مُتكلِّمًا على غير عادته الأولى، وكان يستخدم يديه أحيانًا في النقاش، وبدا أنَّه غير سعيد بالمرة في هذا الزواج!

وذات مساء ظهر في المقهى واصطحب زكريا الحجاوي معه، وعلمنا بعد ذلك أنَّهما ذهبا إلى المأذون وأنَّه طلق زوجته، وعاد في المساء التالي ليُخبرنا أنَّه اتفق معها على عدم مقاضاته نظير خمسين ألفًا من الجنيهات، ثمَّ أعلن للجميع أنَّه قرَّر التفرُّغ للحياة، وأنَّه سيقوم بسياحة حول الأرض وسيزور بلادًا كثيرة ومُدنًا كان يسمع بها، وأنَّه سيعيش للعيش فقط وليس لأي شيء سواه!

ولكن الدكتور الشيخ لم يبرح مكانه في شقته بالجيزة، فقد مات ذات مساء، ولم يكتشف أحد موته إلَّا بعد ذلك بثلاثة أيام، وذهبنا خلفه نُشيِّعه ... البائس الذي سلك كل الطرق، ولعب على كل الاحتمالات، ولم يُحقِّق في النهاية إلَّا الخسارة، وخرج من الحياة وحيدًا، وكما بدأ عاد!

مشروعات الأستاذ حريقة

أغرب أدباء قهوة محمد عبد الله كان مهندسًا ويشتغل بإطفاء الحرائق، وكانت صلته بالقهوة وبالأدباء بسبب زمالته القديمة لواحد من فرسان القهوة هو زكريا الحجاوي؛ إذ كانا زميلين في مدرسة الفنون والصنايع، والتي خرَّجت جيلًا عملاقًا من المهندسين العظام، ولكنَّها أُغلقت في حقبة الثلاثينيات لأسباب سياسية، وخسرت مصر بإغلاقها معهدًا فنيًّا ممتازًا ومن أعظم طراز.

كان مهندس الحرائق قد بدأ حياته ضابط مطافئ في الشرطة، ثمَّ استقال والتحق بالعمل في إحدى شركات البترول الأجنبية الكبرى العاملة في مصر، مِمَّا أتاح له دخلًا محترمًا جعله يبدو في شلة الأدباء المعسرين جميعًا أشبه براعٍ للأدباء ومنقذ للأزمات التي تعصف بهذا المحيط الغني بالفكر الفقير بالمادة!

وكان المهندس يكتب قصصًا قصيرة أحيانًا يقرأها على الجالسين في قهوة عبد الله ثمَّ يُمزِّقها وينساها بعد حين. وأحيانًا كثيرة كان يُثرثر حول أفكار أدبية يُريد أن يكتبها ثمَّ ينسى الأمر كله بعد حين! ومرة واحدة دوَّن عدة فصول من رواية شرع في تأليفها، وكان يقرأها على بعض الأصدقاء، حتَّى استمع إليها ذات مرة عبد الحميد قطامش، فسخر منه بشدة جعلت المؤلف المهندس يتخلَّص منها بالتمزيق.

وكان عبد الحميد حمدي ومهنته الهندسية وشهرته «حريقة» يبدو كمن ضلَّ الطريق في الحياة، كان يتمنَّى في أعماقه لو أنَّه كان من أصحاب القلم أو من أهل الفن، ولو واجه الجوع والفلس والضياع. وقد سعى في فترة من فترات حياته إلى تعلم العزف على العود، وأجهد نفسه في محاولة تلحين بعض الأغاني، وكان يعزفها في الأُمسيات التي يعقدها في بيته الفخم القابع على ربوة على شاطئ البحر الأحمر في السويس؛ ولكن فنه الموسيقي لم يكن أسعد حظًّا من إنتاجه الأدبي؛ فكان موضع سخرية الأصدقاء من أهل الفن والأدب،

وغالبًا ما كان يثور بشدة ويتهم شلة الأصدقاء بالحقد والغيرة والخوف من أن يذيع صيته، وتضرب شهرته شهرة الآخرين، وبالطبع لم يكن موقفه هذا إلَّا مُشجِّعًا لشلة الأصدقاء على التمادي في السخرية وتشريح أعماله الفنية بقسوة ليس لها مثيل، ولكن عبد الحميد كان يبدو سعيدًا بصحبة هؤلاء الأصدقاء، وفخورًا أيضًا على نحو ما، وإلَّا لما كان هذا الإصرار من جانبه على توطيد أواصر الصداقة والأُخوة، بل كان حرصه أشد على عقد السهرات التي تضم هؤلاء الأصدقاء في منزله، وكان يبدو كريمًا في تلك السهرات على عكس مسلكه مع نفس الشلة خارج منزله، وكان هذا المسلك من جانب عبد الحميد موضع ثورة شديدة ونقد دائم من جانب الشاعر محمود حسن إسماعيل.

ولقد استطاع المهندس عبد الحميد حمدي أن يدخل تاريخ الأدب رغم أنفه، فقد كتب عنه الفنان زكريا الحجاوي فصلًا شيِّقًا في كتابه الكوتشينة، وداعبه الشاعر محمود حسن إسماعيل بقصيدة صغيرة، وأطلق عليه عبد الحميد قطامش لقب «الأبتر»، باعتباره أنَّ ذيوله الأدبية كالقصائد والقصص والروايات التي يكتبها ثمَّ ينساها بعد حين، باعتبارها ذيولًا مقطوعة ومبتورة وصاحبها بلا ذنب، فهو الأبتر. وكان عبد الحميد يضحك كثيرًا على هذه التسمية، ويُعلِّق عليها بأنَّها شهادة بفضله على الآخرين، لأنَّه بلا ذيل؛ بينما الآخرون بذيول!

وبالرغم من مهنة عبد الحميد حمدي وخطورتها أيضًا، إلَّا أنَّه كان يتحيَّن الفرص للهروب من جحيم مهنته إلى قعدات الأدباء والفنانين، وكأنَّه يريد أن يعيش بخياله في عالم لم يستطع أن يحيا فيه على قدميه، وأحيانًا كان يُعاني بشدة من هذه الصحبة، ولكنه كان على استعداد لتحمُّل كل شيء وأي شيء في سبيل أن تزدهر هذه الصحبة وتمتد.

ذات مرة أقنعه زكريا الحجاوي بتوصيله لمكان قريب جدًّا من القاهرة، إذ كان المهندس عبد الحميد يمتلك سيارة فرنسية الصنع في الوقت الذي كانت فيه السيارات الخاصة نوعًا من الترف المُبالغ فيه، ولمَّا كان المهندس عبد الحميد حمدي لا بد أن يعود إلى السويس ليستكمل عملًا هامًّا بدأه ولا بد من استكماله في الصباح التالي؛ فإذا علمنا أنَّ عمله كان يتعلَّق بإطفاء الحرائق في شركة تعمل في حقول البترول لأدركنا مدى الأهمية التي تُوجِب وجود المهندس في مكان عمله في الوقت المحدد؛ ولكن من قال: إنَّ زكريا الحجاوي الفنان حريص على إطفاء الحرائق حتَّى ولو كانت في شركات البترول؟! إنَّه ذاهب إلى موعد هايف للغاية، فهو على موعد مع فنانة الشعب خضرة وفنان الشعب أبو دراع، وهو ذاهب للاستماع إلى ملاعيب شيحا من خضرة، والموَّال الأحمر من أبو دراع، وليذهب المهندس

والمواعيد والبترول والحريق بعد ذلك إلى الجحيم، ولا مانع من أن يذهب معهم زكريا الحجاوي، شرط أن يذهب إلى السهرة، وبعد أن يستمع إلى ما يريد.

انطلق الرجل الطيب بالسيارة وبجانبه زكريا الحجاوي في الطريق إلى قليوب — وهي ضاحية قريبة جدًّا من القاهرة — وقد تصوَّر المهندس عبد الحميد أنَّها وجهة زكريا الحجاوي، ولكن زكريا الأديب راح يحكي قصصًا من جعبته المليئة بالقصص، وكان يعلم عشق عبد الحميد لمثل هذه القصص وشغفه الشديد للاستماع إليه، وظلَّ الرجل يسوق على طُرق ممهدة وعلى طُرق لم تُمهَّد بعد حتَّى أشار إليه زكريا الحجاوي بالتوقف عند قرية على بُعد مائتي كيلومتر من القاهرة وتُدعى مُطوبَس، وهي قرية مصرية ترقد على ربوة عالية، وتطل على فرع رشيد، وتشرف على قناطر أنشأها محمد علي في زمن سابق؛ ولكنَّها تُضفي على القرية مسحة جمال ليس لها مثيل. ورغم أنَّ المهندس عبد الحميد ثار على زكريا الحجاوي وصرخ فيه، إلَّا أنَّه جلس يستمع حتَّى الصباح مع زكريا الحجاوي، وعاد معه أيضًا، وقرر أن لا يخالط زكريا الحجاوي أو يتحدث معه أو يصافحه، وأن يبتعد عن طريقه وإلى آخر العمر. وهمس الصديق عبد الحميد قطامش في أذني بضرورة التدخُّل لإصلاح ذات البين، ولكنِّي لم أُبْدِ اهتمامًا بما همس به قطامش؛ بل إنَّني لم أُبْدِ أي اهتمام لمحاولات الأصدقاء الآخرين لجمع شمل زكريا وعبد الحميد، والسبب أنَّني كنت أعرف ما الذي سوف يحدث بينهما مستقبلًا.

ولقد حدث ما توقعته بالضبط، ذات مساء دخلت المقهى وإذا بزكريا الحجاوي مستلقٍ على ظهره يضحك من الأعماق ضحكة صافية، بينما عبد الحميد حمدي يضحك هو الآخر وقد تقوَّس ووضع يديه على معدته حتَّى لا تنفجر من شدة الضحك. روى لي زكريا الحجاوي كيف اجتمعا، ولماذا استغرقتهما نوبة الضحك، فقد ذهب زكريا إلى المقهى فلم يجد أحدًا في الركن الذي اعتادت شلة الأدباء الجلوس فيه، ولكنَّه لمح عبد الحميد يجلس وحيدًا داخل المقهى كأنَّه لا يريد أن يرى أحدًا من أفراد الشلة، وأشار زكريا الحجاوي إلى واحد من باعة الفاكهة الذين كانوا يفرشون الأرض أمام المقهى، وكان زكريا موضع احترامهم جميعًا وحبهم أيضًا، وأمر زكريا البائع بالذهاب إلى الأفندي الجالس في الداخل، وأشار نحو عبد الحميد، وقال للبائع روح للسواق وقول له كلم البيه بره عاوزك!

وذهب الرجل بسلامة نية إلى عبد الحميد وأمره بأن يُسرع للقاء البيه، ولكن عبد الحميد شخط في بائع الفاكهة وأمره بالانصراف، ولكن الرجل الذي كان يُحب زكريا الحجاوي ويُطيعه ومستعدًّا لتنفيذ أوامره ولو أدَّى به الأمر إلى الليمان، أمسك بعبد الحميد

من رقبته ليجره إلى حيث يجلس البيه، وغضب عبد الحميد غضبًا شديدًا، وصفع البائع على وجهه، فما كان من البائع إلَّا أن صفع عبد الحميد باعتباره سائق سيارة البيه، وأسرع زكريا الحجاوي إلى التدخُّل عندما تطوَّرت الأمور إلى هذا الحد، ولكن بائع الفاكهة الذي كان قد جنَّ جنونه قرَّر أن يُواصل المعركة إلى النهاية، ولم يجد زكريا بُدًّا من صفعه لكي يتوقَّف، إلَّا أنَّ البائع أنشب أظفاره في رقبة زكريا الحجاوي ولم يُخلِّص زكريا منه إلَّا رجال الشرطة، وعندما انتهت المعركة جلس زكريا وعبد الحميد يضحكان من الأعماق.

والأغرب أنَّه في نهاية تلك السهرة، سافرت مع زكريا الحجاوي في سيارة عبد الحميد إلى مولد السيد البدوي في طنطا، وسهرنا هناك حتَّى الصباح، والأغرب أنَّ عبد الحميد بعد أن عاد بنا في الصباح إلى القاهرة، وجَّه إلينا لومًا شديدًا لأنَّنا صرفناه عن عمله الهام، وأقسم ألَّا يرانا مرة أخرى، وقد برَّ بقسمه، فلم يزرنا مرة أخرى خلال ذاك النهار، ولكنَّه عاد في اليوم التالي وسهر معنا حتَّى مطلع الفجر.

ولقد ظلَّ عبد الحميد على اتصال بالجميع حتَّى واراهم التراب، وذهب خلف زكريا الحجاوي، وسار خلف قطامش، وبكى في جنازة محمود حسن إسماعيل، واشترك في حمل نعش أنور المعداوي، وظلَّ وفيًّا لهم ولذكراهم، يحتفظ بقصاصات ورق كتبها زكريا الحجاوي، وشرائط تسجيل لسهرات في بيته ضمَّت قطامش وآخرين.

وبالرغم من السنين الطويلة التي عاشها عبد الحميد في صحبة الأدباء والفنانين، إلَّا أنَّه لم يترك مهنته قط، ولم يُقصِّر في أداء عمله أبدًا، وصار في النهاية واحدًا من أكبر خبراء إطفاء حرائق البترول في مصر. وطار مرة إلى العراق ليُشرف على إطفاء حريق شبَّ في أحد آبار البترول هناك، كما سافر إلى بلاد عربية أخرى أيضًا لنفس الغرض؛ ولكن قلبه الذي يعشق الفن، اتسع لحب مهنته إلى درجة التفاني، وكان اسم «حريقة» الذي أطلقته عليه شلة الأدباء هو التعبير الحقيقي عن واقع يعيشه عبد الحميد، كان حديثه دائمًا عن الحرائق وكيفية إطفائها، وعن الأمن الصناعي وفروعه وأساليبه وطرقه المُتشعبة. كان حريصًا على أن يحمل معه دبوس إبرة في أي مكان يذهب إليه، وكان يستخدمه عند التدخين، كان يخرم به السيجارة في أسفلها، وكان هذا الخرم يتيح للدخان أن يتسرَّب أثناء التدخين، وكان يؤكد أنَّ النيكوتين والقطران يتسربان من هذا الخرم ويبقى الدخان الذي لا يؤذي الصدور. وكان يُطلق شاربه بطريقة مُعيَّنة ومضحكة، ولكنَّه كان يُؤكِّد على أنَّ الأسلوب الذي أطلق به شاربه هو الطريقة العملية التي تحمي أنفه ورئتيه من غبار الطريق.

وكان شديد الحرص على التفتيش بنفسه يوميًّا ليتأكَّد من أنَّ الأمن الصناعي مُطبَّق بحذافيره في كل قسم من أقسام الشركة، وكان يبدو في أحسن حالاته عندما يُخْطَر بنشوب

حريق في أحد آبار البترول، وكان يبدو في زيه الغريب كأنَّه روميل على خط النار. ولكن قلبه تحطَّم ذات صباح عندما تحطَّمت منشآت الشركة ولم يستطع أن يُقدِّم لها يد المساعدة، لأنَّ التدمير لم يكن بفعل النار التي تشب في مثل تلك المواقع، كان التدمير بفعل مدافع إسرائيل وصواريخها، وقد أرادوا الانتقام بعد إغراق المدمرة إيلات، فصوَّبوا مدافعهم وصواريخهم على منشآت شركة تكرير البترول بالسويس وظلُّوا يقذفونها لمدة ثلاثة أيام كاملة حتَّى أصبحت المنشآت أثرًا بعد عين.

والغريب أنَّ عبد الحميد بدا بعد هذه الكارثة كأنَّه جزء من منشآت الشركة، فقد انهار تمامًا كأنَّه أحد الجدران التي انهارت من العدوان، وصار أكثر شرودًا وأقل ثرثرة عمَّا كان، لقد عاشت الشركة زمنًا طويلًا تحت حمايته، كان يُطفئ الحرائق التي تشب، وكان يمنع الحرائق قبل أن تنشب، ولكن جاءت لحظة حرجة وقاتلة، احترقت الشركة كلها أمام عينيه ولم يستطع أن يفعل شيئًا، وماذا كان في وسعه أن يفعل والقذائف تنهال على الشركة كأنَّها مطر ينهال من السماء، ومع ذلك حاول عبد الحميد في البداية وقد كانت النية صادقة والإمكانيات متوافرة، ولكن القذائف التي كانت تنهال عليهم بمعدل عشر قذائف كل دقيقة لم تترك فرصة لأحد لأن يفعل شيئًا، والتهمت النيران الشركة حتَّى الأرض.

وعاش عبد الحميد بعد ذلك وقد انطفأت اللمعة التي كانت في العيون، والجذوة التي كانت في الروح، والرعشة التي كانت في القلب كأنَّما انتهت الحياة؛ عندما أتت النيران على كل شيء في معمل تكرير البترول في السويس. ولقد اعتزل عبد الحميد العمل، وصار مستشارًا فنيًّا لشركات البترول، ولكنَّه يحن دائمًا إلى السويس حيث العمل الذي وهبه روحه، والجيزة، حيث الشلة التي أعطاها حياته، وربما المحنة التي عاشها أيام حرب الأيام الستة، وبعد ذلك في حرب الاستنزاف هي التي أرغمته على اللحاق بموكب المؤلفين، فقد صار مُؤلِّفًا رغم أنفه، فقد عكف على تأليف كتاب عن الحريق في الأعماق، وهو عن حرائق آبار البترول: أسبابها وطرق مكافحتها، من خلال الخبرة والتجربة والسنين الطويلة. وبالرغم من ذلك ما زال المهندس عبد الحميد الذي شارف السبعين يعزف على العود، ويُحاول كتابة قصص قصيرة وأحيانًا روايات يُمزِّقها بعد ذلك وينساها بعد حين.

أدباء ضاعوا في الزحام

لماذا يوقد الحظ الشموع لأديب ويطفئها حول أديب آخر؟ لا جواب! فمصائر بني آدم تتحكَّم فيها ظروف وملابسات وأسباب، ولا أحد يستطيع أن يُحدِّد السبب أو يكشف السر، ولذلك تبقى كل الأسئلة في هذا المجال بلا أجوبة. وتكون النتيجة: أديب يشتهر، وأديب يختفي، وربما كانت موهبة الاثنين من نفس القماش، وقدرتهما على نفس المستوى! وهذا القانون طبَّقته الحياة أيضًا على أدباء قهوة محمد عبد الله؛ البعض لمع، والبعض انطفأ، والبعض ذاع وشاع أمره بين الناس، والبعض ضاع في الزحام!

وبين أدباء قهوة عبد الله أربعة من أبرز هذا النوع من الأدباء الذين وقف الحظ في مسيرتهم، وحال بينهم وبين الظهور والاستمرار، والأربعة هم: أنور فتح الله، وكمال منصور، وهاشم السمَّان، ومحمد إبراهيم، ولقد امتاز الأربعة بالطيبة وعدم الرغبة في الصراع.

كان أنور فتح الله من نفس جيل زكريا الحجاوي وأنور المعداوي ومحمود حسن إسماعيل، وكان يكتب مقالات في النقد، وقد قرأت له أول مرة في مجلة «الميزان» التي أصدرها زكريا الحجاوي في الأربعينيات ولم تُصادف رواجًا واضطرت للاحتجاب بعد حين. ثمَّ أهمل الأدب تمامًا وانشغل بالحصول على ليسانس الحقوق بعد أعوام طويلة انقطع فيها عن الدراسة، وقنع بالعمل موظفًا حكوميًّا بشهادة البكالوريا، واختفى من قهوة محمد عبد الله ولم يعد يظهر فيها إلَّا مساء الخميس، وكان يسهر ليلتها إلى ساعة متأخرة، ثمَّ يعود إلى الاختفاء بقية أيام الأسبوع.

ولم أرَه في حياتي مُتحمِّسًا لشيء قدر حماسه للحصول على ليسانس الحقوق، وكان يرى أنَّ الحياة غابة، وأنَّ السلاح الوحيد الفعال هو الشهادة، خصوصًا في بلد (بتاع شهادات). وعاد أنور فتح الله إلى قهوة عبد الله وفي جيبه السلاح الوحيد الفعال في غابة

البلد (بتاع الشهادات)، وبدا سعيدًا، فقد حصل على بوليصة التأمين ضد كل المخاطر والأهوال! ولكن حنينه للأدب دفع به إلى الاشتراك في تحرير بعض المجلات الأدبية قليلة الانتشار والتأثير، ولكنَّه كان يبذل جهدًا لا بأس به في كتابة بحوث أدبية وآراء نقدية ومحاورات مع بعض النُّقَّاد والأدباء. وفي أواخر الخمسينيات اتجه إلى المسرح يقتبس روايات من الأدب الفرنسي ويمصرها، حتى جاءت الستينيات وأصبح واحدًا من أبرز مؤلفي مسارح التليفزيون، واستحدث بالاشتراك مع السيدة أمينة الصاوي لونًا جديدًا في المسرح، بإعداد مسرحيات مأخوذة من روايات مصرية لأشهر الكُتَّاب، وعلى الأخص روايات نجيب محفوظ، وكان يبدو شديد النشاط في تلك الأيام وسعيدًا على نحو ما، وفخورًا بما يقدمه للمسرح من أعمال. وفجأة، وبلا أسباب — وربما لأسباب لا ندريها — خفت صوته، وشحب نوره، وانسحب إلى الظل وإلى الظلام. ومنذ أكثر من خمسة عشر عامًا لم أسمع بأنور فتح الله ولم أسمع عنه شيئًا، ولا أدري إذا كان حيًّا يرزق، ولا أعلم إذا كان مُقيمًا في مصر أو رحل عنها إلى غيرها من البلاد!

ويبقى السؤال، لماذا سكت أنور فتح الله؟ ولماذا ابتعد عن النور وآثر الظلام؟ وكيف انتهت الحياة بهذا الرجل؟ الذي كان ضخم الجثة، كبير القلب، المتفائل دائمًا، الهادئ الأعصاب في كل الأوقات. لا أعتقد أنَّني أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة، ولا أعتقد أنَّ أحدًا آخر يستطيع الإجابة! ولكن النتيجة أنَّ أنور فتح الله كفَّ عن مواصلة الفن الذي أحبه، وعفَّ عن الشهرة، ولزم مكانه في الظل، لعله عثر هناك على السعادة التي كان يبحث عنها بعيدًا عن صخب الشهرة وزحام الأضواء!

وكان كمال منصور زميلًا لأنور المعداوي في كلية الآداب، واشتغلا معًا بالتدريس، وكان أيضًا من رُوَّاد قهوة محمد عبد الله، وكان شاعرًا رقيقًا وحالمًا، وكان شعره قريبًا من شعر صالح جودت؛ ولذلك استخدمته إحدى المجلات الأدبية الشهيرة ليكتب لها أربعة أبيات من الشعر كل عدد كتعليق على صورة من رسوم واحد من الفنانين العظام، ولكن كمال منصور تخلَّص من هذه المهمة واتجه إلى الأغاني، وكتب منها عددًا لا بأس به تغنى بها بعض المشاهير من المطربات والمطربين، ولحَّنها كبار الملحنين. ولكن فجأة اختفى كمال منصور من قهوة محمد عبد الله، وانسحب من الوسط الفني، وكان قد انسحب من الوسط الأدبي قبل ذلك وتفرَّغ للوظيفة، والأكيد أنَّه حقَّق فيها نجاحًا كبيرًا؛ لأنَّه وصل فيها إلى آخر السلم، وحصل على درجة وكيل وزارة للتربية والتعليم.

والأكيد أيضًا أنَّ اختفاء كمال منصور يختلف في أسبابه عن اختفاء أنور فتح الله، وأغلب الظن أنَّ كمال منصور الذي كان زميلًا لأنور المعداوي ومُعجبًا به على نحو ما

قد تأثر لنهاية أنور المعداوي المأساوية، ومصيره الذي كان غاية في الظلم الصارخ والألم الشديد عندما طُرد أنور المعداوي من إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم وأُطيح به من مكتبه العالي إلى وظيفة مدرس في مدرسة السلحدار الابتدائية، ثمَّ ثورة أنور المعداوي على هذا الوضع بعد ذلك، واستقالته من العمل الحكومي، وبقاؤه فترة طويلة بلا عمل وبلا مرتب، ثمَّ مرضه الشديد بعد ذلك ووفاته آخر الأمر.

ربما كان هذا الحادث المؤسف هو سبب قرف كمال منصور، وابتعاده عن الأضواء، وأيًّا كانت الأسباب، فقد خسرنا شاعرًا رومانسيًّا رقيقًا ينتمي إلى نفس مدرسة علي محمود طه، وصالح جودت، وكامل الشناوي، وأحمد فتحي، مع اختلاف درجات الموهبة والاستعداد.

أمَّا ثالث الفرسان فكان هاشم السمَّان، وكان موظفًا في مصلحة الاستعلامات، ويُمارس في أوقات فراغه هواية نظم الزجل بالعامية المصرية، وكان زجله من النوع الطيب مثل صاحبه، ويُنبئ عن نفسية إصلاحية ترى أنَّ الحياة يمكن أن تمتلئ بالخير لو انصلحت أحوال الناس واعتنوا بترقية أخلاقهم، وحافظوا على العمل الطيب وسلوك الطريق المستقيم.

وكان هاشم السمَّان الزجال يرى أنَّ الشر ينبع من نفس الإنسان وليس لظروف حوله، وأنَّ الجوع والمرض والفقر هي نتيجة إهمال الناس وعدم إيمانهم؛ ولذلك كانت أزجاله كلها تلف وتدور حول فوائد الزواج المبكر، وضرورة التردد على المساجد، وهجر أماكن الفساد، والابتعاد عن صحبة السوء، والحذر من الحاسدين واللئام، وكان يرى الحياة وردية، لولا الفاسدين من الناس، وأنَّ الظروف كلها متاحة، والأمور كلها سهلة لولا الأحقاد والبغضاء! وكانت أزجاله تُقابَل أحيانًا بثورة عارمة من جانب الشباب المثقف الذين يترددون على قهوة عبد الله، ولكنَّه لم يكن يُقيم وزنًا لمثل هذه الأصوات، وكان يعتقد في نفس الوقت أنَّه لو أُتيحت له فرصة ليذيع أزجاله على الناس من خلال جهاز الإذاعة، فمن المؤكد أنَّ الأحوال كلها ستنصلح ... أحوال البلاد والعباد!

ولكن هاشم السمَّان الذي كان مؤمنًا إلى أقصى حد بأزجاله وأفكاره، اختفى فجأة، وانسحب إلى الظل وإلى الظلام، لماذا؟ لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال، ولا أعتقد أنَّ هناك شخصًا يستطيع الإجابة؛ ولكن، النتيجة أنَّنا خسرنا زجَّالًا إصلاحيًّا طيبًا، بينما اشتهر غيره من الزجَّالين كانت لهم نفس موهبته، وربما نفس وجهة نظره في الحياة!

أمَّا رابع الفرسان فهو محمد إبراهيم، الذي كان واحدًا من أبناء الصعيد الجواني، وقد شدَّه بلدياته الصحفي الكبير محمد علي غريب إلى الصحافة والكتابة، وصار محمد

إبراهيم بعد فترة، واحدًا من نجوم المجالس الأدبية في مصر؛ فقد كان خفيف الدم، وكانت لهجته الصعيدية التي حرص عليها تُضفي عليه مسحة من الغرابة والقبول!

واشتهر محمد إبراهيم عندما كتب عن نوادر الأدباء القدامى ومساجلاتهم الظريفة، ومعاملة السلاطين والولاة للشعراء والأدباء في سالف الزمان، وكان يرى الجانب الظريف في الحياة، ويؤمن بأنَّ مهمة الأديب هي تجميل الحياة، ومدح السلطان العادل، وتقديم الحكمة والمثل العليا لعامة الناس؛ ولكنَّه رغم ظرفه ونجاح إنتاجه الذي كان يكتبه وينشره على الناس لم يُقْدِم على ترك وظيفته، ورفض بإصرار احتراف الأدب أو الاشتغال بالصحافة، بالرغم من كونه عضوًا في جدول المشتغلين بنقابة الصحفيين، ولكنَّه حافظ على صِلاته الواهية بالصحف، وتمسَّك بتردده على مجالس الأدب، وظلَّ على عهده حتَّى وقعت الضربة الكبرى التي أطاحت بمئات من المثقفين والصحفيين والفنانين، وجرجرتهم إلى المنافي والسجون بعد أن احتدم الخلاف بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم في بغداد. وإذا كان هؤلاء المثقفون والكُتَّاب والصحفيون قد اختفوا خلف الأسوار لمدد تتفاوت بين عامين وخمسة أعوام، فقد اختفى محمد إبراهيم نهائيًّا، ليس لأنَّه كان ضمن المسجونين والمعتقلين، ولكن لأنَّه آثر الانسحاب إلى الوظيفة، وكفَّ نهائيًّا عن النشر، وانقطع تمامًا عن المجالس الأدبية، ووصل إلى درجة وكيل الوزارة، ثمَّ إلى المعاش. لماذا اختفى محمد إبراهيم الظريف المتلئ حيوية، الرقيق الحجم والملامح؟ كلها أسئلة لن تجد لها أجوبة، لا عندي ولا عند الآخرين! وكانت النتيجة أنَّنا خسرنا أديبًا ظريفًا ومُحدِّثًا لبقًا ودارسًا للأدب العربي القديم، وكان يُمكنه مع ضربة حظ، أن يُصبح مثل الشيخ عبد العزيز البشري، أو يحل محل الشيخ أحمد العسكري على الأقل.

ويبقى بعد ذلك سؤال هام تطرحه هذه النهايات التي انتهى إليها كل من أنور فتح الله، وكمال منصور، وهاشم السمَّان، ومحمد إبراهيم: لماذا تجف بعض الأعواد الخضراء، وتموت قبل الأوان؟ ولماذا يشحب ضوء بعض المصابيح، مع أنَّ الزيت موجود فيها والفتيلة لا تزال رافعة رأسها، وإن كانت بلا ضوء! إنَّها مسألة عجيبة وتحتاج إلى دراسة، ليس لهؤلاء الأدباء، ولكن للمجتمع الذي عاشوا فيه وللظروف التي أحاطت بهم، وهي دراسة طويلة وتحتاج إلى جهد شديد، ولكنَّنا في أشد الحاجة إليها، ومهما كلفتنا من وقت وجهد ومال، إلَّا أنَّ مضمونها سيكون مُجزيًا إذا استطعنا أن نُحافظ على تلك العيدان الرقيقة التي انسحقت بلا هوادة تحت أقدام الزمان ... وهي نهاية غير عادلة لهؤلاء الذين كانت لديهم الموهبة والاستعداد والرغبة الشديدة في الإبداع، ولكن خارت قواهم فجأة فتخلَّفوا على

الطريق، مع أنَّهم كانوا أصحاب مواهب حقيقية، وربما تقدَّمتهم مواهب مزيفة، ونفوس شريرة لا تعرف الخجل وتُجيد لعبة النفاق والخنوع ومسح الجوخ، ولكن ... هكذا الحياة!

دخل الأستاذ «ع» قهوة عبد الله وخرج منها دون أن يترك أثرًا لا بالسلب ولا بالإيجاب. كان أنيقًا وسط شلة الأدباء، يرتدي «بِدلًا» من الصوف الإنجليزي غالية الثمن، وينتقي أربطة العنق الثمينة، وحذاؤه الإنجليزي الصنع كان يلمع دائمًا، وكان سمينًا تطفح الحمرة من وجنتيه، ومنظره عمومًا كان يدل على البيئة التي عاشها في طفولته، فهو ابن أسرة مستورة من أسر الريف، ولا بد أنَّه كان ينحدر من صلب جراكسة أو صقالبة أو أروام، والذين حكموا مصر دهرًا طويلًا في العصور الوسيطة، وكان الأستاذ «ع» نتاج اختلاط هذه الطبقة بالفلاحين المصريين عندما اضطروا إلى ذلك بعد تدحرجهم من قمة الهرم الاجتماعي بفعل غزاة آخرين. ولم يكن الأستاذ «ع» علمًا على شيء أو نابهًا في شيء؛ ولكنَّه كان يُلِم بأشياء كثيرة، وكان يشترك في النقاش الذي يحتدم أحيانًا بين شلة الأدباء، ولكنَّه كان يشترك بالإيماءة وهزة الرأس، وأحيانًا بكلمات قليلة وعبارات قصيرة كان يُتقن نطقها: في الواقع أنا مش موافق ... أو: لعل وعسى ... أو: ... يعني ... المسألة مش كده بالضبط ... لكن ...! ولم تكن هذه العبارات التلغرافية الشفرية تُنبئ عن الرأي الذي يتبناه أو الجانب الذي يؤيده؛ ولكنَّها كانت كافية لكي يثبت الأستاذ «ع» وجوده بين شلة الأدباء، وأيضًا كانت كفيلة بإدخال السرور إلى قلبه، وإحساسه بأنَّه أدى ما عليه. وأحيانًا كان يبدو شديد السعادة عندما يخلو ركن الأدباء إلَّا من بعض الشبان الذين يترددون أحيانًا على المقهى، عندئذ كان الأستاذ «ع» ينتفش ويبدو كأنَّه شخص آخر.

وكان يُعيد على أسماع هؤلاء الشبان المناقشات التي دارت، ويشرح لهم رأيه فيما دار، وكيف أنَّه أفحم الجميع بطرحه الذي أسكت الجميع، ويظل يردد بشكل منتظم وبطريقة آلية السؤال الذي ألقاه وسط شلة الأدباء كالقنبلة، فنسف الجميع ولم يجرؤ أحد منهم على أن يرد على السؤال، في تلك اللحظة كان الأستاذ «ع» يجلس منتفخًا على الكرسي يشفط من سيجارته أنفاسًا متلاحقة، وقد وضع ساقًا على ساق، عارضًا على أنظار الأدباء الشبان الفقراء حذاءه الإنجليزي اللامع ... ما هو أنا حطيت المسألة على بلاطة ... السؤال بتاعي كان بسيط للغاية ... هو الهدف إيه؟ وبمعنى أصح: هي العبارة إيه؟

وأحيانًا ... وفي الليالي التي كان يُغادر فيها أنور المعداوي القهوة مبكرًا، يجلس الأستاذ «ع» في الصدارة مستعينًا بالشاي الذي «يرشه» على شباب الأدباء في عقد ندوة

ملَّاكي يتحدَّث فيها عن آرائه في الحياة والناس. حدث في العام ١٩٥٥م عندما عرض نعمان عاشور روايته «المغماطيس» أن أدار أنور المعداوي مناقشة مفتوحة حول المسرحية، اشترك فيها الدكتور القط، وزكريا الحجاوي، ويوسف الحطاب ... وفجأة سأل أنور المعداوي الأستاذ «ع» عن رأيه في المسرحية فأجاب في اختصار شديد: «ما هو يعني نعمان عاشور هو كده»! ولم يفهم أحد من الجالسين ... هو كده إيه؟ كما أنَّ الأستاذ «ع» لم يهتم بأن يشرح ذلك. وبعد تلك المناقشة بأيام، اقترب مني الأستاذ «ع» وهمس في أذني بأنَّه يريد مشاهدة مسرحية نعمان عاشور وطلب مني أن أدبر له تذكرة من صديقي صلاح منصور، واكتشفت أنَّه لم يُشاهد المسرحية، وإن كان أبدى فيها رأيًا لا ينفع ولا يضر! ولقد ظلَّ الأستاذ «ع» حريصًا على حضور ندوة قهوة عبد الله حتَّى انهدت من أساسها، كما ظلَّ مواظبًا على الحضور في مواعيد مبكرة والانصراف في وقت متأخر والاشتراك في المناقشات بطريقته وبأسلوبه التلغرافي الغامض! ولكن أغرب ما في قصة الأستاذ «ع» أنَّني لم ألتقِ به قط بعد زوال قهوة عبد الله، كأنَّما انشقت الأرض وابتلعت الأستاذ «ع»، صحيح أنَّ العلاقات بين أدباء الندوة اختلفت بعد زوال القهوة عنها قبلها؛ هناك علاقات استمرت؛ كالعلاقة بين الثالوث الشهير: القط-المعداوي-شعبان، وعلاقات تقطَّعت بعض خيوطها وإن بقيت بعض خطوطها مشدودة، كالعلاقة بين عبد الحميد قطامش وزكريا الحجاوي من جهة وشلة الندوة من جهة أخرى، وبعض أدباء القهوة يتردَّدون في زيارات متباعدة وخاطفة على زملاء الندوة، ولكن الأستاذ «ع» هو الوحيد الذي اختفى تمامًا وغاب في زحام البشر. أين؟ لا أدري، ولا أعتقد أنَّ أحدًا غيري يدري أين ذهب الأستاذ «ع» بعد أن انفضَّ مجلس قهوة محمد عبد الله! ولكن زكريا الحجاوي قال بأنَّه عاد إلى قريته ليتولى منصب العمدة خلفًا لقريبه العمدة الذي مات، وأعتقد أنَّ الخبر الذي أذاعه زكريا كان تشنيعة أكثر منه خبرًا، وأنَّ تشنيعة زكريا كانت تحمل رأيه في أكثر المناصب لياقة لمواهب واستعداد الأستاذ «ع».

الفارس الآخر الذي اختفى فجأة من قهوة عبد الله كان الأستاذ «د»، والأستاذ «د» كان ضابطًا في الجيش، ولكنَّه حوكم أمام محكمة عسكرية خلال حرب فلسطين، وطُرد من صفوف الجيش لأسباب ليس هنا مجال ذكرها، واضطر الأستاذ «د» إلى افتتاح دكان لكي وغسيل الملابس في حي العجوزة، وانتسب في الوقت نفسه لكلية الآداب وراح يشق طريقه بالرغم من الظروف التعيسة حتَّى حصل على ليسانس الآداب، وهنا ترك دكان الغسيل وعاد ليمارس حياته الجديدة كأديب، واتخذ من قهوة عبد الله مكانًا مختارًا ومحطة انتظار

لاصطياد فرصة لا بد أن تسنح مهما طال الزمان! ولكن الفرصة لم تُتَح قط. وكانت غلطة الأستاذ «د» الكبرى أنَّه تصوَّر أنَّ الأدب شهادة تُعطى للإنسان من كلية الآداب، وكان يرى أنَّه أحق الناس بالشهرة والذيوع لأنَّه فوق كونه يحمل شهادة ليسانس الآداب، فهو أيضًا من أقرباء واحد من أشهر وأعظم أدباء مصر كلها في ذلك الحين، ولقد تصوَّر الأستاذ «د» أنَّ قرابته لهذا الأديب الكبير تمنحه الحق في أن يُصبح أديبًا، غير أنَّه اكتشف بالتجربة أنَّ الأسلحة التي يحملها كانت أسلحة فاسدة؛ ففي مجال الإبداع الأدبي والفني لا الشهادة تُجدي، ولا صلة القرابة بأديب عظيم تُفيد، ولذلك تذوَّق مرارة الفشل في كل التجارب التي خاضها، كتب قصصًا قصيرة لم يقبل أحد نشرها على الإطلاق، وكتب شعرًا فشل حتَّى في إقناع الأصدقاء بالإنصات إليه، ثمَّ راح يُشيع أنَّه يكتب رواية، ولكنَّه لم يبدأ في كتابة سطر واحد من هذه الرواية حتَّى مات؛ ولكنَّه فجأة اكتشف أنَّ أحد أبناء دفعته في الكلية الحربية قد صار مسئولًا كبيرًا، ولمَّا كان هذا المسئول يشتغل أيضًا بالصحافة، فقد أسندت إليه القيادة العامة مهمة الإشراف على إحدى المجلات الأسبوعية، ولذلك أسرع الأستاذ «د» إلى صديقه الذي كان عند حسن الظن به، فعيَّنه مُحرِّرًا بالمجلة التي يُشرف عليها، وأشاع الأستاذ «د»، أنَّه قد عُهِدَ إليه بالإشراف على المجلة، وأنَّه المسئول الوحيد عن توجيهها ورسم سياستها، وراح يشكو لكل معارفه من جسامة المسئولية وإرهاق العمل. واختفى الأستاذ «د» من قهوة محمد عبد الله، ولكنَّه كان لا يكف عن تكرار شكواه كلما التقى بزميل من زملاء الندوة في الطريق العام؛ ولكن كل شيء انكشف فجأة عندما حضر صديقه المسئول ذات مساء إلى القهوة ليعرف من عبد الحميد قطامش سر تغيب الأستاذ «د» مدة أسبوعين كاملين دون أن يترك رسالة لأحد؛ ولكن قطامش الذي كان يجهل هو الآخر سر غياب الأستاذ «د» برَّر غيابه بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه، وخطورة المهمة التي يضطلع بها الأستاذ «د» في إدارة سياسة المجلة والإشراف على تحريرها، وأبدى ذلك المسئول اندهاشه الشديد لتصوُّر قطامش الخاطئ، وراح يشرح لمن كانوا يحضرون الندوة تلك الليلة كيف فشل الأستاذ «د» في كل عمل أسنده إليه، وكيف أنَّه لم ينجح في كتابة موضوع واحد يصلح للنشر، لذلك عهدوا إليه بتلقي خطابات القراء وفرزها ثمَّ توزيعها على أقسام المجلة، وأنَّ هذا العمل فقط هو مهمة الأستاذ «د» في المجلة التي يعمل بها، وعندما علم الأستاذ «د» أنَّ صديقه المسئول حضر إلى قهوة عبد الله، وأنَّه كشف سره، اختفى تمامًا وظلَّ حريصًا على أن يبقى بعيدًا عن شلة أدباء قهوة عبد الله حتَّى مات!

ثالث الفرسان الذين اختفوا فجأة كما ظهروا فجأة هو شاعر بقي موجودًا في المجال الأدبي والفني حتَّى مات، وهذا الأديب الشاعر هو من شلة الشباب الذين يُمثِّلون الجيل

الثالث في ندوة قهوة عبد الله، والتي كان من بين أعضائها الشاعر صلاح عبد الصبور، والناقد رجاء النقاش، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي. هؤلاء حضروا إلى القهوة بعد عشر سنوات من حضور الجيل الثاني الذي كان من بين أفراده حسن فؤاد، ويوسف إدريس، وفتحي غانم، والعبد لله؛ ولكن هذا الشاعر لم يكن في شعره يُفصح عن أي اتجاه أو يُشير إلى أي موقف؛ ولكنَّه كان يقول شعرًا حديثًا عن حبيبته التي ذهبت، أو حبيبته التي ستعود! وكان أنور المعداوي قد تنبَّأ له بمستقبل طيب وسعى لنشر إنتاجه في بعض المجلات. وذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٥٩م حضر إلى القهوة مساءً وأعلن أنَّه اختير ليُسافر في بعثة إلى الاتحاد السوفيتي، وتحمَّس بعض الجالسين فعبَّروا عن سرورهم بكلمات قصيرة في تحية ذلك الشاعر، وللمستقبل الزاهر الذي يرجونه للشاعر الشاب، كان من بين الذين تكلموا في هذه المناسبة: أنور المعداوي، وزكريا الحجاوي، والدكتور القط، ومحمود شعبان، والعبد لله، وانفَعَلْتُ أكثر فنشرتُ الكلمات التي قيلت والمناسبة التي قيلت فيها في مجلة روز اليوسف، وتمنَّيت له رحلة سعيدة وإقامة طيبة في موسكو، ونجاحًا باهرًا في تحقيق الهدف الذي يرجوه. وكم كان أسفي شديدًا عندما علمت أنَّ الشاعر طاف القاهرة كلها يحمل عدد روز اليوسف صائحًا بغضب شديد مؤكِّدًا للجميع أنَّني ما قصدت بهذه السطور إلَّا الإبلاغ عنه ولفت نظر السلطات إليه ليمنعوه من السفر إلى موسكو! في تلك الفترة من حياة مصر كانت الحملة قد اشتدت على الاتحاد السوفيتي، وضد الأفكار المتطرفة، وكان عبد الكريم قاسم قد شرع في خوض معركة ضد القوميين في العراق وعلى مستوى الوطن العربي.

ونشبت معركة ضارية بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم، وبعد وقوع مذبحة الموصل قامت السلطة المصرية باعتقال ثلاثة آلاف شخص، وكان قرار الاعتقال يأمر بالقبض على «الشيوعيين، والمتعاطفين معهم، والذين يوجدون معهم لحظة القبض عليهم ...»، وألقت السلطة القبض على لويس عوض — وكان مديرًا عامًّا لإدارة الثقافة بوزارة الثقافة — وعلى الدكتور عبد الرزاق حسن — وكان مستشارًا اقتصاديًّا برئاسة الجمهورية — وكان بين المقبوض عليهم عشرات من الفنانين والصحفيين والكُتَّاب، وبلغ عدد المقبوض عليهم من مؤسسة روز اليوسف أحد عشر شخصًا من بينهم العبد لله. وبالرغم من اتساع قرار الاعتقال إلى حد اعتقال أشخاص لم يكن لهم أدنى صلة بالحركات المتطرفة ولا بالسياسة أصلًا، إلَّا أنَّ القائمة خلت من اسم ذلك الشاعر الذي أتحدَّث عنه، ليس هذا فقط، بل إنَّه بعد حركة الاعتقالات بثلاثة أشهر كاملة سافر الشاعر إلى موسكو، في الوقت الذي كان مجرد ذكر لفظ موسكو على لسان إنسان كفيلًا بنفيه إلى الواحات الخارجة.

والعبد لله هنا يذكر حقائق ويسرد وقائع دون أن أقصد من وراء ذلك الوصول إلى نتائج أو إصدار أحكام؛ ولكنَّني فقط أردت أن أكشف عن أوهام كثيرة سادت حياتنا الثقافية والأدبية في فترة من الفترات.

ولقد اختفى الشاعر في موسكو سنوات طوالًا، وعندما عاد لم يكف عن توزيع الاتهامات هنا وهناك على كثيرين من الكُتَّاب الشرفاء ... وباعتباره مندوب التقدمية الأوحد؛ ولذلك دهشت دهشة شديدة عندما مرض الشاعر مرضًا خطيرًا، وأشرف على الموت أثناء زيارة له إلى إحدى العواصم العربية، وتدخَّلت السلطات في تلك العاصمة لإيفاد الشاعر إلى موسكو للعلاج، غير أنَّ الحكومة الروسية رفضت دخوله إلى أراضيها، وبدون إبداء الأسباب! ولم أربط بالطبع بين رفض الحكومة السوفيتية لعلاجه، وسفره السابق المفاجئ إلى موسكو وسط حملة عاتية أطاحت بكل الأدباء والمثقفين، وألقت بهم إلى المنافي والسجون.

المهم أنَّ الشاعر اختفى فجأة من حياة قهوة عبد الله بسفره إلى موسكو، وعندما عاد كانت قهوة عبد الله قد اختفت من الوجود.

عباقرة الوهم!

كانت قهوة عبد الله منطقة جذب شديدة، وقد ذاع صيتها في بداية الخمسينيات، فجلبت أبصار الكثيرين، فهرع إليها مئات، بعضهم موهوب، وبعضهم موهوم، وكان هؤلاء الموهومون أكثر! كان أشهر موهوم من هؤلاء شاب في الخامسة والثلاثين من عمره، تعثَّر في دراسته، فوصل إلى شهادة كانت موجودة آنذاك اسمها الثقافة العامة، وجرَّب الشاب حظه في مدرسة عُليا كانت تُخرِّج «كونستبلات» شرطة، وهي درجة شبيهة بأمين شرطة الآن! ولكنَّه حتَّى في مدرسة «الكونستبلات» لم يُصادف توفيقًا، فهجر الدراسة، ووُفِّقَ في عمل بإحدى الشركات الأجنبية كمدير دعاية، ويبدو أنَّه صادف نجاحًا في هذا العمل، فاستقرت أحواله المادية!

وعندما اطمأن قلبه على غده، راح يُمارس هوايته ككاتب قصة، ولأنَّه كان متأثرًا بروايات السينما المصرية، فقد كانت قصصه كلها على هذا النحو. ولقد حاولت أكثر من مرة أن أقرأ له رواية كاملة ولكني لم أُوفَّق؛ فقد كان الكاتب أصلع العقل، وكان أسلوبه رديئًا، وثقافته ضحلة، وكثيرًا ما كان يُخطئ في الإملاء. ولكنَّه استطاع بدخله الكبير أن يطبع إنتاجه الأدبي على حسابه، في كتيبات صغيرة وأنيقة، وكان يحرص على أن يضع على الغلاف صورة لامرأة جميلة، وكان يختار عناوين رواياته شبيهة بأسماء أفلام السينما: صرخة في الظلام، انتقام المدينة، لهيب الثأر.

وكان المؤلف إيَّاه يتمتَّع بصحة جيدة، وكان يُميِّزه شارب ضخم كان يحرص على دهنه كل صباح بالجوزماتيك! وكان يحمل معه دائمًا حقيبة كبيرة كحقائب تلاميذ المدارس، ولكنَّها كانت من الجلد الفاخر، وكان المؤلف إيَّاه يبدو بشاربه الضخم وحقيبته الجلدية كأنَّه حلَّاق أفرنجي في حي الزمالك! وكان من عادته كلما أصدر رواية جديدة من تأليفه، أن يُقيم حفلًا يدعو إليه عددًا من صغار الأدباء، وكان يبدو سخيًّا في هذه الحفلات؛ يُطعم

المدعوين ويسقيهم، ثمَّ يُوزِّع عليهم نسخًا من كتابه الجديد، بعد أن يصف كل منهم في الإهداء: الأديب الكبير، والكاتب المطبوع!

فإذا انقضى شهر على هذا الحفل، دعا إلى حفل آخر أكبر ليُناقش مع المدعوين روايته الأخيرة، وكان يدعو مع الأدباء الصغار بعض صغار المحررين والذين يعملون في مجلات فنية خاصة، وكان يغدق عليهم الهدايا لكي ينشروا صورته مع خبر عن نشاطه الأدبي في المجلة، وكان هؤلاء يتفننون في اختلاق المناسبات التي يكتبون فيها عن الأستاذ، فأحيانًا هو في طريقه إلى رحلة ليتعرَّف على الأدباء العالميين، وأحيانًا ستُتَرجم روايته إلى اللغة البرتغالية! وكان هو يُصدِّق هذه الأخبار، ويحرص على الاحتفاظ بنسخة المجلة التي نشرت الخبر في الحقيبة، وكان يُردِّد أحيانًا — وبصوت يحمل رنة أسف: «مش عارف مين اداهم الخبر؟» ثمَّ يُخرج النسخة على الفور ويطلع عليها الآخرين!

وكنت أراه ينتحي في ركن ببعض الكُتَّاب الكبار، ثمَّ يُخرج محفظته ويدس أوراقًا في أيديهم، وكانت هذه السلَفيات غالبًا لا ترد! وكان يحلو له أحيانًا الحديث عن مشروعاته الأدبية في المستقبل، وكيف أنَّه أرسل عدة خطابات إلى الدكتور طه حسين والدكتور إبراهيم مدكور لمشاركته في هذه المشروعات.

ولكنه كان يتبجح في الحديث كلما انفرد بالشباب وبالأدباء، أمَّا في حضرة أنور المعداوي وعبد القادر القط فكان يلزم الصمت، وكان المعداوي يحتقره ويعتبره نبتًا شيطانيًّا، وليس له قيمة على الإطلاق، وكان يقول أحيانًا: إنَّ وجود هؤلاء من أسباب تدهور الحركة الثقافية في البلاد. وإنَّه لو كان الأمر بيده لحاكم هؤلاء على الورق الذي استهلكوه في إصدار كتبهم! وكان يشعر هو باحتقار أنور المعداوي لإنتاجه الأدبي، فكان يجلس منطويًا في حضرته، فإذا علَّق فبالاستحسان الشديد لكل كلام ينطق به أنور المعداوي.

وعندما انهدمت قهوة عبد الله، انتقل الأديب الموهوم إلى قهوة في عابدين وأنشأ فيها ندوة أطلق عليها اسمه، ودعا إلى حلقته بعض المُريدين من صغار المحررين وصغار الأدباء، ووجد فرصته في الندوة الجديدة فصار يُؤلِّف نظريات ويُطلق أحكامًا، فإذا استحسن إنتاج أحد البراعم، أشار نحوه وقال بصوت كصوت السيارة: أنت من مدرستي!

ولكن الأيام عبست للأديب الموهوم، فجرى التأميم على الشركة التي كان يعمل بها، ثمَّ طحنته الأيام، فلم يعد يُصدِر كتبًا، ولم يعد يكتب روايات جديدة، ثمَّ اختفى تمامًا في بداية الستينيات، وغاب تمامًا عن مقاهي ومحافل القاهرة! ولكنَّه قبل اختفائه كان قد

أسَّس لنفسه مدرسة بالفعل، وكان أهم تلاميذها شاب ريفي حصل على شهادة التجارة المتوسطة، ثمَّ جاء إلى القاهرة ولديه أحلام عريضة عن مستقبل أدبي حافل.

كان أكثر ثقافة من أستاذه، وكان قد قرأ شيئًا من الشعر العربي، وحفظ أبياتًا للمتنبي والبُحتُري وأبي تمام! وكان على إلمام بسيط بتاريخ مصر الحديث، وكان مُتحمِّسًا للثورة، ويعتقد أنَّها قامت لتمنح الفرصة له وللكادحين من الأدباء، وكان يُفضِّل العقَّاد على طه حسين، ويُفضِّل طه حسين على توفيق الحكيم، ويُفضِّل المنفلوطي على الجميع، وكان يكتب قصصًا أشبه بقصص جوركي، وكان أبطاله كلهم من الضائعين والصياع، ولكنَّه كان يكتب قصصه بلغة فصحى، وكانت سطحية وبلا عمق وتنتهي دائمًا بخطبة عصماء عن الفقر والفقراء!

وكان هذا الشاب وآخرون مثله ضحايا حرفة الترجمة التي نشطت في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات للأدب الروسي، وقد تصوَّر عديمو المواهب أنَّ سر قوة الأدب الروسي هو اهتمامه بطبقة الفقراء والناس العاديين، وتصوَّروا أنَّ الكتابة عن هؤلاء بلا فن ولا أدب هي الطريق إلى الشهرة وإلى المجد! وكان لهؤلاء الشباب بعض العذر؛ ففي فترة الفوران السياسي الذي شهدته مصر في تلك الحقبة، كانت الجماعات اليسارية تتعصَّب لأنصارها، وكانوا يُقدِّمون هذا الأدب على غيره من الألوان الأخرى، وكانوا يحتقرون أي موهبة لا يلتفت صاحبها إلى المشكلة الاجتماعية بعيون مفتوحة.

واعتبرت هذه الجماعات كُتَّابًا مثل عبد الحليم عبد الله، وأمين يوسف غراب، وإبراهيم الورداني كوَباء يجب مكافحته، وقدَّموا كُتَّابًا من أنصارهم ينحازون للفقراء ولكنَّهم بلا مواهب؛ فقلَّدهم البعض من عديمي المواهب، وإن كانوا لا يعُون المشكلة الاجتماعية، ولا يفهمون الصراع الطبقي، وبعضهم كان يحتقر طبقة العمال. وهؤلاء الضحايا ساروا على الدرب فترة، ثمَّ فتر حماسهم، فانشغلوا بأشياء أخرى في الحياة واختفوا في زحام الناس.

وقد رأيت بطل هذه القصة بعد ذلك بسنوات، وكان يحمل معه إيصالات ويمر على البيوت لتحصيل أجر الكهرباء! ولمَّا سألته عن نشاطه الأدبي مطَّ شفتيه وهزَّ رأسه ومضى!

والمرصفاوي كان واحدًا من الذين استهوتهم قهوة عبد الله وسعى إليها، وكان طالبًا في الأزهر ويحفظ ألفية بن مالك، ويؤلف شعرًا فخمًا وله رنين وليس له أي معني، ولا يُثير الإحساس في أي نفس، وكان يعتبر نفسه واحدًا من أُدباء هذا الزمان، وكان يُنافق كبار الأدباء؛ ولكنَّه كان يُهاجمهم بقسوة في غيبتهم! وكان دائم الشكوى من الفقر والإفلاس وغدر الزمان، ويعتقد أنَّ الحظ يُعانده، ويؤمن في الوقت نفسه بأنَّ كل صاحب موهبة

منحوس ومكتوب عليه أن يعيش في شقاء! ودائمًا يحمل معه كراسة من كراسات المدارس فيها قصائد من تأليفه، وكان هذا هو ديوانه الأول، وكثيرًا ما عرضه على أصحاب المكتبات الفقيرة في شوارع الجيزة الضيقة، ولم يكن يدري أنَّ أصحاب هذه المكتبات ... ربما أكثر منه فقرًا!

ولكن يبدو أنَّ شدة الحاجة أرغمت المرصفاوي على الاشتغال بالسياسة، وكانت فرصته الذهبية في انتخابات عام ١٩٤٩م، فانضمَّ إلى جانب مرشح سعدي وراح يُلقي كل مساء قصيدة عصماء في مدح المرشح، ويبدو أنَّ قصائد المرصفاوي كان لها تأثير في فقدان المرشح للتأمين، ولكنَّه مع ذلك واصل العمل كشاعر في الحزب السعدي، وظهرت نتائج هذا العمل على ملابس المرصفاوي وعلى طريقة حياته.

ويبدو أنَّه ارتاح لِمَا وصل إليه فترك الدراسة بالأزهر وتفرَّغ تمامًا للعمل السياسي! وبعد إلغاء الأحزاب وحظر نشاطها اختفى المرصفاوي تمامًا، ولم أرَه بعد ذلك إلَّا صدفة في بورسعيد، وقد لمحته يرتدي جلبابًا مُمزَّقًا، وحافي القدمين، ويركب «عجلة بسكليت» ويضع على رأسه قفص عيش بلدي، ويبدو أنَّه اشتغل عاملًا في أحد أفران المدينة!

ولكن أغرب هؤلاء الموهومين كان موظفًا في إحدى المصالح، وكان يُتقن اللغة الإنجليزية، وكان يُؤلِّف روايات جنسية ويضع لها أسماء مثيرة ويصدرها في كتب، واستطاع أن ينشر اسمه عن طريق إعلانات في الصحف اليومية ومع الإعلان صورته، وهو يضع يده تحت خده كالشاعر شوقي بالتمام والكمال.

وصادف الكاتب حظًّا في البداية فكان يحضر إلى قهوة عبد الله ويشترك أحيانًا في النقاش، وأحيانًا أخرى كان يظهر في القهوة ومعه نسخ فرنسية لروايات حديثة ظهرت هناك، ولكن لمؤلفين مغمورين، وكان على استعداد دائمًا لإعارة هذه الكتب لمن يريد! وكان يتصوَّر أنَّ إحسان عبد القدوس لا يمتاز عنه في شيء إلَّا أنَّه صاحب دار نشر، وصحفٌ تنشر إنتاجه، وآه لو أنَّه حصل على هذه الفرصة، إذن لتقدَّم المسيرة ووضع إحسان ويوسف السباعي في الخلف! وكان يعتقد بأنَّ يوسف السباعي نجح لأنَّه ضابط جيش وفي السلطة! وينسب نجاح عبد الحليم عبد الله لنفوذه في المجمع اللغوي، ويؤكِّد أنَّ نجاح يوسف جوهر مرجعه إلى أنَّه من عائلة جوهر الثرية!

وبعد أن انتعشت أحواله فترة، صادف المتاعب بعد ذلك، ثمَّ قام بتمثيلية انتحار حيث ترك بعض ملابسه على شاطئ النيل وخطاب إلى من يهمه الأمر، ثمَّ سرح فترة في شوارع القاهرة يستدين من أصدقاء الطفولة وزملاء الماضي، وكان قد أصدر عشرين كتابًا من

هذا النوع الذي يجيد تأليفه عندما بدأ يتسكع في الشوارع! والحق أقول: إنَّ هذا الأديب الضائع وأشباهه كانوا ضحايا إحسان عبد القدوس؛ لأنَّهم تصوَّروا أنَّ نجاح إحسان محوره الكتابة عن المرأة، ونسوا أنَّ إحسان فنان موهوب، وأنَّه يستخدم أدواته بحذق ويُجيد أسرار صنعته ويُقدِّمها بفن! تصوَّروا أنَّ الكتابة عن عالم المرأة فقط تضمَن الرواج والانتشار، ولقد حقَّقوا الرواج والانتشار من البداية، ثمَّ أغراهم ذلك إلى مزيد من السقوط، فانحصرت عناوين رواياتهم في عبارات من نوع «تعالي إلى أحضاني»، أو «مذكرات بنت ليل»، إلى آخر هذه العناوين التي استهوت المراهقين فترة، ثمَّ هجروها بعد أن اكتشفوا زيفها وفقر موهبة كُتَّابها! وانتهى هذا الفريق كله نهايات رهيبة، وضاعوا جميعًا فلم يبقَ من إنتاجهم «الأدبي» أي شيء!

ولكن أغرب هؤلاء الموهومين كان مُصحِّحًا في إحدى المجلات الميتة، ولأنَّ المجلة فقيرة فكانت تُرحِّب بنشر أحاديث للمصحح يجريها عادة مع بعض ضيوف القاهرة من الأدباء والفنانين، واستطاع عن طريق أحد هؤلاء الضيوف أن يحصل على عقد عمل في مجلة تصدر في بلد شقيق، وكان ذلك في بداية الستينيات، واستطاع أن يثبت مكانه هناك بالقليل الذي كان يعرفه عن مهنة الصحافة!

وعن طريق معارفه في القاهرة استطاع أن يربط به عددًا من الأدباء المتوسطين، واستطاع أن يحصل على رضاهم بنشر إنتاجهم في المجلة التي يعمل بها، ولذلك كنت ترى اسمه أحيانًا بين الكُتَّاب الذين يستشهد بهم هؤلاء الأدباء في كتاباتهم، واستطاع أيضًا أن ينشر بعض إنتاجه الأدبي في دور نشر بالقاهرة مقابل شراء نسخ من كتبه بعملة البلد الذي يعمل فيه؛ ولكنه فجأة ترك العمل في المجلة وانضم لأحد الزعماء هناك، فلمَّا وصل الزعيم إلى الحكم جرَّه معه فصار مديرًا لمكتبِه، وحصل على جنسية البلد الشقيق وصار من رجال السلطة، ونسي الأدب، واعتبره مجرد خطوة على طريق المجد الذي وصل إليه!

ولكن مهدي كان أكثر هؤلاء الموهومين شفافية وحساسية ... ولذلك انتهى النهاية التي كان لا بد أن ينتهي إليها، فقد جرَّه أحد أعلام قهوة عبد الله ذات مساء، وكان شابًّا حديث التخرج من كلية الحقوق، يمتلئ صحة وحيوية، وكان يُجيد الترجمة، ولديه قدرة على الإبداع أحيانًا؛ ولكنَّه كان بطيئًا يرى أنَّ الحياة جديرة بأن يحياها الإنسان دون أن يبذل جهدًا كبيرًا! ولذلك فصلته جميع دور النشر التي اشتغل بها؛ لأنَّه كان لا يرى سببًا واحدًا للعجلة، كما كان يؤمن بأنَّ الصبر مفتاح الفرج! ولكن صبره طال دون أن يصادف أي فرج على الإطلاق، اللهم إلَّا عم فرج صاحب المطعم الذي كان يتعامل معه على الحساب.

وكان أكولًا تراكمت عليه الديون في المطعم فتوقَّف عن إطعامه، وكان حينئذٍ يضطر إلى ترجمة بعض الكتب وبيعها لآخرين لإصدارها في دوريات شهرية بأسمائهم، وعندما كانت تلح عليه الظروف، كان يُترجم الكتاب في ساعات قليلة وهو جالس على المقهى؛ ولكنَّه كان يتوقف تمامًا عن أي عمل ما دام في جيبه شيء من النقود، ثمَّ توالت عليه المصائب إلى درجة أنَّه باع بعض ملابسه.

ثمَّ اضطر للتجوال في القاهرة ببنطلون بيجامة وجاكتة قديمة، واستأجر دكان مكوجي بالجيزة لينام فيه ليلًا وبعد انتهاء العمل، وكان يضطر للسهر على المقهى في ليالي العيد لأن المكوجي لا يغلق بابه في تلك الليلة!

ثمَّ مات مهدي فجأة بعد مرض خاطف لم يمهله إلَّا قليلًا، ولم يعرف بموته أحد إلَّا بعد دفنه بعدة أسابيع.

وكثيرون آخرون من هذا الصنف الموهوم مروا على قهوة محمد عبد الله؛ ولكن مرور الكرام، وكانوا كالطيف أو كالضيف لم يلبثوا كثيرًا، جذبتهم الأضواء فترة ثمَّ خطفتهم مشاغل الحياة فودَّعوا أحلامهم، ودفنوا طموحهم، وساروا في الطابور الطويل، وانتهى أمرهم.

ولكن لا شك أنَّ قهوة عبد الله كانت بمثابة معمل اختبار لكل النماذج التي خفق قلبها يومًا بحب الأدب، وراودتهم أحلام الشهرة والانتشار. أمَّا أصحاب المواهب الحقيقية فقد مكثوا في الأرض، أمَّا أصحاب المواهم فقد ذهبوا في القازوزة وابتلعتهم دوامة الحياة، ولكن حتَّى هؤلاء كانوا أسعد حظًّا من غيرهم من أصحاب المواهم؛ لأنَّ بعض أصحاب المواهم أدركوا بعد فترة أنَّهم يسبحون ضد التيار فأقلعوا عن السباحة ولجئوا إلى البر؛ ولكن بعضهم ركِبه العِندُ فتصوَّر أنَّ هناك مؤامرة محلية ضد موهبته، والبعض الآخر تصوَّر أنَّ هناك مؤامرة دولية لقتل هذه الموهبة؛ لأنَّ نموها وتفجُّرها كفيل بتغيير الحياة!

من هؤلاء نموذج كان والده عسكري في مصلحة السجون، وكان ثوريًّا لا يتنازل ولا يقبل أي عذر، وكان يرى أنَّ الحل الوحيد هو إشعال النار في أركان العالم الأربعة، وقتل كل أصحاب الأرض، وكل أصحاب الفلوس، وكل ذوي المرتبات العالية، وكل المشهورين في كل فن، وكل صاحب شركة أو دكان، وكان يعتبر أصحاب الدكاكين هم سبب البلاء على هذه الأرض.

أما الأدب فقد كان في رأيه أنَّه السلاح الوحيد القادر على إشعال نار الثورة؛ ولذلك كان يحتقر كل الأدباء وكل الشعراء، وكان يرى أنَّهم سبب كل المصائب والنوائب التي

حلَّت بالبشر! وكان يخص أدباء قهوة عبد الله بالذات باحتقار خاص، ولكنَّه كان يُضمر هذا الشعور لاعتقاده أنَّهم كانوا عقبة على طريق النشر والوصول إلى الجماهير، وكان يرى أنَّ الأدب الحقيقي هو الأدب المباشر الذي يدعو إلى الثورة! وكان زكريا الحجاوي يصف ما يكتبه «بالمنشورات»!

ولكنه قبل أن ينشر أو يشتهر ذهب إلى السجن في حملة اعتقال طائشة عصفت بالكثيرين، وعندما خرج من السجن كانت قهوة عبد الله قد أُزيلت من مكانها، فانتقل إلى قهوة أخرى داخل حواري الجيزة، وأعلن من هناك قيام «الثورة الشاملة»! وعندما ترك كثيرون من أعضاء التنظيمات اليسارية تنظيماتهم وانضموا إلى تنظيم عبد الناصر، أعلن أنَّ هؤلاء خونة أسفروا عن وجوههم!

وأصدر كُتيِّبًا صغيرًا اتهم فيه عبد الناصر بأنَّه عميل المخابرات المركزية الأمريكية، وحدَّد رقمه كعميل في إدارة المخابرات، ودعا جميع الثوريين إلى حمل السلاح لإسقاط عبد الناصر الأمريكي!

وفي نهاية الستينيات أُلقي القبض عليه في قضية سياسية، وبقي في السجن حتَّى أُفرج عنه في يوليو عام ١٩٧١م، واستطاع بعد قليل أن يجد لنفسه عملًا في إحدى المؤسسات الصحفية، وأعلن أنَّ اشتراكه في هذه المؤسسة هو إجراء تكتيكي للوصول إلى الهدف المنشود! ولكن يبدو أنَّ الأخ الثوري قد استكان للحل التكتيكي، فاختفى تمامًا من الجيزة، ولم يعد أحد من شلة القهوة يراه.

ولكنَّه سرعان ما عاد إلى الظهور من جديد، مسئولًا للدعاية عن إحدى شركات الانفتاح، وهي لم تكن شركة بالمعنى المفهوم، ولكنَّها كانت عملية تهليب انتهز أصحابها فرصة ما أسموه بالانفتاح.

ويبدو أنَّ صاحبنا الثوري قد تطوَّرت أعماله بشكل كبير، فاقتنى سيارة مرسيدس «خنزيرة» وسكن في بيت على النيل، واشترى قطعة أرض على ترعة المنصورية، واشترى عدة شقق صغيرة في شارع فيصل وشارع الهرم باعتبار (أهي تنفع)؛ ولكنَّه وسط انشغاله بعمليات البيع والشراء نشر بحثًا سياسيًّا في كتاب أعلن فيه أنَّ عبد الناصر لم يكن اشتراكيًّا؛ ولكنَّه كان مجرد دكتاتور اختفي تحت شعار كاذب هو الاشتراكية، وأنَّ السادات هو الممثل الحقيقي للطبقة الرأسمالية، ولذلك يسمح لممثلي الطبقات الأخرى بالوجود على الساحة، ودعا جميع الاشتراكيين الحقيقيين للاستفادة من فترة الانفتاح لتحقيق الثراء تحسبًا للأيام الصعبة وللجهاد المنتظر بعد فترة السادات!

ويبدو أنَّه لم يكن الوحيد الذي اقتنع بهذا المنطق، ولكن يبدو أنَّه كان أكثرهم حذقًا وشطارة، فسرعان ما استقل عن زملائه في العمل، وانفرد بشركة انفتاحية، ومدَّ نشاطه إلى إسرائيل، وكان يُعلن دائمًا في مجالسه الخاصة أنَّه على جميع الثوريين أن يُوجَدُوا في إسرائيل، ويُعمِّقوا صلاتهم بها لمعرفة ما يدور داخلها، وللوقوف على نواياها الحقيقية.

ولكنَّه بعد مقتل السادات هاجر من مصر ونقل نشاطه إلى دولة أوروبية، وافتتح لنفسه مكتبًا وبدأ التعامل مع الخليج؛ ولأنَّ كل شيء يُنسى في بلادنا بعد حين، فقد أعلن رجل الأعمال الثوري أنَّ الاشتراكية لم تستطع حل مشاكل البشر، وأنَّ الرأسمالية انتهى زمنها، وأنَّه على الثوريين الحقيقيين أن يبحثوا عن نظرية جديدة تصلح لعلاج مشكلات البشر، ثمَّ أعلن أنَّه عاكف في الوقت الحاضر على وضع أسس النظرية الجديدة، وإن كان هذا لم يمنعه من شراء عدة بيوت في ضواحي لندن، وعدة مكاتب في لندن نفسها.

وما أكثر عينات البشر التي مرَّت على قهوة عبد الله؛ لقد كانت بحق أشبه بميناء كبير يتردَّد عليه الرُّكَّاب وأصحاب المصالح والشيالون والنشالون والمودِّعون والمستقبِلون، كلهم يلتقون على رصيف المقهى أو الميناء فترة ثمَّ يفترقون، ولكن تمتاز قهوة عبد الله عن الميناء بأنَّ الذين التقوا عليها كانوا من نوعيات خاصة، وكان لديهم أحلام وطموحات كبيرة، ولكن لأنَّ أقدارنا ليست بأيدينا يا نهر البنفسج — على رأي زكريا الحجاوي — فقد اختلفت الحظوظ والأقدار عند نهاية الطريق.

بداية ونهاية

قهوة محمد عبد الله كانت تتوسَّط ميدان الجيزة في عصره الذهبي الذي كان، كان الميدان وقتئذٍ فسيحًا تتناثر على جانبيه مساحات من الأرض الفضاء قامت عليها ناطحات السحاب وأطبقت على الميدان وخنقت أنفاسه، وكانت القهوة تحتل ناصية هامة للغاية، ويتفرع على جانبيها شارعان من أهم شوارع الجيزة وأقدمها: شارع سعد، وشارع عباس، وكان للقهوة ثلاثة أبواب فسيحة مفتوحة على الميدان، وباب جانبي مفتوح على شارع عباس، وكانت كراسي القهوة تتناثر على رصيف الميدان وتطل عليه، وتصبح الجلسة على رصيف المقهى جزءًا من جغرافية الميدان، وكان المعلم محمد عبد الله يتخذ لنفسه محلًّا مختارًا داخل المقهى وإلى جوار «النصبة» حيث يتم إعداد الشاي والقهوة وغيرهما من الطلبات، وكان اختياره للمكان نتيجة دراسة جدوى؛ لأنَّه كان من مجلسه يُراقب عامل المقهى، كما أنَّ المارة في الميدان كان باستطاعتهم أن يُشاهدوا المعلم محمد عبد الله ومن أي زاوية من زوايا الميدان، كان المعلم محمد عبد الله رجلًا سمينًا ممتلئًا، ليس بالقصير ولا بالطويل؛ ولكن أكتافه كانت عريضة، وصدره بارزًا، وشاربه يُغطي مساحة كبيرة من وجهه، وكان مُتجِّهمًا على الدوام، لم أضبطه مرة واحدة في حالة ابتسام، وكان في حالة استنفار على الدوام، إذا تسلل إلى المقهى مواطن عطشان يريد أن يشرب ماءً مثلجًا نهره المعلم بالحسنى أولًا، ثمَّ بطريقة أخرى إذا لزم الأمر، أمَّا إذا تهجم بائع سرِّيح أو صباغ أحذية ودخل المقهى فليس أمام المعلم إلَّا طريقة واحدة للتعامل مع هؤلاء، فقد كان يقذفهم بما يتيسر من أدوات تحت يده: كوب شاي ساخن، أو فردة حذاء! ولذلك كانت قهوة عبد الله آمنة تمامًا، وحدودها محترمة. ولم يُشَاهَد أحد من غير زبائنها يشرب من مياهها، ولم يُسْمَح لأحد من صبَّاغي الأحذية باختراق حدودها إلَّا الولد «بحبح»، فهو الوحيد الذي كان مسموحًا له بهذا الشرف الرفيع!

وكان «بحبح» شهيرًا في الجيزة، فقد كان في مواجهة قهوة عبد الله استوديو للتصوير السينمائي، هو استوديو «توجو مزراحي»، وهو يهودي مصري اشتغل بالإخراج السينمائي وأخرج خمسين فيلمًا مصريًّا على الأقل، ثمَّ هرب من مصر بعد حرب فلسطين ولم يسمع عنه أحد شيئًا بعد ذلك. وكان «بحبح» يقوم أحيانًا بأدوار ثانوية صغيرة في الأفلام، وفي فيلم «علي بابا والأربعين حرامي» قام بدور حرامي، واستغرق ظهوره على الشاشة دقيقة كاملة، ومن يومها اعتبر «بحبح» نفسه نجمًا سينمائيًّا، وكان يتعامل مع الجميع على هذا الأساس!

وكان للمعلم محمد عبد الله أبناء كثيرون، كلهم لهم نفس الهيئة ونفس السحنة ونفس التكشيرة التي تُخيف الطير السارح في فضاء الله؛ ولكن حسن كان أضخم من والده وأقوى، وكان محترف خناقات، ولكن في غيبة أبيه! وكان أحمد هو الابن الأكبر للمعلم محمد عبد الله، وكان أقصر من أبيه، وإن كان يتمتع بكل صفاته الأخرى: النظرة الميتة، والقبضة الحديدية، وعدم الاهتمام بأي شيء في الحياة إلَّا القهوة والزبائن والطلبات.

الرجل الوحيد الذي خرج عن القاعدة العامة المعمول بها في القهوة هو الجرسون؛ فقد عمل في شبابه مع خواجات من بلاد اليونان، وشرب منهم أسرار الصنعة وقلَّدهم حتَّى في النداء على الطلبات! فقد كان يطلب الشاي والقهوة بأسمائها الأفرنجية، وبشكل مختلف عمَّا اعتاده الناس في قهاوي حي الجيزة الشعبي العريق، وكانت ملابسه دائمًا نظيفة، وشعره دائمًا لامعًا، حتَّى بعد أن تآكل من الوسط ظلَّ حريصًا على تصفيفه، وتلميعه لكي يبدو في الهيئة اللائقة على الدوام! وكان يتمتع بكياسة وذوق ومشاعر رقيقة، وكأنَّه أحد شعراء العصر الفيكتوري الزاهر، وكان يعرف قدر الأدباء ويُكِن لهم احترامًا شديدًا، ولذلك كان يُلبِّي طلباتهم دون أن يُصر على تقاضي الأجر، وأحيانًا كان يُقرضهم بعض النقود إذا كانوا في حاجة إليها، وبعضهم مات دون أن يُسدِّد ديونه! وكان هذا الجرسون الطيب رغم فقره وضنكه حريصًا أشد الحرص على تعليم ابنه الأكبر، وقد حصل الولد على شهادته الجامعية وحقَّق حلم أبيه، وحقَّق الولد لنفسه وضعًا اجتماعيًّا جديدًا؛ ولكنَّه لم يمد يد المساعدة إلى والده الذي حرَّم على نفسه كل متع الحياة من أجل تعليمه، ومات الجرسون الطيب حزينًا، وعانى شظف العيش والحاجة في نهاية حياته، بينما كان ولده ينعم بحياة ميسورة في شقته بحي الدقي دون أن يُكلِّف نفسه عناء السؤال عن أحوال الوالد المريض!

ولعلَّ هذا السلوك من جانب الولد كان أحد الأسباب التي قصمت ظهر الجرسون الطيب وعجَّلت بوفاته، ولقد أسعدني الحظ بالاشتراك في جنازته، وابتهجت كثيرًا عندما

لمحت بين الأعداد القليلة التي حضرت الجنازة «بحبح»، والمعلم أحمد الابن الأكبر للمعلم محمد عبد الله.

كانت هذه هي شخصيات القهوة: المعلم عبد الله، وولداه، والجرسون الطيب، وبحبح صبَّاغ الأحذية، وعبادة المجنون — وقد أفردنا له فصلًا خاصًّا به في بداية هذا الكتاب.

وقصة محمد عبد الله قصة تتكرَّر كثيرًا في حياة أبناء الصعيد، يُهاجر الواحد منهم إلى القاهرة وليس معه إلَّا ثمن تذكرة القطار، وبعضهم كان يحضر إلى القاهرة في مركب شراعي، ثمَّ يدخل السوق ليتاجر في أي شيء، وبعد دورة زمن يستقر في مكان، ويبدأ حياة جديدة وطورًا جديدًا يختلف كل الاختلاف عن المرحلة التي سبقت. كثيرون من هؤلاء حقَّقوا الكثير، ووصلوا إلى قمة السلم الاجتماعي، وأصبح بعضهم من أصحاب الملايين ومن أصحاب النفوذ أيضًا، ولكن محمد عبد الله لم يكن طموحًا إلى الحد الذي يرفعه إلى هذه المكانة، فقد كان يطمع في الستر، ولا بد أنَّه حقَّق كل أهدافه عندما صار صاحب قهوة وفي أبرز مكان في الجيزة، ولم يُحاول مرة واحدة تطوير القهوة أو حتَّى تجديدها؛ إنَّ الكراسي بقيت كما هي، فلمَّا تكسَّرت وتحطَّمت كان يكتفي بركنها داخل المقهى، حتَّى الجدران التي تشقَّقت واتسخت وتداعت بعض أجزائها لم يُفكِّر مرة واحدة في ترميمها أو طلائها، ولكنَّه ترك كل شيء يسير في طريقه حسب ما هو مُقدَّر، ووفق ما هو مكتوب له في اللوح المحفوظ، ولم يكن يعرف قدر هؤلاء الذين اختاروا قهوة عبد الله ندوة أدبية لهم؛ ولكنَّه كان يخشى نفوذهم، فهو يرى صورهم في الجرائد، ويستمع إلى أصواتهم في الراديو، وكان — أغلب الظن — يتصوَّر أنَّهم في مناصب كبرى: ضباط مباحث ربما، أو مفتشون في الري، أو من رجال التموين! وذات مرة سألني: هوه أنور أفندي المعداوي بيشتغل إيه بالضبط؟ فلمَّا أجبته بأنَّه أديب، عاد يسألني: يعني بيعمل إيه؟ وقلت له: بيعمل أدب، فعاد يسأل: وإيه هوه الأدب؟ وبعد فترة صمت قصيرة قلت له: ... الأدب هو كل كلام لا تفهمه ...! وهزَّ عم محمد عبد الله رأسه ... ولكني أعتقد أنَّه لم يفهم، فلم يكن لديه الاستعداد ولم يكن راغبًا في ذلك!

وإذا كانت كل نظريات علم الاجتماع تؤكد أنَّ الإنسان مدني بالطبع، إلَّا أنَّ عم محمد عبد الله أثبت فساد هذه النظرية وعدم صحتها، فلم أُشاهده مرة واحدة يتحدَّث مع أحد، ولم أسمع صوته إلَّا في مشاجرة، ولم أُشاهد له حركة إلَّا في خناقة حامية الوطيس تسيل فيها الدماء، لم يكن يكلم حتَّى أبناءه، وكان إذا اقترب من القهوة في الصباح، وقف أولاده وقفة عسكرية وقد ارتسم الذعر الشديد على وجوههم، وكانوا يؤدون أعمالًا شاقة في القهوة

وبأقل أجر، فإذا أكل جلس على المائدة وحده بينما أولاده يختلسون إليه النظرات من بعيد، فإذا انتهى من طعامه ترك لهم بقاياه، وكانوا لا يستطيعون الاقتراب من المائدة إلَّا بعد أن يغسل المعلم يديه ويجلس في مكانه المعتاد لشرب الشاي، ولم يكن له مزاج خاص في المأكل أو في المشرب، فكان يشرب من نفس الشاي الذي يشرب منه الزبائن، وكان يأكل أي شيء يُقدَّم إليه، وأغلب طعامه كان جبنة قديمة وخيارًا أخضر وبعض المخللات، وكان يأكل اللحم بين الحين والحين، وعندئذ كان يختفي داخل «النصبة» حتَّى لا يراه أحد، ولم أُشاهده في حياتي يشتري شيئًا لنفسه، ولكنَّه كان أحيانًا يذهب لشراء لوازم القهوة من تاجر جملة في «بين الصورين». وكان رأسه كبيرًا وصلبًا، وكان إذا ضرب أحد الناس برأسه ألقاه على الأرض بلا حراك.

وكان أبناؤه ينظرون إليه على أنَّه بطل تاريخي، ولذلك ظلُّوا يدورون في فلكه ولم يتمكَّن أحد منهم أن يُغيِّر مساره ويتخذ لنفسه مدارًا خاصًّا به، ولقد مات ابنه حسن قتيلًا في معركة مع بعض الصعايدة الذين اتَّخذوا من رصيف القهوة مقرًّا لبيع الفواكه، ولأنَّ «حسن» كان قويًّا وكان مفتونًا بعضلاته، فقد خاض المعركة وحيدًا ضد مجموعة من أبناء «الكوامل»، وهي قبيلة عربية اشتهرت بالشجاعة والعنف، وأقامت منذ الفتح الإسلامي في أقاصي الصعيد، وبالرغم من أنَّه صمد في المعركة إلَّا أنَّه تلقَّى في النهاية عصًا غليظة على أم رأسه أفقدته النطق وأصابته بالشلل، وكانت السبب المباشر في وفاته بعد ذلك بأسابيع! ومع ذلك لم يُظْهِر عم محمد عبد الله حزنه، ولم يجعل أحدًا يشعر بأنَّه فقد شيئًا يُمكن أن يأسف عليه، وظلَّ وجهه يحمل نفس المعالم ونفس التعبيرات، وربما شعر في قرارة نفسه ببعض الارتياح؛ لأنَّ «حسن» كان قد تعوَّد في السنوات الأخيرة أن يختلس شيئًا لنفسه من إيراد القهوة!

وأخيرًا قُدِّر للقهوة أن تموت عندما هدموا العمارة، ولكنَّها كانت قد ماتت قبل ذلك، ماتت بالبلَّاجرا وسوء التأثيث وسوء الصيانة وسوء الرعاية، ولذلك لم تكن وفاتها مفاجأة إلَّا للمعلم محمد عبد الله نفسه الذي انزوى بعد ذلك في بيته، ولكن فترة الانزواء لم تدُم؛ فسرعان ما فقد شهيته للطعام، وفقد رغبته في الحياة ثمَّ أسلم الروح في هدوء ... ومات! وعبثًا حاول الابن الأكبر أن يلعب دور والده دون جدوى؛ استأجر قهوة قريبة من الميدان، واتصل ببعض الأدباء ليعيد مسيرة قهوة عبد الله، ولكن القهوة ماتت بعد أشهر من افتتاحها، وعاود الكرة من جديد ولكنَّه فشل، وتكرَّر فشله بعد ذلك عدة مرات، ثمَّ ضاع في الحياة، ومات ولم يبلغ الخمسين.

رحم الله المعلم عبد الله، كان في جلسته المعتادة خلف مكتبه الحقير داخل المقهى أشبه بأسد هارب من حديقة الحيوان؛ ولم أُصادف في حياتي رجلًا استغنى عن الحياة وعن الأحياء كما محمد عبد الله، وأثبت أنَّ الإنسان يُمكن أن يكون مدنيًّا أحيانًا ووحشيًّا إذا لزم الأمر!

هنـــداوي